جامعة الأزهر

مجلة
كلية اللغة العربية
بإيتاى البارود

العدد العاشر

١٤١٤ - ١٩٩٣

جامعة الأزهر

مجلة

كلية اللغة العربية

بإيتاى البارود

إشراف الأستاذ الدكتور

محمود على السمان

عميد الكلية

العدد العاشر

١٤١٤ ـ ١٩٩٣

بسم الله الرحمن الرحيم

يطلع علينا هذا العدد الجديد من مجلة كلية اللغة العربية بالبحيرة ـ إيتاى البارود ـ والحياة العلمية فى جامعة الأزهر الشريف يدب فيها نشاط كبير واسع ، فقد امتدت جامعة الأزهر بكلياتها الخمسين من أقصى البلاد الى أقصاها شمالا وجنوبا ، وشرقا وغربا ، فى مصر الكنانة وما ذاك إلا للتفاعل الخصب بين الجامعة وعامة الشعب وخاصة المسئولين ، كما هو بين الأزهر كله والعالمين العربى والإسلامى والتفاعل بين الجامعة والشعب والمسئولين جعل التنافس فى إنشاء كليات جديدة للجامعة يتخرج فيها أبناء الشعب بالكثرة والغزارة الفائقتين أملا يراد منهم تحقيقه وهدفا يسعى جميعهم إليه .

ولا شك أن دور قيادات الجامعة وعلى رأسهم الأستاذ الدكتور عبد الفتاح الشيخ رئيس الجامعة فى اتساع رقعة الجامعة وانتشار فروعها وكلياتها فى كل منحى من أنحاء

البلاد ـ دور كبير بل خطير على أن المنشآت الجديدة للكليات قد اتسمت بالضخامة والفخامة والاتساع ، مما يهيئ لطلاب العلم فى أزهرنا الجديد تعليما جادا مثمرا مفيدا للعلم واللغة والدين بإذن الله وعونه

يطلع علينا هذا العدد الجديد من المجلة والجامعة هكذا فى ثوب قشيب من النشاط والحيوية ومجلتنا وهى جزء من هذا النشاط يبدو فيها حياة علمية خصبة ببحوث جيل جديد من كوادرها العلمية الجديدة ... من أبنائنا المدرسين فيها الذين يصعدون فى طريق البحث العلمى بما ينشرونه من هذه البحوث فى مصادر النشر العلمية المختلفة .

وقد حفل هذا العدد من المجلة ببعض أشكال التخصصات العلمية التى تعد الكلية طلابها فيها ... فجاء فيه بحثان فى اللغويات وآخران فى التاريخ ، وبحث فى الأدب والنقد

أما بحثا اللغويات فأولهما بحث السيد الدكتور عوض مبروك فى موضوع : « نصب الفعل المضارع بعد الواو » ويشغل الأرقام ٣ ـ ٦٤ من صفحات المجلة ، وهذا البحث

امتداد لبحث سابق للأخ الزميل فى موضـــــوع : « نصب المضارع بعد الفاء » نشر فى عدد المجلة التاسع لسنة ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م وقد توصل فيه الباحث - كما تقل ل فى ص ٣ - الى نتائج قيمة - فرأى من الواجب عليه أن يبحث فى نصب الفعل المضارع بعد الواو لعله يستطيع أن يخدم العربية ثم يقول : « وانه قد رأى فى آيات كريمة من القرآن الكريم غير ما رأى علماء النحو السابقون .. »

ماذا رأى فضيلته ؟ .. ذلك ما يكشف عنه البحث

وثانى البحثين اللغويين - بحث السيد الدكتـــــور وجيه عبد العزيز زيادة ، فى موضوع : « تاء التـــأنيث : خصائصها وأغراضها » ويشغل من العـــدد الصـــفحات من ١٦١ - ٢١٢ .

وقد خص الباحث فى بحثه تاء التأنيث من بين العلامات التى وصفت للفرق بين المؤنث والمذكر ، لكونها دون غيرها من العلامات « أكثر وأظهر دلالة من غيرها ، كما أنها - الى جانب ذلك - تحمل العديد من المعانى والأغراض ، كالفرق بين

الواحد والحين ، والمبالغة ، وتأكيد المبالغة وغير ذلك مما يتضح فى البحث .

وأما البحثان فى التاريخ فأولهما بحث السيد الدكتور أحمد محمد الدسوقى فى موضوع : « ثغر ملطية ، ودوره فى الجهاد ضد البيزنطيين » وقد ورد فى صفحات هذا العدد من المجلة ما بين صفحتى ٦٥ ، ١٦٠ .

وفى البحث كما يقول السيد الباحث عرض الجهاد وشعب ملطية وصفحة من تاريخ أمتنا الاسلامية كساها الإشراق والفخار فى معظم سطورها ... »

وثانى البحثين فى التاريخ — بحث السيد الدكتور أنس هارون عبد المجيد ، فى موضوع : « مواقف الشعوب إزاء صراع الخارجين مع الدولة » وقد جاء البحث فيها بين الصفحتين ٣٢٥ ، ٤٠٠ .

وقد بنى الباحث مناقشته لمواقف الشعوب على أساس محاور رئيسية أربعة هى : المحور العقائدى ، والمحور العسكرى ، والمحور الاجتماعى ، والمحور المكانى أو البيئى

وأما بحث الأدب والنقد وهو للأخ الدكتور عبد الكريم أحمد فراج فى موضوع : « خطبة الوداع من منظــور عام للخطبة الجاهلية والإسلامية ويشمل من المجلة الصفحـات ما بين رقم ٢٠٣ ، ٣٢٤ .

وقد ربط الباحث فيه بين الخطبة الجاهلية والخطبـة الاسلامية ، وأبان عن عمومية القواعد والقيم التى ذكرهـا الرسول صلوات الله وسلامه فى خطبته وشمولها ، بحيث أصبحت خطبة الوداع دليل عمل ، وإعلانا عالميـا لحقـوق الإنسان وواجباته فى كل زمان ومكان .

وبهذا يتم عقد المجلة الفـريد بحبـات بحـوثه العلميـة الثمينـة .

والله من وراء القصد ، وهو نعم المولى ونعم النصير

د . محمود السمان
عميد الكليـة

جامعة الأزهــــر
كلية اللغة العربية فى إيتاى البارود

نصب الفعل المضارع بعد الواو

إعـداد
الدكتــور
عوض مبروك عبد العزيز شحاته
المدرس بقسم اللغويات

١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد النبى الكريم ، وعلى آله وأصحابه أجمعين .

وبعـــد :

فقد كنت كتبت بحثا فى : « نصب الفعل المضارع بعد الفاء » ، نشر فى المجلة العلمية لكلية اللغة العربية فى إيتاى البارود ، فى عددها التاسع لسنة ١٤١٢ هـ / ١٩٩٣ م ، وقد توصلت فيه بحمد الله إلى نتائج قيمة ، فرأيت من الواجب على أن أبحث فى : « نصب الفعل المضارع بعد الواو » ، لعلى أستطيع أن أخدم العربية ، وأن أقدم للقارئ الكريم ما يثلج صدره ، ويسر خاطره ، فجمعت ما استطعت من كتب فى النحو والشعر ـ على بعد الديار وشط المزار وقلة المراجع ـ وبدأت بقراءة القرآن الكريم ، فوجدت فيه آيات كريمة رأيت فيها غير ما رأى علماء النحو السابقون . ولا عجب ، فالفكر ليس مقصورا على أحد ، والعلم ليس وليد زمن ، وليس من الواجب علينا أن نأخذ كلام السابقين على أنه قطعى ، لا يجوز مناقشته ، أو إعمال الفكر فيه ، وإنما علينا أن نجعل للعقل مجالا فيما نقرأ أو نسمع ، فإذا توصلنا إلى ما يتفق ولسان العرب ـ دون إخلال أو إفساد بما اصطلح عليه العلماء من قواعد للعربية ـ ويكون مؤيدا بقوة الحجة ، وصدق الدليل ، فعلينا أن نقبله ، وأن نتمسك به ، ولو كان مخالفا لما عليه الأقدمون والمحدثون .

وها أنذا ابدأ بعون الله - سبحانه وتعالى - فأقول :

نصب الفعل المضارع بعد الواو

ينصب الفعل المضارع بعد الواو في أربع حالات :

الأولى : إذا كانت الواو عاطفة للفعل المضارع الواقع بعدها على فعل مضارع سابق منصوب ٠

وتتعين الواو للعطف فيما يأتي :

أولا : اذا كان الفعل المعطوف عليه واقعا بعد ايجاب غير شرط،وغير مشتمل على اسم لا يحتمل التأويل بالفعل،وأعني بالايجاب ما ليس نفيا أو طلبا ٠ ومثال ذلك قوله تعالى : (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا) (١) ، فالواو في (ويكون) عطفت الفعل (يكون) على الفعل المضارع المنصوب (تكونوا) ٠ وذلك لان المعية لاتتأتى في الخبر ، وإنما يجب أن يسبقها نفي أو طلب وأعني بالطلب الامر والنهي والاستفهام والتمني كما سيأتي قال سيبويه : « اعلم أن الواو ينتصب ما بعدها في غير الواجب من حيث انتصب ما بعد الفاء » (٢) ٠ أ هـ وقال : « واعلم أن الفاء لا تضمر فيها «أن» في الواجب » (٣) ٠ ا هـ ومثل تغيير

---

(١) البقرة ١٤٣ ٠

(٢) ٣ : ٤١

(٣) ٣ : ٣٨

الواجب بالامر والنهى والاستفهام والتمنى والعرض والنفى(٤)

ومن ذلك ايضا قوله تعالى : (يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم) (٥) . فالفعل (يتوب) معطوف وجوبا ، والواو متمحضة للعطف ، والمعطوف عليه هو الفعل المضارع المنصوب بعد لام التعليل (يبين)، وليس (يهدى) لأن العطف بالواو يكون على المعطوف عليه الاول ، أما العطف بالفاء أو ثم فانه يكون على السابق مباشرة ، فاذا قلت : جاء محمد وعلى وخالد وإبراهيم ، كان خالد معطوفا على محمد ، وليس على «على» ، وكان «ابراهيم» أيضا معطوفا على «محمد» وليس على «خالد» ولا على «على» ، لان الواو تفيد مطلق الجمع ، ولا تفيد الترتيب ، فيجوز أن يكون «ابراهيم» قد جاء قبل «محمد» أو قبل «على» أو قبل «خالد» ، أو جاء بعدهم أو جاء مصاحبا لهم ، لان الواو تعطف السابق على اللاحق ، كما تعطف اللاحق على السابق ، وكذلك تعطف المصاحب .

أما لو قلت : جاء محمد فعلى فخالد فابراهيم ، كان «خالد» معطوفا على «على» ، و «ابراهيم» معطوفا على «خالد» ، لان الفاء تفيد الترتيب .

وكذلك إذا قلت : يأكل محمد ويشرب ويقرأ ويلعب ، وجب أن يكون كل من الافعال الثلاثة : «يشرب» و «يقرأ» و «ويلعب» معطوفا على الفعل «يأكل» . أما اذا قلت : يأكل محمد فيشرب

---

(٤) مثل للامر فى ٣ : ٣٤ ، ٣٥ ، ٤٠ ، وللنهى في ٣ : ٣٤ ، وللنفى فى ٣ : ٢٨ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٤٠ ، وللتمنى فى ٣ : ٢٣ وللاستفهام عن النفى فى ٣ : ٣٥ ، ٤٤ ، وللعرض فى ٣ : ٣٤ .

(٥) النساء ٢٦ .

فيقرأ ثم يلعب ، وجب أن يكون الفعل «يشرب» معطوفا على «يأكل» ، و «يقرأ» معطوفا على «يشرب» ، و «يلعب» معطوفا على «يقرأ » ، لأن فى المثال ترتيبا بين الافعال .

وفى قوله تعالى : (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض) (٦) الفعل « يذيق »معطوفا وجوبا على «يلبس» ، ولا يجوز أن يكون معطوفا على «يبعث» ، لأن «أو» لاحد الشيئين او الاشياء ، فالعطف بالواو بعدها يكون على المعطوف بها الواقع بعدها ، ولا يجوز أن يكون على المعطوف عليه الواقع قبلها .

كما لا يجوز أن تكون الواو للمعية ، لإن الامر «قل» منصب على المقول ، والواو مع الفعل الذى بعدها جزء منه . أما فى واو المعية فالأمر أو النهى أو الاستفهام يكون منصبا على المعية . فإذا قلت : لا تضرب زيدا وتندم ، بنصب « تندم » كان النهى عنه الجمع بين الضرب والندم ، وكذلك إذا قلت : كل الطعام وأشكرك ، بنصب «اشكر » كان الأمر منصبا على الجمع بين الأكل والشكر ، كأنك قلت : اجمع بين أكلك الطعام وشكرى .

وإنما قلنا بعد إيجاب غير شرط ، لإن الواو التى ينصب المضارع بعدها فى الإيجاب ، إن كانت بعد شرط ــ سواء وقعت بعد فعل الشرط ، أم بعد فعل الشرط وفعل الجزاء ــ لم تكن عاطفة للفعل المنصوب الواقع بعدها : لأن الفعل السابق عليه ــ وهو الشرط أو الجزاء ــ مجزوم . وإنما هى عاطفة

(٦) الأنعام ٦٥ .

للمصدر الواقع بعدها ، لأنها واو المعية . ولو كانت عاطفة الفعل الواقع بعدها ت وهذا جائز ب لكان مجزوما ـ د فالواو الواقعة بعد فعل الشرط مثل : إن تجتهد وتنجح أكافئك بنصب تنجح ـ ، والتي بعد فعلي الشرط والجزاء مثل : إن تجتهد تنجح وأفرح بك ـ بنصب « أفرح » . كذلك قلت : إن يجتمع اجتهادك ونجاحك أكافئك ، وإن تجتهد يجتمع نجاحك وفرحي بك .

وإنما قلنا في الإيجاب الذي يسبق الواو التي تنصب المضارع بعدها ـ ألا يكون مشتملا على اسم خالص من التأويل بالفعل ، لأنها لو سبقت باسم لا يحتمل التأويل بالفعل لكان المضارع الواقع بعدها منصوبا بأن مضمرة جوازا بعد الواو ، وكانت الواو عاطفة للمصدر المؤول على المصدر المذكور ، مثل : لولا محمد ويحسن إليك لهلكت . فالواو عاطفة ، والمضارع بعدها منصوب بأن مضمرة جوازا ، والمصدر المؤول معطوف على الاسم الجامد السابق . وسيأتي بيان ذلك بالتفصيل إن شاء الله .

وانظر الآيات : المائدة ١١٣ ، والأنفال ٧ ، ٨ ، ١١ ، ٣٧ ، وفاطر ٣٠ ، ويس ٧٠ ، والزمر ٣٥ ، والشورى ٧ ، والزخرف ١٣ ، والفتح ٢٠ ، والحاقة ١٢ .

ومثال ذلك من الشعر قول عمر بن أبي ربيعة : (٧)

فعلّه الآن أن يتصفنا ★ ويجد اليوم ما كان صرم (٨)

---

(٧) ديوانه ص ٣٨٧ .

(٨) يجد : يجعله جديدا ، صرم : قطع .

فالواو عاطفة وجوبا ، والفعل المضارع « يجد » معطوف على « ينصف » منصوب مثله ، والعامل فيهما « أن » ، ولا يجوز أن تكون الواو للمعية لأنها مسبوقة بالإيجاب .

ثانيا : اذا وقعت الواو بعد فعل مضارع منصوب مسبوق بما يفيد الايجاب بعد نفي او طلب . وما يفيد الايجاب بعد النفي أو الطلب أربعة حروف هي : حتى ، وإلا ، ولام التعليل ، وفاء السببية ، فمثال حتى قول الشاعر (٩) :

فلا وجد حتى تنزف العين ماءها
وتعترف الأحشاء بالخفقان

فقد نصب الفعل المضارع «تعترف» بعد واو مسبوقة بفعل مضارع منصوب بان مضمرة بعد حتى المسبوقة بالنفي فوجب أن تكون هذه الواو عاطفة للفعل «تعترف» على الفعل «تنزف» ، ولا يجوز أن تكون للمعية ، لان حتى توجب ما بعدها ، فهي حرف غاية وجر ، وما بعدها خارج عن النفي الواقع قبلها ، فالفعل «تنزف» لا يصل اليه النفي السابق لان حتى غاية لهذا النفي وواو المعية التي ينصب المضارع بعدها تستدعي أن يكون الفعل السابق عليها مسلطا عليه النفي أو الطلب في اللفظ . فاذا قلت : لا ينجح ابني واغضب عليه ، كان النفي داخلا على الفعل السابق على الواو في اللفظ وان كان في المعنى داخلا على الجمع بين الفعلين ، أي مصاحبة الفعل «أغضب» للفعل «ينجح» ، لان المعنى : لا يجتمع هذان الفعلان في وقت واحد ، فقد يكون نجاح

(٩) هو مسلم بن الوليد . شرح الحماسة للتبريزي ٣ : ٥ .

ولا غضب ، وقد يكون غضب ولا شجاع ؛ أما أن يجتمع الأمران في وقت واحد فلا .

أما في البيت فاننا نجد الفعل «تنزف» مثبتا ، لان حتى غاية للنفي السابق عليها ، فالفعل بعدها مثبت ، ولذلك لايجوز ان تكون الواو في قوله «تعترف» واو المعية ، وانما يجب أن تكون عاطفة للفعل الواقع بعدها « تعترف » على الفعل «تنزف» ويكون الفعل المعطوف منصوبا بأن المضمرة بعد «حتى» الناصبة للفعل المعطوف عليه .

ومن ذلك قول جرير (١٠) .

بني منقذ لاصلح حتى تصيبكم
من الحرب صماء القناة زبون

وحتى تذوقوا كأس من كان قبلكم
ويزرق منكم في الجبال قرين

وحتى تضم الحرب معكم عطاردا
ويبرا تخليج به وجنون (١١)

فالفعل «يزرق» معطوف على «تذوقوا» ، و «يبرا» معطوف

---

(١٠) ديوانه ص ٤٨٧ .

(١١) هذه الابيات من قصيدة يهجو بها الزار بن منقذ البرجمي . صماء القناة الصلبة ، والقناة : الرمح ، والزبن : الدفع ، وقناة زبون تدفع الناس وتصدمهم ، يزرق : يسلح ، قرين : مقارن اى المكافىء في الشجاعة ، تخليج : الخلج - بفتح الفاء والعين - أن يشتكي الرجل عظامه من عمل او من طول مشي ، وتخلج المفلوج في مشيته ، أي تفكك وتمايل .

على « تضم » وهذا العطف واجب ، لان الاول من الفعلين ـ المعطوف عليه ـ واقع بعد حتى .

.. وكذلك اذا كان الفعل الواقع بعد حتى منفيا، مثل قوله تعالى: (وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين لله) (١٢) فالواو فى «يكون» عاطفة ، ولا يجوز أن تكون للمعية ، لان النفى الواقع بعد حتى منصب على الفعل الواقع بعده ، لا على معيته لكون الدين لله ، لانه غاية للامر «قاتلوهم » ، والمعنى : قاتلوهم الى عدم وجود الفتنة وكون الدين لله ، أى الى أن تنقطع الفتنة ويكون الدين لله .

ولوكانت الواو للمعية لكان النفى الواقع بعد حتى منصبا على المعية ، لاعلى وجود الفتنة ، فيفسد المعنى ، اذ يكون معنى الاية : قاتلوهم الى أن لايجتمع هذان الامران ، وجود الفتنه وكون الدين لله ، وهو فاسد ،لان ثبوت الدين لايجتمع مع وجود الفتنة بحال .

هذا اذا كانت «حتى» حرف غاية وجر بمعنى الى ، وكذلك اذا جعلتها للتعليل ـ وهو جائز فى الاية ـ كانت عاطفة أيضا، وكان المعنى : قاتلوهم لنفى الفتنة وليكون الدين لله .

فان قلت : كيف تكون الواو عاطفة ؟ مع أنها لو كانت كذلك لفسد المعنى ، لانه يؤدى الى نفى الفعل الواقع بعدها ، اذ انه

---

(١٢) البقرة ١٩٣ .

. سيجرن مخفيا العطفة على المنفى ، ويكون المعنى : قاتلوهم حتى لاتكون فتنة ، وحتى لايكون الدين لله ، وهو فاسد .

والجواب أن المعطوف فعل مثبت ، والمعطوف عليه فعل منفى ، وعطف المثبت على المنفي جائز ، لان العطف حينئذ يكون على النافي والمنفي معا ، فالفعل « يكون » في الآية معطوف على مجموع « لا تكون » من المنفى والنافى معا . وذلك جائز بدليلين :

الاول : أن العامل في المعطوف «أن» المضمرة ، واجماع العلماء على أنها مضمرة بعد حتى ، لا بعد حرف النفى ، فما بعد الواو ليس داخلا في النفي السابق، لان العامل فيه هو «أن» المضمرة بعد حتى ، والمعنى : قاتلوهم حتى لاتكون فتنة وحتى يكون الدين لله .

الثاني : أن عطف الفعل المثبت في اللفظ والمعنى على الفعل المنفي مع النافي هو من كلام العرب ، وقد سمع كثيرا . من ذلك قول طرفة (١٣) :

لنا هضبة لاينزل الذل وسطها
ويأوى اليها المستجير فيعصما

فالفعل «يأوى» وهو مثبت في اللفظ والمعنى ، معطوف على «ينزل» وهو منفى فى اللفظ والمعنى ، لان العطف على النافى والمنفى معا ، ولا يجوز أن يكون معطوفا على الفعل بدون حرف

---

(١٣) ديوانه ص ٤ ، وسيبويه ٣ : ٤٠ .

النفي ، والا كان المعطوف منفيا مثله ، فيكون التقدير : لا ينزل الذل وسطها ولا يأوى اليها المستجير ٠

ومن ذلك أيضا قول عمر بن ابي ربيعة (١٤) ٠

لذلك أدني دون خيلي مكانه
وأوصى به ألا يهان ويكرما (١٥)

فالفعل «يكرم» مثبت في اللفظ والمعنى ، مع عطفه على الفعل «يهان» المنفي ، وذلك لعطفه على النفي النافي معا ٠ والمعنى : أوصى به ألا يهان وأن يكرما ٠

ومثال « إلا » قول الأعشى (١٦) :

أراني وعمرا بيننا دق منشم
فلم يبق الا أن أجن ويكلبا (١٧)

فالواو في «ويكلب» عاطفة ، لان الفعلين وقعا بعد ما يفيد

---

(١٤) ديوانه ص ٣٤١ ، والأغاني ١ : ٧٠
(١٥) في الديوان (رباطه) مكان (مكانة) ٠
(١٦) ديوانه ص ٩ ٠
(١٧) عمرا : هو عمرو بن المنذر بن عبدان ٠ في صحاح الجوهري (نشم) : « نشم القوم في الأمر اذا اخذوا فيه ، ولا يكون الا في الشر ٠٠٠ والنشم ـ بالتحريك ـ شجر تتخذ منه القسي ، ومنشم : اسم امرأة كانت بمكة عطارة ، وكانت خزاعة وجرهم اذا ارادوا القتال تطيبوا من طيبها ، وكانوا اذا فعلوا ذلك كثرت القتلى فيما بينهم ، فكان يقال : اشأم من عطر منشم» اهـ اجن : اصاب بالجنون ، اكلب : اصاب بداء الكلب ، والكلب ـ بالتحريك ـ داء يشبه الجنون يصيب الكلاب ا هـ ٠

الايجاب ، وهو « إلا » ، إذ ما بعدها خارج عن سياق النفى السابق .

ومثله قول مسلم بن الوليد : (١٨)

هل العيش الا أن تروح مع الصبا
وتضحى صريع الكأس والاعين النجل (١٩)

فالفعل «تضحى» منصوب وجوبا بأن الواقعة بعد الا ، اذ هو معطوف وجوبا على «تروح» ، ولا يجوز أن يكون منصوبا بأن مضمرة بعد الواو ، لان هذه الواو لا تصلح للمعية لوقوعها بعد الايجاب،لان «إلا» توجب مابعدها،وتخرجه عن نطاق الاستفهام السابق .

ومثال لام التعليل قول جرير (٢٠) .

ياعبد بيبة ماعذيرك محلبا
لتصي بعرة مجرب وتلاما (٢١)

---

(١٨) شرح ديوان الحماسة للتبريزى ٣ : ٥

(١٩) النجل جمع نجلاء : وهى واسعاشق العين .

(٢٠) ديوانه ص ٤٤٤ .

(٢١) بيبة : اسم رجل ، وهو بيبة بن قرط بن سفيان بن مجاشع ، عذيرك من فلان : الذى يلومه من اجلك ، محلبا : ناصرا ، العر : الجرب ، والعر ـ بضم العين : قروح مثل القوباء تخرج بمشافر الابل وقوائمها متفرقة يسيل منها ماء اصفر ، فتكوى الصحاح لئلا تعديها المراض ، مجرب : من اجرب الرجل اذا جربت ابله .

فالفعل «تلام» معطوف على «تصيب» ، لان الفعلين خرجا بلام التعليل من سياق النفي السابق ومثال فاء السببية قوله تعالى : (ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها وتذوقوا السوء) (٢٢) فتذوقوا معطوف بالواو على «تزل» لان مابعد فاء السببية خارج عن سياق النهي السابق .

قد يقول القارئ الكريم : إننا نعلم أن المضارع المنصوب بعد فاء السببية جواب للطلب السابق . على هذا دأب النحاة وجواب الطلب غير موجب . فكيف تقول : ان مابعد الفاء خارج عن سياق النهي السابق ؟

وأقول : إن المضارع المنصوب بعد فاء السببية المسبوقة بنوع من أنواع الطلب ، أو بالنفي ليس جوابا ، ولكنه في الحقيقة السبب الحامل على الطلب أو النفي . فاذا قلت : لاتشتم زيدا فتندم - بنصب تندم - كان الندم هو السبب الحامل على النهي عن الشتم . وقد أوضحت ذلك في بحث لي بعنوان نصب الفعل المضارع بعد الفاء (٢٣) وأقمت لذلك ستة أدلة . منها :

أن فاء السببية حرف ، والاصل في الحرف أن يظهر معناه فيما بعده ، لافيما قبله . وكل الحروف جاءت على هذا الاصل . ماعدا فاء السببية ، فقد جاءت في الايجاب على العكس ، أما في النفي او الطلب فقد جاءت على الاصل .

---

(٢٢) النحل ٩٤ .

(٢٣) نشر البحث في المجلة العلمية لكلية اللغة العربية في إيتاي البارود العدد التاسع لسنة ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م .

. . والسر فى مجيئها على العكس فى الايجاب انها لاتكون للسببية فيه فى الغالب الا فى عطف الجمل ، مثل : غضب زيد فحزن محمد . على أنها لاتكون للسببية دائما فى عطف الجمل فقولك : قام محمد فغضب زيد ، يحتمل ان غضب زيد مسبب عن قيام محمد ، كما يحتمل أنه مرتب عليه ، فمجيء الفاء للسببية فى الايجاب قليل ، والغالب فيهـا أن تكون عاطفة ، والعاطفة مفيدة للترتيب والترتيب قريب الشبه من السببية ، وبمعنى أوضح السببية نوع من الترتيب، لان الترتيب يكون فيه الثانى مرتبا على الاول ، والسببية يكون فيها الثانى مرتبا على الاول ومسببا عنه ـ ففاء السببية شبيهة فى الايجاب بفاء العطف ، ومن ثم حملت عليها ، فكان ماقبلها سببا فيما بعدها ، خلافا للاصل للفرق بين الايجاب والطلب أو النفى .

ومنها : أنه لايجوز أن تقول : لاتهمل ترسب ، لان النهى عن الاهمال لايكون سببا فى الرسوب ، او لان الرسوب لايصلح جوابا للنهى عن الاهمال ، كما يقول النحاة . فإن أدخلت الفاء فقلت : لاتهمل فترسب كان حسنا ، لان المعنى قد تغير ، فصار الرسوب سببا فى النهى عن الإهمال . فى سيبويه : «لا تدن من الأسد يأكلك قبيح أن جزمت،وليس وجه كلام الناس،لأنك لا تريد أن تجعل تباعده من الأسد سببا لأكله ، فان رفعت فالكلام حسن فإن أدخلت الفاء فحسن ، وذلك قولك : لاتدن من الاسد فيأكلك (٢٤) أ هـ .

(٢٤) ١ : ٤٥١ .

ومنها : في مثل : ماجاء زيد فأكرمه ، ولاتكسل فترسب ، يقول النحاة : المضارع منصوب في جواب النفي أو النهي . وهذا خطأ ، لأن الإكرام لايكون جوابا لنفي المجيء ، والرسوب لايكون جوابا للنهي عن الكسل . في سيبويه : « وليس كل موضع تدخل فيه الفاء يحسن فيه الجزاء ، ألا ترى أنه يقول : [illegible] والجزاء ههنا محال » (٢٥) أ هـ .

ومعنى قوله : « ليس كل موضع تدخل فيه الفاء يحسن فيه الجزاء » أن فاء السببية تدخل في موضعين بعد الإيجاب ، وبعد النفي أو الطلب ، فإن سبقها إيجاب كان ما بعدها جزاء لما قبلها ، لانه مسبب عنه ، وان سبقها طلب أو نفي لم يكن مابعدها جوابا ولا جزاء ، لانه صار سببا . وانظر بقية الادلة في البحث المذكور ص ٢٧٨ ـ ٢٨٤ .

وأيا ما كان الامر فان الطلب أو النفي السابق على فاء السببية لاينصب على المعية ، ففي الآية الكريمة النهي منصب على إتخاذ المخاطبين ايمانهم دخلا بينهم ، وليس على المعية بين زلل الاقدام وذوقهم السوء بسبب صدهم عن سبيل الله ، فمتى وقع الفعلان المنصوبان بعد فاء السببية وكان الثاني منهما مسبوقا بالواو ، وجب أن تكون هذه الواو عاطفة ، ولا يجوز أن تكون للمعية .

ومن ذلك قوله تعالى : (ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك

---

(٢٥) ١ : ٤٥١ .

ونكون من المؤمنين (٢٦) فالواو فى « ونكون» عاطفة وجوبا ، ولا تصلح للمعية لما أسلفنا

ومن ذلك أيضا قول عوف بن الأحوص الكلابى يهجو رجلا من بنى الحارث بن كلب :

فهل لك فى بنى حجز بن عمرو
فتعلمــه وأجهلــه ولاء (٢٨)

فالواو فى « وأجهلــه » عاطفة وجوبا ، والفعل « أجهــل » معطوف على « تعلــم

وقول جرير (٢٠) يهجو البعيث :

فأين بنــو القعقاع عن ذود فرتنى
وعن أصل ذاك القن أن يتقســما

---

(٢٦) القصص ٤٧ .

(٢٧) شرح المفضليات للتبريزى . القسم الثانى ص ٦٤٦ . واســم الشاعر عوف بن ربيعه بن جعفر ، والأحوص لقب أبيه ، وهو شاعر جاهلى ، شهد يوم شعب جبلة . المرجــع السابق ص ٦٤٢ .

(٢٨) بنو حجر : من كندة ، وحجر : هو آكل المرار ، جد الشاعر امرىء القيس ، وكان من ملوك كندة .

(٢٩) ديوانه ص ٤٤٦ .

فتؤخذ مـن عند البعيث ضريبة
ويترك نسـاجا بدارين مسلمـا (٣٠)

فالفعل « يترك » منصوب بالعطف على « تؤخذ » وليست الواو للمعية .

وقول مالك بن نويرة (٣١) :

ألم اك نـار رابية تلظى ★ فتتقيا أذاى وترهبـانى

فالواو فى « وترهبانى » واو العطف ، والفعل بعدها معطوف على « تتقيا » ، منصوب بحذف النون ، والنون المذكورة هى نون الوقاية التى تقى الفعل من الكسر المناسب لياء المتكلم ، لان ياء المتكلم تستدعى كسر ماقبلها ، وهـو غير قابل للكسر لانه ألف ، فوجب اجتلاب نون الوقاية ليقع الكسر عليها .

ثالثا : اذا وقعت الواو بعد فعل مضارع منهى عنه نهيا مطلقا في اللفظ والمعنى ، مثل قوله تعالى :

(ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون) (٣٢)، فالواو فى «وتكتموا» يجب أن تكون عاطفة ، والفعل المضارع

---

(٣٠) الذود من الابل مابين الثلاث الى العشرة ، وهى مؤنثة ، فرتنا مقصور : اسم امرأة ، والعرب تسمى الامة فرتنا ، القن : العبد اذا ملك هو وابواه ، ويستوى فيه الاثنان والجمع والمؤنث ، وربما قالوا عبيد اقنان . الصحاح (ذود ، فرتن ، قنن) .

(٣١) شرح ديوان الحماسة للتبريزى ٢ : ١٤٩ .

(٣٢) البقرة ٤٢ .

بعدها مجزوم بالعطف على «تلبسوا» ولا يجوز أن يكون منصوبا لأن الواو لاتصلح للمعية لما سنبينه بعد .

وقد ذهب النحويون والمفسرون الى جواز أن تكون الواو في الآية للمعية . في سيبويه : « وقال تعالى : (ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون) ان شئت جعلت (وتكتموا) على النهي ، وان شئت جعلته على الواو (٣٣) ا هـ وقال ابن النحاس (٣٤) : « ولا تلبسوا : نهي ، فلذلك حذفت منه النون ... وتكتموا عطف على (تلبسوا) (٣٥) ، وان شئت كان جوابا للنهي في موضع نصب على اضمار أن عند البصريين ، والتقدير : لايكن منكم أن تلبسوا (٣٦) وتكتموا » . ا هـ .

وقال الزمخشري : « ويجوز في قوله تعالى : (ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق) أن يكون (تكتموا) منصوبا ومجزوما » . ا هـ

وقال ابن يعيش : « أما قوله تعالى : (ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق) فيجوز أن يكون (تكتموا) مجزوما بالعطف على لفظ (لاتلبسوا) فيشاركه في اعرابه ، ويكون النهي عن كل واحد منهما ، وتقديره : ولا تلبسوا الحق بالباطل ولا تكتموا الحق . ويجوز أن يكون منصوبا ، وحذف النون من

---

(٣٣) ٢ : ٤٤ .
(٣٤) اعراب القرآن ١ : ٢١٩ .
(٣٥) النص « عطف على تشتروا » والصواب ما اثبته .
(٣٦) النص «أن تشتروا » والصواب ما اثبته .
(٣٧) المفصل بشرح ابن يعيش ٧ : ٢٤ .

(وتكتموا) علامة النصب ، ويكون النهى عن الجمع بينهما ، على حد : «لا تأكل السمك وتشرب اللبن • اى لاتجمع بينهما» (٣٨) .ه

وقال الطبرى : « قال أبو جعفر : وفى قوله (وتكتموا الحق وجهان من التأويل : أحدهما أن يكون الله جل ثناؤه نهاهم عن أن يكتموا الحق ، كما نهاهم أن يلبسوا الحق بالباطل ، فيكون تأويل ذلك حينئذ : ولا تلبسوا الحق بالباطل ، ولا تكتموا الحق ويكون قوله (وتكتموا) عند ذلك مجزوما بما جزم به (تلبسوا) عطفا عليه ، والوجه الاخر منهما أن يكون النهى من الله جل ثناؤه لهم عن أن يلبسوا الحق بالباطل ، ويكون قوله (وتكتموا الحق) خبرا منه عنهم بكتمانهم الحق الذى يعلمونه ، فيكون قوله (وتكتموا) حينئذ منصوبا لا نصرافه عن معنى قوله (ولاتلبسوا الحق بالباطل) اذ كان قوله (ولا تلبسوا) نهيا ، وقوله : (وتكتموا الحق) خبرا معطوفا عليه، غير جائز أن يعاد عليه ماعمل فى قوله (تلبسوا) من الحرف الجازم وذلك هو المعنى الذى يسميه النحويون صرفا • ونظير ذلك فى المعنى والاعراب قول الشاعر :

لاتنه عن خلق وتأتى مثله ★ عار عليك اذا فعلت عظيم

فنصب (تأتى) على التأويل الذى قلنا فى (وتكتموا) الاية ، لانه لم يرد : لاتنه عن خلق ولا تأت مثله وانما معناه : لاتنه عن خلق وأنت تأتى مثله ، فكان الاول نهيا والثانى خبرا ، فنصب الخبر اذ عطفه على غير شكله • فأما الوجه الاول من هذين الوجهين اللذين ذكرنا أن الاية تحتملهما فهو على مذهب

---

(٣٨) شرح المفصل لابن يعيش ٧ : ٢٤ .

ابن عباس ....وأما الوجه الثانى منهما فهو على مذهب أبى العالية » (٣٩) أ هـ .

وقال الزمخشرى : «وتكتموا : جزم داخل تحت حكم النهى، بمعنى ولا تكتموا ، أو منصوب بإضمار أن ، والواو بمعنى الجمع ، أى ولا تجمعوا لبس الحق بالباطل وكتمان الحق ، كقولك : لاتأكل السمك وتشرب اللبن .

فإن قلت : لبسهم وكتمانهم ليسا بفعلين متميزين حتى ينهوا عن الجمع بينهما ، لانهم اذا لبسوا الحق بالباطل فقد كتموا الحق .

قلت : بل هما متميزان ، لان لبس الحق بالباطل ماذكرناه من كتابتهم فى التوراة ماليس منها ، وكتمانهم الحق أن يقولوا لانجد فى التوراة صفة محمد صلى الله وآله وسلم أو حكم كذا، أو يمحوا ذلك أو يكتبوه على خلاف ما هو عليه . وفى مصحف عبد الله (وتكتمون) بمعنى كاتمين (٤٠) أ هـ .

وقال الألوسى « وتكتموا الحق : مجزوم بالعطف على (تلبسوا) فالنهى عن كل واحد من الفعلين ، وجوزوا أن يكون منصوبا على اضمار أن .... والمراد لا يكن منكم لبس الحق على من سمعه ، وكتمان الحق واخفاؤه على من لم يسمعه .

---

(٣٩) جامع البيان فى تفسير القرآن ١ : ٢٠٢ .
(٤٠) الكشاف ١ : ٦٥ ، ٦٦ .

والقصد أن ينفى عليهم سوء فعلهم الذى هو الجمع بين أمرين كل منهما مستقل بالقبح » (٤١) أ هـ .

وأقول كما قلت سابقا : يجب فى الآية أن تكون الواو لمحض العطف ، فلا يجوز أن تكون المعية ، لان الفعل الاول « تلبسوا » منهى عنه نهيا مطلقا فى اللفظ والمعنى، فالنهى متوجه اليه ، لا الى المعية . ووجه كلام العرب أن الفعل الاول مع واو المعية يكون منهيا عنه فى اللفظ فقط ، أما فى المعنى فان النهى يكون منصبا على معية الفعلين ، فقولهم : لاتاكل السمك وتشرب اللبن - بنصب تشرب - تفهم منه أن اكل السمك ليس منهيا عنه الا فى حال شرب اللبن، فاكله السمك دون شرب اللبن مباح له ، وشربه اللبن من غير أكل السمك مباح له ، فكل من الفعلين منفردا من الاخر مباح ، لان النهى منصب على المعية فى المعنى .

فاذا كان الفعل الاول منهيا عنه فى اللفظ والمعنى لم تصلح الواو للمعية ، ووجب أن تكون عاطفة . وفى الاية الكريمة نجد أن لبس الحق بالباطل منهى عنه نهيا مطلقا ، فالنهى متوجه إلى لفظ الفعل وإلى معناه ، كما نجد أن الفعل الثانى « وتكتموا » منهيا عنه أيضا فى اللفظ والمعنى ، ولا يكون ذلك إلا بالعطف ، لأن العطف يقتضى أن يشترك المعطوف المعطوف عليه فى العامل فوجب أن تكون الواو عاطفة ، ولا يجوز أن تكون للمعية .

ومثل الآية الكريمة السابقة قوله تعالى : (ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام) (٤٢) .

---

(٤١) روح المعانى ١ : ٢٤٦
(٤٢) البقرة ١٨٨ .

قال ابن النحاس : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا • عطف على (تأكلوا) • وفى قراءة أبى (ولا تدلوا) • ويجوز أن يكون (ولا تدلوا) جواب النهى بالواو ، كما قال :

لا تنـه عن خـلق وتأتى مثـله
عار عليك إذا فعلت عظيم » • (٤٣) أهـ

وقال الطبرى : « فأما قوله (وتدلوا بها إلى الحكام) فإن فيه وجهين من الإعراب ، أحدهما أن يكون قوله (وتدلوا) جزما عطفا على قوله (ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل) أى ولا تدلوا بها إلى الحكام •

وقد ذكرت أن ذلك كذلك فى قراءة أبى ، بتكرير حرف النهى ، ولا تدلوا بها إلى الحكام ، والآخر منهما النصب على الصرف ، فيكون معنـاه حينئذ : لا تأكـلوا أموالـكم بينكم بالباطل وأنتم تدلون بها إلى الحكام كما قال الشاعر :

لا تنـه عن خـلق وتأتى مثـله
عار عـليك إذا فعـلت عظـيم

يعنى : لا تنه عن خلق وأنت تأتى مثله ، وهو أن يكون فى موضع جزم على ما ذكر فى قراءة أبى أحسن منه أن يكون نصبا » (٤٤) • أ هـ

---

(٤٣) اعراب القرآن ١ : ٢٩٠ •
جامع البيان فى تفسير القرآن ٢ : ١٠٧ •

وقال الألوسي : « وتدلوا بها إلى الحكام » عطف على (تأكلوا) فهو منهي عنه مثله مجزوم بما جزم به

وجوز نصبه بأن مضمرة ، ومثل هذا التركيب وإن كان للنهي عن الجمع إلا أنه لا ينافي أن يكون كل من الأمرين منهيا عنه » (٤٥) أ هـ

والحق ان النهي عن الجمع ينافي ان يكون كل من الأمرين منهيا عنه ، على هذا جرى لسان العرب ، وهذا مانفهمه من كلامهم . ومن ثم لايجوز القول بأن الواو في الايتين الكريمتين للمعية ، لانها أن كانت للمعية كان النهي عن الجمع بين الامرين واذا كان النهي منصبا على الجمع بين أمرين فهم منه اباحة كل منهما على حدة ، كما في قولهم : لا تأكل السمك وتشرب اللبن ، وفي الايتين الكريمتين النهي منصب على الامرين ، ففي الاولى : (تلبسوا الحق بالباطل) منهي عنه نهيا مطلقا ، و (تكتموا) منهي عنه نهيا مطلقا، وفي الثانية (تأكلوا أموالكم) منهي عنه نهيا مطلقا ، و (تدلوا) منهي عنه نهيا مطلقا ، لانه ادلاء بالباطل ، وهذا ينافي النهي عن المعية . فالواو في الايتين للعطف ، ولا يجوز أن تكون للمعية

رابعا : اذا وقعت الواو بعد فعل مضارع منصوب بأن مسبوق بمعنى ، وبعد الواو فعل مضارع منصوب ، وجب أن تكون الواو متمحضة للعطف ، والفعل الواقع بعدها معطوف على الفعل السابق ، ولا يجوز أن تكون للمعية . ففي قوله تعالى : (فعسى

---

(٤٥) روح المعاني ٢ : ٧٠ .

أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا) (٤٦) الواو عاطفة و (يجعل) معطوف على (تكرهوا) منصوب مثله بأن الواقعة بعد عسى، لأن عسى للرجاء، وهو في حكم الواجب عند البصريين(٤٧) لانه ليس من أنواع الطلب ، اذ ليس فيه طالب ولا مطلوب منه، إذ هو توقع أمر محبوب ، او اشفاق من أمر مكروه . فالواو بعده واقعه في الواجب ، فلا تصلح للمعية .

واذا كان البصريون لم يجيزوا نصب المضارع بعد الفاء المسبوقة بالترجي ، وخرجوا ما استدل به الكوفيون على جواز النصب ، (٤٨) فمن باب أولى عدم جواز نصبه بعد الواو .

ومن ذلك قوله تعالى : (قال عسى ربكم ان يهلك عدوكم ويستخلفكم في الارض) (٤٩) فالواو عاطفة ، و (يستخلف) معطوف على (يهلك) والعامل فيه «أن» الناصبة للمعطوف عليه

---

(٤٦) النساء ١٩ .

(٤٧) انظر الهمع ٢ .

(٤٨) اجاز الكوفيون نصب المضارع بعد الفاء المسبوقة بالترجي . واستدلوا بقوله تعالى : (لعلي ابلغ الاسباب اسباب السموات فاطلع) بنصب (اطلع) في قراءة حفص عن عاصم ، وقرأ الباقون وابو بكر عن عاصم (فاطلع) رفعا (السبعة في القراءات ص ٥٧٠) . كما استدلوا بقوله تعالى (لعله يزكى او يذكر فتنفعه الذكرى) بنصب (تنفع) في قراءة عاصم وحده ، اما الباقون فقرءوا (تنفعه) بالرفع (السبعة في القراءات ص٦٧٢)

وقد خرج البصريون النصب في آية غافر على وقوع الفاء في سياق الامر (. ابن لي) . وخرجه الزمخشري على تشبيه لعل بليت . قال في الكشاف ٤ : ١٦٧ « وقرىء : فاطلع ، بالنصب على جواب الترجي ، تشبيها للترجي بالتمني » . اه وقال في الكشاف ايضا ٤ : ٧٠١ « فتنفعه : بالرفع عطفا على (يذكر) وبالنصب جوابا للعل » . اه أي لتشبيه الترجي بالتمني .

(٤٩) الاعراف ١٢٩ .

والرجاء ليس لمعية الفعلين ، لان الواو لا تصلح للمعية لوقوعها بعد الايجاب ، ولكنه لكل من الفعلين على حدة ، فالاهلاك مرجو ، والاستخلاف مرجو ، دون معية بين الفعلين •

ومثاله قول عمر بن أبي ربيعة

وارسالها لما أجد رحيلها
لى عجل باد من البين موقد

بأن بت عسى أن يستر الليل مقعدا
ويغفل عنا ذو الردى المتهجد (٥١)

فالفعل «يغفل» معطوف وجوبا على «يستر» منصوب بعامله ، وكل منهما وقع عليه الرجاء – أو تعلق به – على حدة

خامسا : اذا وقعت الواو بعد فعل مضارع مجزوم في جواب الطلب ، مثل قوله تعالى : (اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا ....) (٥٢) فالفعل المضارع «تكونوا» مجزوم بالعطف على «يخل» ، ولا يجوز أن تكون الواو للمعية •

والسر في عدم صلاحية الواو للمعية هنا أنها سبقت بجواب الامر ، والامر لايتخطى جوابه الى المعية • بمعنى أنه يجب في

---

(٥٠) ديوانه ص ٦٠٨ •
(٥١) باد : ظاهر ، البين الفراق ، موقد : مشرف ، المتهجد المستيقظ •
(٥٢) يوسف ٩ •

واو المعية المسبوقة بالامر الا يكون الامر منفصلا عن أحد الفعلين المطلوب المصاحبة بينهما ، فاذا قلت : أكرم زيدا وأشكرك بـ نصب أشكر ـ كان أحد الفعلين المطلوب الجمع بينهما هو فعل الامر ، ومعنى المثال على ذلك اجمع بين اكرامك زيدا وشكرى اياك ولو كان التركيب فى غير الآية : اقتلوا يوسف وتكونوا ، لم كانت الواو المعية ، وكان المعنى : اجمعــوا بين قتلكم يوسف وكونكم قوما صالحين •

وكذلك اذا قلت : لاتضرب زيدا تندم ويصبك شر ، وجب جزم «يصبك» بالعطف على «تندم» ، فيكون جوابا مثله ، لانه معطوف على الجواب ، ولا يجوز نصبه على المعية ، لان الواو لاتصاح لها ، فهى عاطفة وجوابا فمتى كانت الواو واقعة بعد فعل مضارع مجزوم فى جواب الطلب كانت عاطفة ، وكان المضارع بعدها مجزوما عطفا على جواب الطلب

ومن ذلك قوله تعالى : (قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهـم) (٥٣) ، وقوله تعالى : (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم) (٥٤)

قد يقول قائل : اذا كان المضارع بعد الواو المسبوقة بجواب الامــر مجزوما فلن تكون الواو للمعية ، لان واو المعية لا يجزم المضارع بعدها ، فلا فائدة من النص على ذلك هنا

وأقول : ان الغالب فيما نقرؤه اليوم ليس مضبوطا بالشكل ،

---

(٥٣) ابراهيم ٣١ •
(٥٤) النور ٣٠ •

مما يجعل الحاجة ملحة الى وضع قواعد تنير للقارئ طريقه وتعصمه مـن الزلل ، كى يتسنى له فهـم مايقرأ ، فيستوعب المعنى ، لان المعنى على المعية التى ليست صوابا غير المعنى على العطف • فلو قرأ قارئ : عفوا تعف نساؤكم وتصح ابدانكم، وظن ان الواو للمعية لتغير المعنى،لان المعنى على العطف حتمى فما بعد الواو واجب الوقوع مثل عفة نسائهم اذا وقع الامر ، اذ هو جواب للامر مثل المعطوف عليه،وجواب الامر واجب الوقوع بوقـوع الامر ، إذ معنـاه : اذا عففتـم عفت نسائكم وصحت اجسامكم أما على المعية - وهى ليست صوابا - فقد يظن ان المعنى : أجمعوا بين عفة نسـائكم وصحة أجسـامكم ، وهذان أمران لا تمكن المصاحبة بينهما لانهما لا يقعان دفعة واحدة وانما يستغرقان العمر كلـه ، كما أن عفة النساء ليست فى وسـع المخاطبين • ومن ثم فالواو لا تصلح للمعية ، ولذلك فان هذا التركيب لامعنى له على حعل الواو للمعية • وأكبر شاهد على ذلك أن العرب لم يتكلموا بمثل ذلك وهم يريدون المعية •

وشيئ آخر دعانى الى تقعيد هذه القاعدة ، هو أن سبق الواو بالامر فى هذه الايات وما يشبهها قد يوهم بأنها للمعية، وبخاصة أن المضارع الواقع بعد الواو فى هذه الايات من الافعال التى تستوى فيها علامة الجزم وعلامة النصب ، وهى الافعال الخمسة ، ومن ثم وجب النص لئلا يتطرق الى الذهن أن الواو للمعية ، وأن المضارع بعدها منصوب لا مجزوم ، وهذا خطأ •

فالواجب فى الفعلين المطلوب الجمع بينهما أن يكون الامر أحدهما ، فان كان غيرهما لم تكن الواو للمعية • ومثل الامر فى ذلك كل طالب تصلح الواو بعده للمعية ، كالاستفهـام والنهى والتمنى ، فيجب كى تكون الواو بعده صالحة للمعية أن يكون

داخلا على أول الفعلين المطلوب الجمع بينهمـا ، والا لم تكن الواو للمعية .

ومثل الطلب فى ذلك النفـى ، فالواو فى قولـه تعالى : (وما منـع الناس أن يؤمنوا اذ جاءهـم الهدى ويسـتغفروا ربهم ...) (٥٥) لا تصلح للمعية ، وهى عاطفة وجوبا ، لان النفى دخل على غير الفعلين ، والواجب فى الواو التى يراد بها المعيـة ان يكون النفى داخلا فى اللفظ على الاول مـن الفعلين المراد الجمع بينهما على وجه المصاحبة،ويكون فى المعنى داخلا على المعية بين الفعلين . فاذا قلت : ما يأتى زيد وتسر ـ بنصب تسر ـ كان النفى فى اللفظ داخلا على «يأتى» ، وفى المعنى داخلا على معية الفعلين « يأتى وتسر » .

الحالة الثانية التى ينصب فيها المضارع بعد الواو اذا كان العامل فيه « أن » مضمرة وجوبا على مذهب البصريين ، ويتحقق ذلك باجتماع أمرين :

الاول : أن تفيد الواو معنى المعية . أى تفيد أن مضمون ما بعدها مصاحب لمضمون ما قبلها فى النفى أو الطلب كما سيأتى بحيث يكون النفى أو الطلب منصبـا على هذه المصـاحبة فى المعنى . فالمعنى فى قولهـم : لا تأكل السمك وتشرب اللبن ، النهى عن الجمع بين أكل السمك وشرب اللبن ، أى النهى عن فعل الامرين فى وقت واحد . ويفهم من هذا أن أكل السمك على حدة مباح ، وأن شرب اللبن على حدة مباح .

فالنهى ليس منصبا على الفعل الاول فى المعنى ، ولا على

الفعل الثانى ، وانما هو موجه الى الجمع بين الفعلين على وجه المصاحبة .

فلو كان الفعل الاول منهيا عنه نهيا مطلقا ، مثل : لاتهمل وتلعب ، أو كان النهى متوجها الى كل من الفعلين مثل : لاتكسل وتهمل ، كانت الواو عاطفة للفعل الواقع بعدها على الفعل السابق ، فيكون مابعدها مجزوما ، ولا يجوز نصبه .

والمراد بالنهى المطلق أن يكون النهى منصبا على الفعل فى اللفظ والمعنى ، ففى المثال السابق النهى داخل على الفعل «تهمل» فى اللفظ والمعنى ، ومن ثم فالواو لاتصلح للمعية ، والا كان الاهمال منهيا عنه فى حال مصاحبته للفعل «تلعب» ومباحا فى غير المصاحبة ، وهذا لايراد .

واذا كانت الواو لاتصلح للمعية فهى اما للعطف ، والفعل بعدها مجزوم ومنهى عنه مثل الاول .

والمعنى النهى عن كل من الفعلين على حدة ، واما للاستئناف والفعل بعدها مرفوع ، والمعنى : النهى عن الاهمال فى حال اللعب ، أو النهى عن الاهمال واباحة اللعب . على اختلاف بين العلماء فى فهم المعنى كما سيأتى .

وقد سبق أن ذكرنا أن الفعل «تكتموا» فى قوله تعالى : (ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون) يجب أن يكون مجزوما بالعطف على «تلبسوا» ، فيكون منهيا عنه ،

ولا يجوز نصبه على أن الواو للمعية ، لأن النهى منصب على كل من الفعلين ، فالفعل « تلبسوا » منهى عنه نهيا مطلقا ، والفعل « تكتموا » منهى عنه كذلك نهيا مطلقا ، ولا يكون الثانى منهيا عنه نهيا مطلقا إلا إذا كانت الواو عاطفة ، لأن العاطفة تشرك ما بعدها فى حكم ما قبلها لفظا ومعنى ، فإن كان ما قبلها مجزوما كان ما بعدها مجزوما مثله ، وهذا هو الحكم اللفظى ، وإن كان ما قبلها منهيا عنه أو منفيا كان ما بعدها كذلك ، وهذا هو المراد بالمعنى .

أما التى للمعية فإن ما بعدها يكون مخالفا لما قبلها فى الحكم اللفظى ، فما بعدها منصوب وما قبلها مرفوع أو مجزوم وإذا كان كل من الفعلين منهيا عنه بأداة نهى واحدة وجب أن تكون الواو عاطفة ، وامتنع أن يكون النهى متوجها إلى المصاحبة ، أى للجمع بين الفعلين على سبيل المصاحبة . ومن ثم نستطيع أن نحكم بتخطئة النحويين والمفسرين فى زعمهم أن الواو فى الآية السابقة يجوز أن تكون للمعيه ، والفعل « تكتموا » منصوبا بأن مضمرة بعدها وقد سبق أن ذكرنا ذلك وبينا ما فيه .

الشرط الثانى : يجب أن يسبق الواو نفى أو طلب . والذى يفهم من كلام سيبويه فى نصب المضارع بعد فاء السببية أو واو المعية أنه يجب أن يسبق كلا منها نفى أو أمر أو نهى أو استفهام أو تمن أو عرض . قال فى الفاء : «واعلم أن الفاء لا تضمر فيها «أن» فى الواجب » (٥٦) أ هـ . ومثل لغير الواجب

---

(٥٥) الكهف ٥٥ .

(٥٦) ٣ : ٢٨ .

بالامر والنهى والنفى والاستفهام والتمنى والعرض (٥٧) .
وقال فى الواو : « اعلم ان الواو ينتصب مابعدها فى غير الواجب من حيث انتصب مابعد الفاء » (٥٨) . أ هـ ومفهومه أن الواو تنتصب فيما تسبق به الفاء أى بالامر والنهى والنفى والاستفهام والتمنى والعرض . ولكنه لم يستشهد فى الواو الا للنهى (٥٩) والنفى (٦٠) والامر (٦١) والتمنى (٦٢) ، فلم يستشهد أو يمثل للاستفهام ولا للعرض

أما الاستفهام فهو ثابت سماعاً ، وقد استشهد له الأشمونى بقول الشاعر (٦٣) :

أتبيت ريان الجفون من الكرى
وأبيت منك بليلة الملسوع

وأما العرض فقد أثبته النحويون قياسا على فاء السببية وقاسوا التحضيض أيضا ، وزاد ابن عقيل الدعاء فى فاء السببية (٦٤) ، وقال فى واو المعية : « يعنى أن المواضع التى

---

(٥٧) مثل للامر في ٣ : ٣٤ ، ٣٥ ، ٤٠ ، وللنهى فى ٣ : ٢٤ ،وللنفى فى ٣ : ٢٨ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٦ ، ٤٠ وللتمنىفى ٣ : ٢٣ وللاستفهام عن النفى ٣ : ٣٥ ، ٤٤ وللعرض في ٣ : ٣٤ .
(٥٨) ٣ : ٤١ .
(٥٩) ٣ : ٤٢ .
(٦٠) ٣ : ٤٣ ، ٤٦ .
(٦١) ٣ : ٤٤ ، ٤٥ .
(٦٢) ٣ : ٤٤ .
(٦٣) شرح الأشمونى على الألفية مع حاشية الصبان ٣ : ٢٣٠ ، ٢٣١ .
(٦٤) شرح ابن عقيل على الألفية ٤ : ١٢ .

ينصب فيها المضارع بإضمار أن » وجوبا بعد الفاء ينصب فيها كلها بأن مضمرة وجوبا بعد الواو اذا قصد بها المصاحبة » (٦٥) . أ هـ

والدليل على أن نصب المضارع بعد الواو المسبوقة بالعرض أو التحضيض ثابت بالقياس أمران :

الأول : أن علماء النحو لم يستشهدوا له بكلام العرب وانما جاءوا له بأمثلة من كلامهم، وأغلبهم لم يتعرضوا له قال الرضى «ويكون قبلها أمر ... أو نهى ... أو استفهام ... أو تمن ... أو تحضيض نحو :

هلا تزورنا وتكرمنا ، أو عرض : ألا تزورنا وتكرمنا» (٦٦) أهـ

الثانى : قول الأشمونى : « وقد سمع النصب مع الواو فى خمسة مواضع مما سمع مع الفاء ، الأول : النفى ... ، الثانى : الامر ... الثالث ... : النهى ، ... الرابع : الاستفهام ... الخامس : التمنى ... وقس الباقى » (٦٧) . أ هـ

ومعنى قوله : « وقس الباقى » أن نصب المضارع بعد الواو المسبوقة بالعرض أو وتحضيض لم يسمع ، وانما قيس على نصبه بعد فاء السببية المسبوقة بأحدهما .

---

(٦٥) المرجع السابق ٤ : ١٤ .

(٦٦) شرح الرضى على الكافية ٢ : ٢٤٩ .

(٦٧) الأشمونى مع حاشية الصبان ٢ : ٢٣٠ ، ٢٣١ .

قال الصبان تعليقا على قول الأشمونى « وقس الباقى »: وهو الدعاء والعرض والتحضيض والترجى . وقال أبو حيان : ينبغى ألا يقدم على ذلك إلا بسماع » (٦٨) . أ.هـ

وعد الصبان الترجى ضمن الامور التى ينصب المضارع بعد الواو المسبوقة بأحدها قياسا غير مسلم له ، فقد سبق أن ذكرنا أن الترجى عند البصريين فى حكم الواجب ، فنصب المضارع بعد الواو أو الفاء المسبوقة به غير جائز ، لانه ليس من أنواع الطلب، اذ ليس فيه طالب ولا مطلوب منه،فهو توقع امر محبوب، أو اشفاق من أمر مكروه .

وما ورد فى القرآن الكريم من مضارع منصوب بعد الواو المسبوقة بعسى يجب ا ن تكون الواو فيه عاطفة ، مثل قوله تعالى : (فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا) (٦٩)، وقوله سبحانه : (قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الارض) (٧٠) وقوله جل شأنه : (فعسى ربى أن يؤتين خيرا من جنتك ويرسل ...) (٧١)

ويجب هنا أن أقرر أمرا هاما، وهو أن قياس نصب المضارع بعد الواو المسبوقة بالعرض أو التحضيض أو الدعاء على نصبه بعد فاء السببية المسبوقة بأحد هذه الاشياء كما يفهم من كلام الأشمونى وكما نص عليه الصبان قياس باطل لعدة أمور :

---

(٦٨) المرجع السابق ٢ : ٢٢١ .
(٦٩) النساء ١٩ .
(٧٠) الاعراف ١٢٩ .
(٧١) الكهف ٤٠ .

أولها : أنه لاصله بين فاء السببية وواو المعية سوى أن كلا منهما فى الاصل من حروف العطف،ولا وجه للشبه بينهما سوى ان كلا منهما يشرك مابعده مع ماقبله فى الحكم . وهو المعنى الاصلى للعطف ، فالعلاقة بين الواو والفاء كالعلاقة بين الواو وحتى أو غيرها من حروف العطف .

الثانى : أن الواو فى العطف لمطلق الجمع ، أما الفاء فهى للترتيب والتعقيب . والفرق كبير بين المعنيين ، اذ معنى مطلق الجمع فى الواو انها صالحة لعطف اللاحق على السابق فى الزمن مثل قوله تعالى : (ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم)(٧٢) ولعطف السابق على اللاحق ، مثل قوله تعالى : (كذلك يوحى إليك والى الذين من قبلك الله...) (٧٣) ولعطف المصاحب، مثل قوله تعالى : (فأنجيناه وأصحاب السفينة) (٧٤) لان معناها مطلق الجمع بين المعطوف والمعطوف عليه . أما الفاء فلا يجوز فيها ذلك ، لانها للترتيب والتعقيب ، فلابد فى العطف بها أن يكون المعطوف بعد المعطوف عليه فى تعلقه بالحكم ، أو تعلق الحكم به .

الثالث : أن تأثير فاء السببية المسبوقة بالنفى او الطلب فى المراد من الفعل الواقع بعدها تأثير كبير وواضح ، فهى تحوله من مسبب عما قبلها الى سبب له . وبيان ذلك أن فاء السببية لها حالان ، لانها اما أن تكون بعد ايجاب ، واما أن تكون بعد نفى او طلب ، فان كانت بعد ايجاب كان ماقبلها سببا فيما بعدها،مثل : يسرنى أن تصلى فيكرمك الله . وان كانت بعد نفى

---

(٧٢) الحديد ٢٦ .
(٧٣) الشورى ٣ .
(٧٤) العنكبوت ١٥ .

أو طلب كان مابعدها سببا فيما قبلها ، مثل : لا تضرب زيدا فتندم . فالندم سبب فى النهى عن الضرب ، وليس من المعقول أن يكون النهى عن الضرب سببا فى الندم .

والاصل فى هذا وأمثالــه العطف ، واذا عطف الثانى على الاول كان مجزوما مثله ، وكان النهى عن أمرين همــا الضرب والندم ، فلما أريد تحويل المعنى عن ذلك الاصل ، بجعل الندم سببا فى النهى عن الضرب غيروا اعرابه فنصبوه بعد أن كان مجزوما ، ليكون تغيير الاعراب دليلا على تغيير المعنى .

وكذلك اذا قلت : لم يحضر زيــد فأسلم عليــه ، يجوز فى «أسلم» وجهان : الجزم والنصب ، ولكل معنى ، فان جزمت كان معطوفا على «يحضر» ، ومعناه : لم يحضر زيد فلم اسلم عليه ، وان نصبت كان منصوبا بأن مضمرة بعد الفاء ، ومعناه : لــم يحضر زيد بسبب التسليم . ويفهــم منه أمران : اولهمــا أن التسليم لم يقع ، الثانى : أن لزيد حضورا كثيرا لأسباب أخرى غير التسليم

وقد قررت هذا الامر ـ وهو أن مابعد الفاء سبب فيما قبلها على خلاف ماعليه علماء النحو ـ فى بحث لى بعنوان : « نصب الفعل المضارع بعد الفاء » نشر فى العدد التاسع من مجلة كلية اللغة العربية فى ايتاى البارود الصادر سنة ١٤١٢هـ /١٩٩٢م وقــد دعمت هــذا الرأى بستة أدلة ، فإن شاء القارئ الكريم فليرجع إليها .

واذا ثبت أن لفاء السببية تأثيرا كبيرا فى المضارع الواقع

بعدها ، إذ يتحول بدخول النفي أو الطلب على ما قبل الفاء الى سبب بعد أن كان مسببا ، فلا وجه لقياس الواو على الفاء بعد التحضيض أو العرض أو الدعاء ، اذ لاتأثير للواو في المضارع الواقع بعدها اذا كانت المعية سوى أنها تقصر زمنه على مصاحبته للفعل الواقع قبلها ، فيكون مضمون ما بعدها مصاحبا لمضمون ماقبلها ، والمصاحبة احدى معانيها حين كانت عاطفة وليست للمعية ، فقد سبق أن ذكرنا أنها حين تكون عاطفة تصلح لعطف اللاحق على السابق، والسابق على اللاحق ، كما تصلح لعطف المصاحب ·

واذا كانت المصاحبة احدى معانيها حين كانت عاطفة فتمحضها للمعية لم يأت بجديد ·

إذن يجب الاقتصار على ما سمع من نصب المضارع بعد الواو المسبوقة بالنفى أو الأمر أو الإستفهام أو النهي أو التمنى ولا يجوز نصبه بعد الواو المسبوقة بالعرض أو التحضيض أو الدعاء قياسا على نصبه بعد الفاء المسبوقة بأحد هذه الثلاثة ، لأنه لا وجه لهذا القياس ؛

واستطيع أن اقرر ان نصب المضارع بعد الواو المسبوقة بواحد من هذه الامور الخمسة ــ النفي والامر والنهي والاستفهام والتمني ــ لم يجر كثيرا على لسان العرب ، لان ارادة المصاحبة قليل ما تكون من مقاصد المتكلم · ومن ثم فشواهدها محدودة تكاد تعد على الاصابع ·

فقد قرأت القرآن الكريم أكثر من مرة فلم أجد فيه سوى

ثلاث آيات نصب فيها المضارع بعد الواو المسبوقة بالنفي في الاولى ، وبالتمني في الثانية ، وبجزاء الشرط في الثالثة والاستشهاد بالاولى صحيح ، وبالثانية والثالثة لايجوز .

أما الآية الاولى — وهي من شواهد سيبويه (٧٥) — فقوله تعالى : (ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين) (٧٦) قرئت بجزم «يعلم» في «ويعلم» ورفعه ونصبه (٧٧) والجزم بعد الواو يكون بالعطف على « يعلم » الاولى ، والتقدير : ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولما يعلم الصابرين . والمعنى : بل أحسبتم أن تدخلوا الجنة والى الان لم يقع منكم الجهاد و لاالصبر ، ومفهومه : لن تدخلوا الجنة الا اذا جاهدتم وصبرتم — فكأنه سبحانه وتعالى يطلب من المسلمين أمرين الجهاد والصبر ، أحدهما لايغني عن الاخر ، الا أن هذا الطلب جاء بمفهوم الآية لا بلفظها . وهو معنى جميل . وأجمل منه المعنى على قراءة الرفع ، إذ انه يدل بالمفهوم على مدى التلازم بين الجهاد والصبر المطلوبين لله سبحانه .

---

(٧٥) ٣ : ٤٤ .

(٧٦) آل عمران ١٤٢ .

(٧٧) ذكر الطبري في تفسيره ٤ : ٧١ أن القراء على نصب «يعلم» وان الحسن كان يقرأ بكسر الميم من «يعلم» على الجزم بالعطف على «ولما يعلم» . وكذلك قال الزمخشري في الكشاف ١ : ٢٢٠ وزاد : «وروى عبد الوارث عن ابي عمرو «ويعلم» بالرفع على ان الواو للحال » ١٠ هـ وذكر ابو حيان ان جزم «يعلم» قراءة الحسن وابن يعمر وابي حيوة وعمرو بن عبيد . البحر المحيط ٣ : ٦٦ .

قالوا وللحال أو للاستئناف ، والتقدير : ولما يعلم الله الذين جاهدوا وهو يعلم الصابرين . والمعنى : بل أحسبتم أن تدخلوا الجنة والى الان لم يعلم الله الذين جاهدوا منكم وهو يعلم الصابرين . واذا كان الله سبحانه وتعالى يعلم الصابرين جميعا ولم يعلم جهادكم فلأنكم لستم بصابرين ، والجهاد من غير صبر لا مكانة له عند الله . ومفهومه أن الله سبحانه وتعالى يطلب من المسلمين الجهاد والصبر متلازمين .

أما على قراءة النصب فالمعنى أجمل من سابقيه وأوضح ، لانه يدل باللفظ والمفهوم على مدى التلازم بين الجهاد والصبر المطلوبين لله سبحانه ، إذ المعية موضوعة أصلا للتلازم بين شيئين في الثبوت ، واذا دخل عليها النفي امتنع هذا التلازم بهذا النفي . والمعنى عليه : لم يعلم الله الى الان جمعكم بين الجهاد والصبر . ومفهومه طلب التلازم بين الجهاد والصبر . أي طلب الجهاد والصبر متلازمين .

ولما كانت « لما » موضوعة لنفي الحديث في الماضي متصلا بالحال ، نفيت الحال في بيان المعنى على القراءات الثلاث ، فقلت : « الى الان لم يعلم » .

وعلم الله سبحانه وتعالى منفي في الآية لا عن جهل - حاش لله - ولكنه - جل شأنه - يعلم الامور الواقعة على أنها واقعة ، ويعلم الامور غير الواقعة على أنها غير واقعة . فعلم الله لا يتعلق بالواقع على أنه غير واقع ، ولا بغير الواقع على أنه واقع .

ولما كانت « لما » تفيد توقع الفعل المنفي بعدها : أي توقع

حدوثه فى المستقبل ، كان فى الآية على القراءات الثلاث بشرى للمسلمين بوقوع الجهاد والصبر منهم فى المستقبل ، ودخولهم الجنة ٠

فالقراءات الثلاث متفقة على معنى واحد هو طلب الجهاد والصبر مع التلازم بينهما ٠ الا أن قراءتى الرفع والجزم تدلان عليه بالمفهوم ، أما قراءة النصب فتدل عليه باللفظ والمفهوم معا ٠ ومن ثم كانت أوضح وعليها القراء ٠

الآية الثانية قوله تعالى : (فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين) (٧٨) وقد استشهد بها سيبويه على رفع الفعلين « نكذب ، ونكون » (٧٩) ٠ وفى النشر : « واختلفوا فى (ولا نكذب ، ونكون) فقرأ حمزة ويعقوب وحفص بنصب الباء والنون فيهما ، ووافقهم ابن عامر فى « ونكون » ، وقرأ الباقون بالرفع فيهما » (٨٠) أ هـ ٠

وقد خرج سيبويه قراءة الرفع على وجهين : الأول أن تكون الواو عاطفة ، والفعلان « نكذب ، ونكون » معطوفان على « نرد » فيكونان متمنيين مثله ٠ أى أن التمنى واقع على ثلاثة أمور : ردهم الى الدنيا ، وعدم تكذيبهم ، وكونهم من المؤمنين ٠ الثانى : أن تكون الواو فى « ولا نكذب ، ونكون » للاستئناف ٠ ويجوز أن تكون فى « ونكون » للعطف على « لانكذب » ٠ ومعنى العطف هو معنى الاستئناف ، لانه معطوف على المستأنف ٠ والاستئناف

---

(٧٨) الأنعام ٢٧ وبدايتها : « ولوترى اذ وقفوا على النار فقالوا ٠٠٠ »
(٧٩) ٢ : ٤٤ ٠
(٨٠) ٢ : ٢٥٧ ٠

يقطع مابعده عما قبله . فالفعلان « لا نكذب ، ونكون » ليسا داخلين فى التمنى ، والمتمنى شىء واحد هو الرد .

قال سيبويه : « وقال تعالى : (ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين) . فالرفع على وجهين : فأحدهما أن يشرك الاخر الاول . والاخر على قولك : دعنى ولا أعود . أى فإنى ممن لايعود ، فانما يسأل الترك ، وقد أوجب على نفسه أن لاعودة له البته ، ترك أو لم يترك ، ولم يرد أن يسال ان يجتمع له الترك وأن لايعود . وأما عبد الله بن أبى إسحاق فكان ينصب هذه الآية » (٨١) آ هـ .

فسيبويه لم يخرج قراءة النصب كما ترى ، وخرج قراءة الرفع على وجهين كما ذكر ، وكما بينا .

وتخريج قراءة الرفع على الوجه الاول غير صواب ، لانه يثبت أن عدم التكذيب والكون من المؤمنين داخلان فى التمنى، لانهما معطوفان على « نرد » ، فيكون المتمنى ثلاثة أمور كما ذكرنا : الرد وعدم التكذيب وكونهم من المؤمنين .

والصواب أن المتمنى شئ واحد هو الرد ، ولا يجوز أن يكون الاخران متمنيين ، لان الله سبحانه وتعالى كذبهم فى قولهم : (ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين) بقوله جل شأنه بعد هذه الآية مباشرة :

---

(٨١) ٢ : ٤٤ .

(ولوردوا لعادوا لما نهوا عنه وانهم لكاذبون) (٨٢) والتمنى لا يكذب فى تمنيه ، لان التمنى انشاء ، والتكذيب لا يكون الا فى الخبر .

أما تخريج سيبويه قراءة الرفع على الوجه الثانى فصواب لان المتمنى فيه شىء واحد هو الرد ، أما الفعلان الاخران فخبر، يمكن توجيه التصديق والتكذيب اليه ، ومن ثم فقد كذبهم الله فى قولهم كما بينا . واستقام المعنى .

هذا عن قراءة الرفع . أما قراءة النصب فسيبويه أثبتها ولم يبين الوجه فيها . وأقول ان الواوين فى : « ولا نكذب ونكون » لا يجوز أن تكونا للمعية ، ولا أن تكون الواو فى «ونكون» عاطفة على لا نكذب » المنصوب لانها لو كانت عاطفة لكان المعنى على المعية أيضا ، ولو كانتا للمعية لكان ما بعد كل منهما متمنى ، فيكون التمنى واقعا على ثلاثة أشياء مجتمعة، الرد وعدم التكذيب وكونهم من المؤمنين . فيكون مثل الوجه الاول من وجهى الرفع ، وهذا باطل ، لان عدم التكذيب وكونهم من المؤمنين ليسا متمنيين ، اذ كذبهم الله تعالى فى قولهم كما أسلفنا ، وتكذيب الله اياهم دليل على أن كلامهم الذى كذبوا فيه خبر ، والتمنى انشاء .

فالآية لا يصح الاستشهاد بها على نصب المضارع بعد واو المعية ، وقد استشهد بها بعض علماء النحو ، كابن هشام فى

---

(٨٢) الأنعام ٢٨ .

أوضح المسالك (٨٣) ، والأشمونى فى منهج المسالك .(٨٤)
وهذا باطل كما بينا .

وقد خرج الزمخشرى قراءة النصب على أن الواو واقعة فى جواب التمنى وليست للمعية ، فكما يجاب التمنى بالفاء كذلك يجاب بالواو . قال : «وقرئ (ولانكذب ونكون) بالنصب باضمار ان على جواب التمنى ، ومعناه : ان رددنا لم نكذب ونكن من المؤمنين » (٨٥) أ هـ . ومذهب البصريين أن الطلب لا يجاب بالواو ولا بثم . وانما يجاب بالفاء لا غير .

والقول بأن الطلب يجوز أن يجاب بالواو أو ثم قول كوفى . قال الطبرى : « وكان بعض نحويى الكوفة يقول : لو نصب «نكذب ونكون» على الجواب بالواو لكان صوابا . قال والعرب تجيب بالواو وثم تجيب بالفاء ،يقولون :ليت لى مالا فأعطيك وليت لى مالا وأعطيك ، وثم أعطيك » (٨٦) أ هـ .

وذهب بعض العلماء الى أن التمنى ليس انشاء ، فأجاز النصب فى الآية على أن الواو للمعية . قال ابن يعيش : «فأما النصب وهو قراءة حمزة وابن عامر وحفص فعلى معنى الجمع، والتقدير : ياليتنا يجمع لنا الرد وترك التكذيب والكون من المؤمنين ويكون المعنى كالوجه الاول (٨٧) فى دخولهما فى التمنى

---

(٨٣) ٣ : ١٧٥ بتحقيق محمد محيى الدين .
(٨٤) شرح الأشمونى مع الصبان ٣ : ٢٣١ .
(٨٥) الكشاف ٢ : ٩ .
(٨٦) تفسير الطبرى ٧ : ١١٢ .
(٨٧) أى من وجهى الرفع ، وهو جعل الفعلين متمنيين معطوفين على « نرد » على رأى من يجعل التمنى خبرا .

ويكون التكذيب على رأى من يرى التمنى خبرا » (٨٨) أ هـ ٠

والقول بأن التمنى خبر غير صواب ، لان الخبر له واقع قد يطابقه فيكون صادقا ، وقد لا يطابقه فيكون كاذبا، اذ الخبر ما يحتمل الصدق والكذب لذاته . أما التمنى فليس له واقع يطابقه أو لا يطابقه ، فلا يحتمل الصدق والكذب ، ومن ثم فهو انشاء وليس خبرا ٠

اذن فالاية لا يصح الاستشهاد بها على نصب المضارع بعد الواو على أنها للمعية . ومن ثم كان سيبويه حكيما حين بين فيها وجه الرفع ، ولم يبين وجه النصب ٠

الآية الثالثة : قوله تعالى : (٠٠٠ ويعلم الذين يجادلون فى آياتنا ٠٠٠) (٨٩)) فقد نصب الفعل « يعلم » بعد الواو ، ولم يسبقه فعل منصوب يعطف عليه ، وانما سبقه أفعال مجزومة على الشرط أو الجزاء فى قوله سبحانه (إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور أو يوبقهن بما كسبوا ويعف عن كثير) (٩٠) .

وفى « يعلم » قرأ ابن عامر والمدنيان برفع الميم ، وقرأ الباقون بنصبها (٩١) ٠

---

(٨٨) شرح المفصل لابن يعيش ٧ : ٢٦ ٠
(٨٩) الشورى ٣٥ ٠
(٩٠) الشورى ٣٣ ، ٣٤ ٠
(٩١) النشر ٢ : ٣٦٧ ٠

وقد ذهب بعض علماء النحو والتفسير الي أن النصب بأن مضمرة وجوبا بعد الواو ، وأن الواو للمعية . قال الرضي : « وقد يضمر أن الناصبة بعد الفاء والواو الواقعتين اما بعد الشرط قبل الجزاء نحو : ان تأتني فتكرمني أو وتكرمني آتك، او بعد الشرط والجزاء نحو : ان تأتنى آتك فأكرمك أو واكرمك وذلك لمشابهة الشرط فى الاول والجزاء فى الثانى النفى ، اذ الجزاء مشروط وجوده بوجود الشرط ، ووجود الشرط مفروض فكلاهما غيرموصوفين بالوجود حقيقة.وعليه حمل قولهتعالي: (إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد) الى قوله (ويعلم) على قراءة النصب » (٩٢) أ هـ .

وقال الطبري : « وقوله (ويعلم الذين يجادلون فى آياتنا) .. واختلفت القراء في قراءة ذلك ، فقرأته عامه قراء المدينة (ويعلم الذين) رفعا على الاستئناف ... وقرأته قراء الكوفة والبصرة : (ويعلم الذين) نصبا ، كما قال فى سورة آل عمران (ويعلم الصابرين) على الصرف » (٩٣) ا هـ .

والصواب أنه لايجوز فى الآية نصب « يعلم » بأن مضمرة وجوبا بعد الواو على ان الواو للمعية ، لانه لم يتقدمها نفىولا طلب ، وانما تقدمها جزاء الشرط ، وقد ضعف سيبويه النصب بعده لانه كالايجاب . قال : « واعلم أن النصب بالفاء ، والواو فى قوله : ان تأتنى آتك وأعطيك ضعيف ، وهو نحو من قوله

وألحق بالحجاز فأستريحا

---

(٩٢) شرح الكافية للرضى ٢ : ٢٤٥ .

(٩٣) تفسير الطبرى ٢٥ : ٢٢ .

فهذا يجوز ، وليس بحد الكلام ولا وجهه ، الا أنه فى الجزاء صار أقوى قليلا ، لانه ليس بواجب أنه يفعل ، الا ان يكون من الاول فعل ، فلما ضارع الذى لا يوجبه كالاستفهام ونحوه أجازوا فيه هذا على ضعفه » (٩٤) أ هـ .

واذا كان نصب المضارع بعد الواو المسبوقة بالجزاء ضعيفا فليس من الصواب حمل القراءة عليه ، لان القرآن فى قمة الفصاحة ، فلا يجوز حمل قراءة فيه على وجه ضعيف . ومن ثم ذهب الزمخشرى الى ان نصب « يعلم » فى الآية انما هو بالعطف على تعليل محذوف . قال : « فإن قلت : فما وجوه القراءات الثلاث فى (ويعلم) قلت .... وأما النصب فللعطف على تعليل محذوف تقديره : لينتقم منهم ويعلم الذين يجادلون ونحوه فى العطف على التعليل المحذوف غير عزيز فى القرآن، منه قوله تعالى : (ولنجعله آية للناس) ، وقوله تعالى : (وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت » (٩٥) أ هـ .

والخلاصة أن الفعل « يعلم » فى الآية الكريمة لا يجوز نصبه على المعية ، لان نصب المضارع على المعية بعد الجزاء ضعيف كما ذكر سيبويه ، ولا يجوز تخريج الآيات الكريمة على الأوجه الضعيفة .

اذن فالقرآن الكريم ليس فيه مضارع منصوب على المعية إلا فى آية واحدة كما ذكرنا ، وهى قوله تعالى : (أم حسبتم ان

---

(٩٤) ٣ : ٩٢ .
(٩٥) الكشاف ٣ : ٦ ٤ .

تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا ويعلم الصابرين) .
وقد حملني هذا على الرجوع الى شعر العرب ، لعلي أجد في شعرهم مايؤكد هذه القواعد ، فقرأت أحد عشر ديوانا لشعراء جاهليين ومخضرمين واسلاميين وأمويين (٩٦) ، كما قرأت : طرفة بن العبد - حياته وشعره ، وشرح المعلقات للشنقيطي ، والأصمعيات ، وشرح المفضليات للتبريزي ، وشرح ديوان الحماسة للتبريزي ، فلم أظفر بشيء ، مما يدل على أن نصب المضارع في هذا الباب قليل في لسان العرب .

على أن شواهد سيبويه من الشعر - وهي أربعة - ينتاب اثنين منها بعض الشك ، اذ هما غير ثابتين على وجه اليقين .
أولهما شاهده الذي اشتهر بين النحويين وجرى على كل لسان، وهو :

لاتنه عن خلق وتأتي مثله ★ عار عليك اذا فعلت عظيم

فقد نسبه الى الأخطل ، وليس في ديوانه ، ونسب ايضا الى كل من سابق البربري والطرماح والمتوكل الليثي، والمشهور أنه لأبي الأسود الدؤلي (ملحقات ديوانه ص ٣٠) (٩٧) ، وقد روى عن الأصمعي أنه كان يقول : « لم أسمعه إلا (وتأتي مثله) مرفوعا على القطع » (٩٨) . أ هـ وهو ثقة ، قد شافه العرب وسمع منهم وتذوق كلامهم . فالواو على هذا للاستئناف ، وليست للمعية .

(٩٦) هم : عامر بن الطفيل ، وامرؤ القيس ، وعروة بن الورد والسموال، والأعشى ، والخنساء ، وذو الرمة ، وحسان بن ثابت ، وكعب بن زهير ، وجرير ، وعمرو بن أبي ربيعة ، وجميل بثينة ، وعبيد الله بن قيس الرقيات .
(٩٧) حاشية كتاب سيبويه ٣ : ٤١ .

الثانى قول الشاعر :

فقلت ادعى وأدعو إن أندى ★ لصوت أن ينادى داعيان

فقد نسبه سيبويه الى الأعشى، ولم يرد فى ديوانه ، ونسب أيضا للحطيئة ، ولربيعة بن جشم ، ولد ثار بن شيبان (٩٩)٠

وروى أيضا بلفظ (وأدع) على الأمر بحذف اللام (١٠٠)٠

والآيات الكريمة الثلاث التى استشهد بها سيبويه فى هذا الباب قد ظهر لى بعد التحقيق والتمحيص أن اثنتين منها لايجوز الاستشهاد بهما فى هذا الباب ، وهما قوله تعالى : (ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون) ، وقوله سبحانه : (ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا) وقد سبق أن بينت ذلك وأنا لا أنكر نصب المضارع بعد واو المعية فى لسان العرب ، لكننى أقرر أنه قليل ٠

---

(٩٨) حاشية سيبويه ٣ : ٤٢ وشرح المفصل لابن يعيش ٧ : ٢٥ ٠

(٩٩) حاشية سيبويه ٣ : ٤٥ وشرح المفصل لابن يعيش ٧ : ٣٥ ٠

(١٠٠) شرح المفصل لابن يعيش ٧ : ٣٥ ٠

عامل النصب فى المضارع الواقع بعد واو المعية :

فى سيبويه : « اعلم أن الواو ينتصب مابعدها فى غير الواجب من حيث انتصب ما بعدها الفاء » (١٠١) . ا هـ وقال : «اعلم أن ما انتصب فى باب الفاء ينتصب على اضمار (أن) ... تقول : لا تأتينى فتحدثنى ... كأنك قلت :ليس يكون منك إتيان فحديث ، فلما أردت ذلك استحال أن تضم الفعل الى الاسم ، فأضمروا (أن) ، لان (أن) مع الفعل بمنزلة الاسم .... فأن تحدث فى اللفظ مرفوعة بيكن ، لأن المعنى : لم يكن إتيان فيكون حديث » (١٠٢) . ا هـ

وقال ابن يعيش : « ... فلما استحال حمل الثانى على الاول كأنه تخيل مصدر الأول ، اذ كان الفعل دالا عليه مع موافقة المعنى المراد ، فصار كأنه قال : لايكن منك نهى ، ثم أضمر (أن) مع الثانى ، فصار مصدرا فى الحكم ، ثم عطف مصدرا متأولا على مصدر متأول » (١١٣) . ا هـ

مما سبق نتبين أن الفعل المضارع الواقع بعد واو المعية المسبوقة بالنفي أو الطلب منصوب بأن مضمرة وجوبا بعد الواو ، وأن الواو تعطف المصدر المؤول من «أن» والفعل على مصدر متصيد من الكلام السابق . وهذا مذهب البصريين .

---

(١٠١) ٣ : ٤١ .
(١٠٢) ٣ : ٢٨ .
(١٠٣) شرح المفصل لابن يعيش ٧ : ٢٤ .

وقد خالف الرضي ، فذهب الى أن الواو ليست عاطفة ، وانما هي واو الحال ، أو بمعنى مع . قال : « وكذا تقول في الفعل المنصوب بعد واو الصرف : انهم لما قصدوا فيها معنى الجمعية نصبوا المضارع بعدها ، ليكون الصرف عن سنن الكلام المتقدم مرشدا من أول الامر أنها ليست للعطف ، فهي اذن اما واو الحال ، واكثر دخولها على الجملة الاسمية ، فالمضارع بعدها في تقدير مبتدأ محذوف الخبر وجوبا ، فمعنى : قم وأقوم ، أى قم وقيامي ثابت ، أى في حال ثبوت قيامي . واما بمعنى مع ، وهي لاتدخل الا على الاسم . قصدوا مهنا مصاحبة الفعل للفعل ، فنصبوا ما بعدها . فمعنى قم وأقوم : أى قم مع قيامي » (١٠٤) أ هـ .

فالرضي يرى أن واو المعية هي واو الحال ، وليست عاطفة ، وأن المصدر المؤول بعدها يعرب مبتدأ محذوف الخبر وجوبا ، والتقدير في قولهم : لا تأكل السمك وتشرب اللبن : لا يكن منك أكل السمك وشربك اللبن حاصل ، أو هي مجردة عن العطف لانها بمعنى مع ، والتقدير : لا يكن منك أكل السمك مع شربك اللبن .

والذي دعاه الى القول بأنها واو الحال تقارب المعنيين ، معنى الحال ومعنى المعية ، والمصاحبة في كليهما ظاهرة ، وقد غفل عن أن بينهما فرقا ، فالحال تصاحب صاحبها على أنها صفة له ، لانها تبين هيئته وقت وقوع الفعل منه أو عليه ، أما المعية فهي مصاحبة بين فعلين في الثبوت ولما كانت المصاحبة في كليهما ظاهرة ظن أنها واو الحال ، أو يمكن تقديرها بواو الحال . والصواب أن ذلك لا يجوز لعدة أمور :

---

(١٠٤) شرح الكافية للرضي ٢ : ٢٤٦ .

الأول : أن واو الحال لايضمر بعدها «أن» بالاجماع ، أما واو المعية فالفعل بعدها منصوب بأن مضمرة ٠

الثانى : أن واو الحال لا يجوز أن تدخل على الفعل المضارع المثبت ، نقول : جاء زيد يضحك ، ولا يجوز أن نقول : جاء زيد ويضحك ٠ قال ابن مالك :

وذات بدء بمضارع حوت ★ ضميرا ومن الواو خلت

الثالث : أن الواو لو كانت للحال ، والمصدر المؤول من أن والفعل بعدها مبتدأ محذوف الخبر ـ على مازعم لزم عليه حذف الخبر وجوبا دون ان يسد شيء مسده ٠ وهو خلاف ما عليه النحويون ٠

أما زعمه بأن الواو بمعنى مع ، وأنها مجردة عن العطف، فهو صحيح فى أحد شقيه ، وباطل فى الاخر ، فهى بمعنى مع بالاجماع ، لكنها لم تخرج عن العطف الموضوعة له أصلا ، لان العطف عمل وليس معنى (١٠٥) ، واذا خرجت الواو عن معنى مطلق الجمع الى معنى المصاحبة ، فان ذلك لا يدل على خروجها عن العطف الذى هو عملها ، فمعناها المعية ، وعملها العطف .

ولو كانت الواو مجردة عن العطف لزم عليه أمران كلاهما باطل ٠ الاول : أن يكون المصدر المؤول بعد الواو مضافا اليه : الثانى : أن تكون الواو اسما مضافا،لانها فارقت عملها ومعناها

---

(١٠٥) انظر سيبويه ١ : ٤٢٧ ـ ٤٣٩ ٠

الأصليين وصارت بمعنى مع . واجماع النحاة على أن الواو حرف ، وأن المصدر المؤول بعدها ليس مضافا اليه . فما ذهب اليه الرضى من أن الواو مجردة عن العطف باطل .

وما ذهب اليه سيبويه والجمهور من أن الواو عاطفة للمصدر المؤول بعدها على مصدر متصيد من الكلام صواب ، لكن التقدير غير صواب . في سيبويه: «وتقول : ائتني وأتيك» اذا أردت : ليكن اتيان منك وأن آتيك تعني إتيان منك وإتيان مني » (١٠٦) أ هـ . وقد دأب علماء النحو بعد سيبويه على هذا التقدير . وهو غير صواب ، لان معنى المصاحبة الذي تفيده الواو لا ينص عليه هذا التقدير . قال الرضى : « ولو جعلنا الواو عاطفة للمصدر على مصدر متصيد من الفعل قبله - كما قال النحاة ، أي ليكن منك قيام وقيام مني - لم يكن فيه نصوصية على معنى الجمع .... والأولى في قصد النصوصية في شيء على معنى أن يجعل على وجه يكون ظاهرا قصدوا النصوصية عليه » (١٠٧) أ هـ .

فالواجب في التقدير أن يصرح بما ينص على المصاحبة، حتى لا يضيع معنى الواو ، فنقول في قولهم : لا تأكل السمك وتشرب اللبن . التقدير : لا تجمع بين أكل السمك وشرب اللبن وفي قوله :

لا تنه عن خلق وتأتي مثله ★ عار عليك اذا فعلت عظيم

---

(١٠٦) ٣ : ٤٤ .

(١٠٧) شرح الكافية ٢ : ٢٤٦ .

التقدير : لا تجمع بين نهيك عن خلق واتيان مثله . وهكذا فى جميع أمثلة الباب وشواهده ، باضافة « بين » الى المصدر المعطوف عليه ، ليكون فى الكلام نص على معنى الواو ، وهو المعية .

أما الكوفيون فيقولون : ان مابعد الواو منصوب على الصرف . ومعنى الصرف عندهم أن مابعد الواو فى الاصل كان معطوفا على ماقبلها ، فلما قصد به المعية لم يعد صالحا للعطف ، لتغير المعنى، فصرف عن وجهه الذى كان يستحقه من العطف فنصب .

ولا يضاح ذلك نقول : اذا قلت : محمد لم يصل ويضحك ، بجزم يضحك ، كانت الواو عاطفة ، و «يضحك» معطوفا على «يصل» ، مجزوما مثله ، ومنفيا مثله أيضا ، فالفعلان منفيان على وجه الانفراد ، والمعنى : لم يحدث منه الصلاة فى الماضى مطلقا ، ولم يحدث منه الضحك فى الماضى مطلقا .

فاذا لم ترد هذا المعنى وأردت نفى الصلاة وقت وقوع الضحك ، ونفى الضحك وقت وقوع الصلاة ، كان المعنى المراد هو نفى المصاحبة بين الفعلين فى الوقوع ، وتكون حينئذ قد صرفت الفعل الثانى عن وجهه الذى كان يستحقه بالعطف ، وهو الجزم والنفى ، فينصب حينئذ ويصير مثبتا الا فى وقت وقوع الصلاة فانه يكون منفيا ، ويصير المعنى : محمد لم يصل ويضحك فى وقت واحد . أى لا مصاحبة بين الفعلين ، فليس كل منهما منفيا على الاطلاق ، ولا مثبتا على الاطلاق ، بل المنفى اجتماعهما .

فعامل النصب عند الكوفيين هو الصرف ، وهو عامل معنوى (١٠٨) . والعوامل المعنوية تعمل الرفع باتفاق بين البصريون والكوفيين ، وكذلك تعمل النصب عند الكوفيين ، اما عند البصريين فلا . فالفعل المضارع الواقع بعد واو المعية منصوب عند الكوفيين ، كما نصب خبر المبتدأ الذى ليس عين المبتدأ فى المعنى، مثل : «عندك» فى : محمد عندك . قال ابن يعيش فى عامل النصب فى المضارع الواقع بعد واو المعية: «والكوفيين يقولون فى مثل هذا وأشبابه أنه منصوب على الصرف .. وهذا الكلام ان كان المراد به لما لم يرد فيه عطف الثانى على لفظ الفعل الاول صرف عن التعليه الى معنى الاسمية بان أضمروا «أن» ونصبوا بها فهو كلام صحيح ، وان كان المراد أن نفس الصرف الذى هو المعنى عامل فهو باطل ، لان المعانى لا تعمل فى الافعال النصب ، انما المعنى يعمل فيها الرفع ، هو وقوعه موقع الاسم كما كان الابتداء الذى هو معنى عاملا فى الاسم ، ماعرفه » (١٠٩) أ هـ .

---

(١٠٨) هذا على مذهب الكوفيين ــ اما على مذهب البصريين فليس عاملا . ولا يضاح العامل المعنوى نقول : ان بعض المعانى وضع لها العرب حروفا تؤدى معناها ، كالنفى والاستفهام والتوكيد والتمنى والرجاء والتقليل والتكثير ، فما اختص منها باسم او فعل عمل فيه ، ومالم يختص لم يعمل . وبعضها لم يضعوا له شيئا ــ وهو الغالب ــ اما لاستغنائهم عنه بفعله كالمدح والرثاء والشفقة والعطف والحنين والشوق فليس لها حروف تدل عليها وتؤدى معناها واما لاستغنائهم عنه بغيره ، كما استغنوا باشارة اليد عن وضع حرف . ومن الاول الصرف والابتداء . والمعانى التى لاحروف لها تعمل الرفع باتفاق بين البصريين والكوفيين ، كا لابتداء العامل فى المبتدأ ، وكذلك تعمل النصب عند الكوفيين ، كالصرف العامل فيما بعد واو المعية وخبر المبتدأ الذى ليس عين المبتدأ فى المعنى .

(١٠٩) شرح المفصل لابن يعيش ٧ : ٢٧ .

الحالة الثالثة التى ينصب فيها المضارع بعد واو المعية : أن تقع الواو بعد فعل الشرط قبل الجزاء ، مثل قولك : ان تنجح وتتفوق أكافئك . بنصب « تتفوق» على اضمار «أن» . والمعنى : إن يكن منك اجتماع النجاح والتفوق أكافئك .

والنصب فى هذا وامثاله ضعيف ، والجيد الجزم ، لانه يكون بالعطف على فعل الشرط ، والعطف هو الاصل ، والمعنى واحد ، لان المعنى على العطف أن كلا من المعطوف والمعطوف عليه شرط فى الجزاء ، وهو معنى المعية ، والعرب تكره الخروج على الأصل الا لإفادة معنى جديد . فى سيبويه : « وسألت الخليل عن قوله : إن تأتنى فتحدثنى أحدثك ، وان تأتنى أحدثك ، فقال : هذا يجوز ، والجزم الوجه .

ووجه نصبه على أنه حمل الاخر على الاسم ، كأنه اراد: ان يكن اتيان فحديث احدثك ،فلما قبح أن يرد الفعل على الاسم نوى «أن» ، لان الفعل معها اسم .

وانما كان الجزم الوجه لانه اذا نصب كان المعنى معنى الجزم فيما أراد من الحديث ، فلما كان ذلك كان أن يحمل على الذى عمل فيما يليه أولى ، وكرهوا أن يتخطوا به من بابه الى باب اخر اذا كان يريد شيئا واحدا (١١٠) أ هـ .

وكذلك يجوز نصب المضارع اذا وقعت الواو بعد الشرط والجزاء، مثل قولك : ان تنجح أحبك وأكافئك، بنصب «كافىء» على إضمار «أن» بعد واو المعية.وهو ضعيف أيضا،والجيد من

---

(١١٠) ٣ : ٨٨ .

الكلام الجزم بالعطف على الجزاء ، لان الجزاء لم يسبقه نفى ولا طلب، فكأنه وقع بعد الايجاب ،ولم مايكن قبله ايجابا لانه شرط ، ووقــوع الشرط مفروض لا واجب ، والجزاء لايقــع الا بوقوع الشرط ، فهو غير ثابت على الحقيقة لعدم ثبوت شرطه. وعدم ثبوت الشرط جعل له شبها بالنفى أو الاستفهام، لان كلا منهما لا يوجب مابعده .

ولما كان الشرط يشبه النفى أو الاستفهام ، وليس نفيا أو استفهــاما على الحقيقة ، كان للجزاء فضل على الايجــاب فجــاز نصب المضــارع بعد الواو المسبوقة به . فى سيبويه : «واعلم أن النصب بالفاء والواو فى قوله : إن تأتنى اتك وأعطيك ضعيف ، وهو نحو من قوله : والحق بالحجاز فأستريحا ، فهذا يجوز وليس بحد الكلام ولا وجهه ، الا أنه فى الجزاء صار أقوى قليلا ، لانه ليس بواجب انه يفعل ، الا أن يكون فى الكلام فعل، فاما ضارع الذى لا يوجبه كا لاستفهام ونحوه أجازوا فيه هذا على ضعفه وان كان معناه كمعنى ما قبله اذا قال واعطيك(١١١)أهـ

الحالة الرابعة من الحالات التى ينصب فيها المضارع بعد الواو ، أن تكــون الواو عاطفة للفعل الواقع بعدها على اســم خالص من التأويل بالفعل . قال سيبويه : «ومن النصب أيضا قولــه :

للبس عباءة وتقر عينى ★ أحب إلى من لبس الشفوف

---

(١١١) ٢ : ٩٢ .

لما لم يستقم أن تحمل (وتقر) وهو فعل ، على (لبس) وهو اسم ، لما ضممته الى الاسم وجعلت أحب خبرا لهما ، ولم ترد قطعه ، لم يكن بد من اضمار (أن) (١١٢) أ هـ .

وقال الأشمونى : « ... وهى أن تعطف الفعل على اسم خالص بأحد هذه الحروف الأربعة الواو وأو والفاء وثم نحو قوله : وأنشد بيت سيبويه » (١١٣) أ هـ .

وقال الصبان تعليقا على قول الأشمونى : على اسم خالص: «أى من شائبه الفعليه ، بأن يكون فى تأويل الفعل ، وهو الجامد » (١١٤) أ هـ .

وقال ابن هشام : « والأربعة الباقية أو والواو والفاء وثم، اذا كان العطف على أسم ليس فى تأويل الفعل .... ثم أنشد البيت الذى استشهد به سيبويه » (١١٥) أ هـ .

مما سبق ومن كل ما اطلعت عليه من كتب النحو تبين لى أن النحاة هنا يكادون يجمعون على أمرين يجب البحث فيهما، الاول : أن المصدر - وهو الاسم السابق على حرف العطف فى البيت الذى أورده سيبويه وتبعه النحاة فى الاستشهاد به - ليس فى تأويل الفعل . الأمر الثانى : نصب المضارع فى هذا البيت بأن مضمرة جوازا .

---

(١١٢) ٣ : ٤٥ ، ٤٦ .
(١١٣) الأشمونى مع الصبان ٣ : ٢٣٥ .
(١١٤) ذاتــه .
(١١٥) أوضح المسالك ٣ : ١٨١ .

وانما قلت يكادون يجمعون ـ وان كنت لم أر غير هذا الرأى ـ لأنني لم أطلع على كل كتب النحو ، ولو تيسر لي الاطلاع عليها جميعا لجزمت بإجماعهم .

وأرى أن المصدر فى البيت فى تأويل الفعل ، وأن الواو عاطفة ، وأن الفعل بعدها ليس منصوبا بأن مضمرة بعد الواو كما زعم النحاة ، وانما هو منصوب بالعطف على الفعل المنصوب المأخوذ من المصدر ، وان التقدير : لأن ألبس عباءة وتقر عيني أحب .

ودليلي على ذلك أربعة أمور :

الأول : أن الأصل فى المصدر أن يقدر بالفعل ، وان الحالات التى يمتنع تقديره فيها بالفعل خارجة عن هذا الأصل ، وقد نص العلماء عليها (١١٦) ، وليس المصدر فى البيت واحدا منها .

---

(١١٦) وهي «أ» اذا كان المصدر نائبا عن فعله ، مثل : ضربا زيدا ، وقوله تعالى : (فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب) «ب» اذا كان مؤكدا لعامله مثل : أكرمت زيدا اكراما «ج» اذا كان محدودا بالتاء ، مثل : ضربه واكله «د» اذا كان مثنى أو مجموعا «هـ» اذا كان مبتدأ سد الحال مسد خبره مثل : ضربي العبد مسيئا ، وقول العرب : سمع أذني أخاك يقول ذلك «و» اذا وقع اسما لكان أو ان ولم يفصل الخبر بينهما مثل : كان تعظيمك زيدا حسنا ، وان اكرامك زيدا حسن ، لان العرب التزموا عدم وقوع الحرف المصدرى والفعل فى هذين الموضعين الا مفصولا بالخبر «ز» اذا وقع اسما للا النافية للجنس مثل : لا اعراض عنك ، لان العرب لم يوقعوا المصدر المؤول مكان المصدر الصريح فى هذا الموضع الا اذا كررت لا «ح» اذا كان منعوتا مثل : اعجبني ضربك المبرح زيدا ، واعجبني ضربك زيدا المبرح . فالنعت يمنع تقديره بأن والفعل اذ المصدر المؤول لايجوز نعته ـ وانظر الأشموني وحاشية الصبان ٢ ٢٩١ .

فهو اذن مقدر بالفعل ، واذا كان كذلك كانت الواو عاطفة ، وكان الفعل بعدها معطوفا على الفعل المنصوب المأخوذ من المصدر ، والتقدير : لأن ألبس عباءة وتقر عيني احب .

الثانى : أن الأصل فى الواو العطف ، والعطف فى البيت يؤدى المعنى المقصود من المعية . واذا كان معنى العطف والمعية واحد فوجه الكلام وجيده ألا يعدل عن العطف لانه الأصل ، كما ذكر سيبويه فى جواز نصب المضارع بعد الواو المسبوقة بالشرط ، حيث قال : « وسألت الخليل عن قوله : ان تاتنى فتحدثنى أحدثك ، وان تأتنى وتحدثنى أحدثك ، فقال : هذا يجوز ، والجزم الوجه .... وانما كان الجزم الوجه لانه اذا نصب كان المعنى معنى الجزم فيما أراد من الحديث ، فلما كان ذلك كان أن يحمل على الذى عمل فيما يليه أولى ، وكرهوا أن يتخطوا به من بابه الى باب آخر اذا كان يريد شيئا واحدا » (١١٧) أ هـ .

الثالث: اذا كان العطف على المتوهم جائزا فى لسان العرب مثل لست قائما ولا قاعد ـ بجر . قاعد » عطفا على « قائما » ، لتوهم دخول حرف الجر الزائد عليه ـ فالعطف على الفعل الواجب تأويل المصدر به أولى . والمصدر فى البيت يجب تأويله بان والفعل ، لأنه ليس من المصادر التى يمتنع تقديرها بأن والفعل ولانه عامل ، فألبس مضاف ، وعباءة مضاف اليه ، من اضافة المصدر الى مفعوله .

---

(١١٧) ٣ : ٨٨ .

الرابع : عطف الفعل المنصوب بعد الواو على الفعل المنصوب المأخوذ من المصدر الواجب تأويله بأن والفعل ثابت في القرآن الكريم في قوله تعالى:(وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا .... أو يرسل) (١١٨) فيرسل معطوف على الفعل المنصوب المأخوذ من المصدر ، والتقدير : الا أن يوحى أو يرسل .

واذا كان الفعل بعد الواو في البيت منصوبا بالعطف ، وليس منصوبا بأن مضمرة جوازا بعد الواو ـ كما ذكر سيبويه والنحاة ـ فان البيت لا يصلح شاهدا على ما نحن فيه ، لان المصدر ليس خالصا من التأويل بالفعل . والمثال الذى يصح التمثيل به في هذا الموطن ، ولا ايراد عليه ـ اذا كان مسموعا ـ قولهم :لو لامحمد ويحسن اليك لهلكت . فيحسن منصوب بأن مضمرة جوازا بعد الواو ، وهي مع الفعل في تأويل مصدر معطوف على محمد ، وهو اسم ليس في تأويل الفعل .

ومثل هذا يقال في الفعل المنصوب بعد الفاء أو ثم أو «أو» المسبوق كل منها بالمصدر مثل قول الشاعر :

لولا توقع معتر فأرضيه
ماكنت أوثر اترابا على ترب

وقول الأخر :

إني وقتلى سليكا ثم أعقله
كالثور يضرب لما عافت البقر

---

(١١٨) الشورى ٥١ .

فالفعل «أرضى» منصوب بالعطف على الفعل المنصوب المأخوذ من المصدر «توقع» ، وليس منصوبا بأن مضمرة جوازا بعد الفاء كما زعم النحاة • وقل مثل ذلك في الفعل «أعقل» في البيت الثاني ، وفي «يرسل» في قوله تعالى : (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا •••• أو يرسل •••)

وهذا آخر ما تيسر لي من جهد في اعداد هذا البحث • أدعو الله سبحانه وتعالى أن يجعله خالصا لوجهه الكريم ، والحمد لله رب العالمين ، وما توفيقي الا بالله ، عليه توكلت ، واليه أنيب •

الدكتور

عوض مبروك عبد العزيز شحاته

فهرس الكتب والمراجع

١ ـ الأصمعيات . للأصمعى . تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون . بيروت . لبنان .

٢ ـ إعراب القرآن . لابن النحاس . تحقيق الدكتور / زهير غازى . عالم الكتب . مكتبة النهضة العربية .

٣ ـ أوضح المسالك . لابن هشام . ومعه كتاب هداية السالك . لمحمد محيى الدين . دار الندوة . بيروت . لبنان .

٤ ـ تعليق الفرائد على تسهيل الفوائد . للدماميني . تحقيق الدكتور محمد عبد الرحمن المفدى .

٥ ـ تفسير القرآن العظيم . لابن كثير . دار المعرفة . بيروت . لبنان .

٦ ـ جامع البيان فى تفسير القرآن . للطبرى . دار المعرفة . بيروت . لبنان .

٧ ـ حاشية الصبان مع شرح الأشمونى . دار الفكر للطباعة والنشر . بيروت . لبنان .

٨ ـ ديوان الأعشى ميمون بن قيس . دار بيروت للطباعة والنشر .

٩ ـ ديوان امرئ القيس . دار بيروت للطباعة والنشر .

١٠ ـ ديوان جرير . دار بيروت للطباعة والنشر .

١١ ـ ديوان جميل بثينة . دار بيروت للطباعة والنشر .

١٢ ـ ديوان حاتم الطائى . دار بيروت للطباعة والنشر .

١٣ ـ ديوان الخنساء . دار بيروت للطباعة والنشر .

١٤ ـ ديوان ذى الرمة . تحقيق عبد القدوس أبو صالح . مؤسسة الإيمان . بيروت . لبنان .

١٥ ـ ديوان عامر بن الطفيل . دار بيروت للطباعة والنشر .

١٦ ـ ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات . دار بيروت للطباعة والنشر .

١٧ ـ ديوانا عروة بن الورد والسموأل . دار بيروت للطباعة والنشر .

١٨ ـ ديوان عمر بن أبى ربيعة . داربيروت للطباعة والنشر

١٩ ـ ديوان كعب بن زهير . شرح ودراسة د . مفيد قميحة . دار الشواف للطباعة والنشر . الرياض .

٢٠ ـ روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم . للألوسى . مكتبة دار التراث . القاهرة .

٢١ ـ السبعة فى القراءات . لابن مجاهد . تحقيق الدكتور شوقى ضيف . الطبعة الثانية . دار المعارف .

٢٢ ـ شرح ابن عقيل . لابن عقيل . ومعه كتاب منحة الجليل . لمحمد محيى الدين عبد الحميد . مكتبة دار التراث . القاهرة .

٢٣ ـ شرح الأشمونى مع حاشية الصبان . دار الفكر للطباعة والنشر . بيروت . لبنان .

٢٤ ـ شرح ديوان حسان بن ثابت . وضع وضبط وتصحيح عبد الرحمن البرقوقى . دار الكتاب العربى .

٢٥ ـ شرح ديوان الحماسة . للخطيب التبريزى . عالم الكتب . بيروت .

٢٦ ـ شرح الرضى على الكافية . دار الكتب العلمية بيروت . لبنان .

٢٧ ـ شرح المعلقات العشر وأخبار شعرائها . لأحمد بن الأمين الشنقيطى . دار الكتاب العربى .

٢٨ ـ شرح المفصل . لابن يعيش . تحقيق جماعة من العلماء بمعرفة مشيخة الأزهر . المطبعة المنيرية .

٢٩ ـ شرح المفضليات . للخطيب التبريزى . تحقيق على محمد البجاوى . دار نهضة مصر للطبع والنشر . القاهرة .

٣٠ ـ طرفة بن العبد ـ حياته وشعره . للدكتور محمد على الهاشمى . عالم الكتب . بيروت . لبنان .

٣١ ـ كتاب سيبويه . تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون . دار الجيل . بيروت . لبنان .

٣٢ ـ الكشاف . للزمخشرى . ويليه الكافى الشاف فى تخريج أحاديث الكشاف . للعسقلانى . دار المعرفة . بيروت .

٣٣ ـ النشر فى القراءات العشر . لابن الجزرى . دار الكتاب العربى .

ثغـــر ملطيـــة
ودوره فى الجهاد ضد البيزنطيين
من سنة ١٤٠ ـ ٣٢٢ هـ (٧٥٧ ـ ٩٢٤ م)

بقـــلم
الدكتور / أحمد محمد الدسوقى المنوفى
كلية اللغة العربية ـ جامعة الأزهر
بإيتـــاى البارود

بســـم الله الرحمن الرحيم

تمهيـــــد :

الحمد لله رب العالمين الهادى إلى الصراط المســتقيم والصـــلاة والســـلام على سيدنا محمد خاتم المرسلين وخير الداعين وإمام المجاهدين وعلى آله وصحابته أجمعين ٠

وبعد فمنذ بدأت الدعوة الاسلامية وهى تجابه خصومها الحاقدين الراغبين فى القضاء عليها ، وكان البيزنطيون أحد هؤلاء الخصوم ، وترجع المواجهة بين المسلمين والبيزنطيين إلى ظهور الإسلام ، وتكوين دولة له بالمدينة ، فقـــد كانت عقيدته تخالف عقائدهم ، ونظمه تخالف أنظمتهـــم ، ولذلك دبروا لوأده وإنهاء دولته تعصبا لدينهم ورغبة ألا يزاحمه دين آخر ، ولكن أبى الله تعالى إلا أن يتم نوره ، وتنتشر دعـــوة الإسلام وتتسع رقعة دولتـــه وتزيح البيزنطيين عن مصر والشام والمغرب وغيرها ، ولذلك ازدادت عداوتهم للإســـلام والمسلمين ، وتربصوا بهم الدوائر ، وتحينوا الفرص للإيقاع بهم واسترجاع ممتلكاتهم وتصدى المسلمون لكيـــدهم ، ورد عدوانهم ، وتطلعت الدولة الإسلامية الفتية فى عهدى الخلفاء الراشدين وبنى أمية ، إلى إسقاط عاصمتهم القسطنطينية ، والقضاء بذلك نهائيا على إمبراطوريتهم مصدر القلق والتهديد

للدولة الإسلامية ، ولكن حصانة المدينة كانت من أهم عوامل إخفاقهم فى ذلك ٠

وفى عهد الدولة العباسية ، لم تحدث محاولات لفتح القسطنطينية لابتعاد العباسيين عن الحروب البحرية عموما ، واقتنعوا بالغزوات البرية المنظمة للأراضى البيزنطية فيما عرف بنظام الصوائف والشواتى (١) ، وهو نظام قديم اتبعه المسلمون منذ عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه بعد انتزاع الشام من أيدى البيزنطيين ، ويهدف هذا النظام إلى التوسع فى الأراضى البيزنطية ، والاستيلاء على حصونهم التى تواجه المسلمين ٠

وكان خط الحدود الفاصل بين الدولتين العباسية والبيزنطية ، يتكون من سلسلتى جبال طوروس ، وطوروس الداخلية ويقطع جبال طوروس دروب كثيرة ، سلك المسلمون

---

(١) كانت حملاتهم البرية أو الصوائف والشواتى تتم فى مواسم معينة مرتين أو ثلاث مرات كل عام ، فالأولى حملة الربيع وهى تقع لعشرة أيام تخلو من مايو ، بعد أن تكون خيول الغزاة قد تحسنت لوفرة الكلأ والمراعى ، وتستمر هذه الغزوة ثلاثين يوما ، والحملة الثانية تتم فى الصيف وتبدأ لعشرة أيام تخلو من يوليو ، وتستمر ستين يوما ، والثالثة حملة الشتاء ، وتحدث فى حالات الضرورة ، وتبدأ فى آخر فبراير الى أيام تمضى من مارس ولا تزيد مدة هذه الحملة عن عشرين يوما ٠ انظر قدامة بن جعفر : نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة ضمن كتاب المسالك لابن خرداذبة ص٢٥٩ ، ليدن ١٩٦٧ ، نقلا عن د٠ فتحى : الحدود الاسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربى والاتصال الحضارى جـ٢ ص ٣٢٠ الدار القومية للطباعة والنشر ٠ القاهرة ١٩٦٧ م ٠

اثنين منها هما درب الحدث وهو فى الشمال الشرقى ، ويمتد من مرعش إلى أبلستين ودرب الأبواب القيليقية ، ويمتد شمالا من طرسوس فى اتجاه الطريق العام إلى القسطنطينية (٢) . ويحمى خط الحدود بين الدولتين عدد من الثغور يمكن أن نقسمها إلى ثلاث مجموعات هى الثغور الشامية ، والثغور الجزرية والثغور البكرية ، وقد احتلت ملطية (٣) المكانة الأولى بين الثغور الجزرية ، وكانت مفتاح الطريق الى منطقة الثغور كلها ويتركز الدفاع فيها عن منطقة الجزيرة ، ويسهل الاتصال منها بثغور الشام ، ونظرا لموقعها المتميز وقربها من بلاد الروم كانت طريق الصوائف والغزوات إلى بلادهم . وتعادل مكانة ملطية فى ثغور الجزيرة ، مكانة أنطاكية فى ثغور الشام فى عهدى الخلفاء الراشدين وبنى أمية وطرسوس فى عهد العباسيين .

وتضم ثغور الجزيرة بجانب ملطية مرعش والحدث وزبطرة وكيسوم وحصن منصور وشمشاط ويقابلها عند الروم جند خرشنه والخالدية (٤) ، وسميت ثغور الجزيرة لأن الجند

---

(٢) سليمان : د. أحمد عبد الكريم . المسلمون والبيزنطيون فى شرق البحر المتوسط ص ٣٢ ، ص ٣٤ الطبعة الأولى مطبعة السعادة القاهرة ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ .

(٣) ملطية بفتح أوله وثانيه وسكون الطاء ، والعامة تقوله بتشديد الياء وكسر الطاء . الحموى : أبو عبد الله ياقوت عبدالله معجم البلدان جـ٥ ص ١٩٢ دار احياء التراث العربى . بيروت بدون تاريخ .

(٤) قدامة بن جعفر : مصدر سبق من ص ٥٣ - ص ٥٩ ، العرينى : د. السيد الباز اجناد الروم ص ١٥ ، ص ١٦ مكتبة نهضة مصر القاهرة ١٩٥٦ م .

المقيمين فيها من العراق والجزيرة (٥) ، بالرغم من أن هـــذه المنطقة تعد من بلاد الشام لأن كل ما هو غربى الفـــــرات فمن الشـــام ٠

وتضم ثغور الشام بجانب طرسوس أذنة والمصيصـــــة وعين زربى والهارونية والكنيسة وبياس ، وسميت بثغـور الشام بالرغم من أنها ليست من الشام ، لأنها تحمى بلاد الشام ويقابلها عند الروم جند « القبـــادق والناطليق » من ناحية البر ، « وسلوقيه » من ناحية البحر ، ويفصـــل جبل « اللكام » (٦) بين ثغور الجزيرة والثغور الشامية ، وتقع ثغور الجزيرة فى الشمال الشرقى بينما تقع ثغور الشام فى الجنوب الغـــربى ٠

ويلى ثغور الجزيرة الثغور البكرية ، نسبة الى ديار بكر بالجزيرة ، وتحمى هذه المنطقة من الجزيرة وأهمها سميساط وحانى وملكين وعدة حصون ، وتنتهى فى أقصى الشـــمال بثغر « قالقيلا » أو « أرزن الروم » ، ويقابل الثغور البكرية فى ارض الروم « الأرميناق » وبعض أجزاء من الخريطة (٧) ٠

---

(٥) ابن العديم : أبو حفص بن عمر بن احمد بغية الطلب فى تاريخ حلب جـ٢ ورقة ٣٠٦ مخطوط مصور بدار الكتب بالقاهرة تحت رقم ١٥٦٦ تاريخ ٠

(٦) اللكام جبل يشرف على انطاكية والمصيصة وطرسوس ومنطقة الثغور ٠ الحموى مصدر سابق ج ٥ ص ٢٢ ٠

(٧) قدامه : مصدر سابق ، العريني مرجع سبق ٠

موقع ملطية ولمحة من تاريخها

تقع ملطية الى الشمال من حلب ، فى شمال الشام ، عند احد الممرات المؤدية من إقليم الجـــــزيرة إلى أراضى الدولة البيزنطية (٨) ·

ويقال إن الذى بناها هو الإسكندر الأكبر (٩) ، وكانت من بلاد الروم ، وقد وصلت الجيوش الإسلامية إليهـــــا سنة ١٤ هـ ، عندما بعث أبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنه عياض بن غنم لتتبع الروم ، فسلك الأعماق حتى بلغ ملطية فصالحه أهلها على الجزية ثم انصرف ، ولما ســـمع هرقل (٦١٠ ــ ٦٤١ م/١٢ ق ٠ هـ/٢٠ هـ) بذلك بعث إلى مقاتليها ومن فيها فساقهم إليه خوفا على أهلها من المســـلمين وأمر بإحراق المدينة (١٠) وذلك تمشيا مع سياسته الهادفة إلى إيجاد منطقة عازلة بين الروم والمسلمين ، تضمن الحمـــاية لبلاد الروم من غارات الدولة الإسلامية الفتيــــة ، حتى إذا

---

(٨) ابن حوقل : أبو القاسم محمد بن حوقل صورة الأرض جـ١ ص ٢٠٨ نشر كرامر ضمن المجموعة الجغرافية العربية الطبعة الثانية ليدن ١٩٣٨ ــ ١٩٣٩ م ·

(٩) الحموى مصدر سبق جـ٥ ص ١٩٢

(١٠) الطبرى : أبو جعفر محمد بن جرير تاريخ الرسل والملوك جـ٣ ص ٥٧٢ تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم الطبعة الثانية دار المعارف القاهرة ١٩٧٠ ــ ١٩٧٦ ·

طرقها المسلمون وجدوها خرابا ، وبعدت عليهم الشقة ، وفى نفس الوقت تعطى الفرصة الكافية للروم للاستعداد وصد الهجوم ، ولكن يبدو أن الروم عادوا لعمارتها وسكناها ، فقد أوردت المصادر أن عياض بن غنم لما فتح سميساط سنة ١٧ هـ بعث حبيب بن مسلمة الى ملطية ففتحها عنوة ، ورتب فيها جندا من المسلمين مع عاملها (١١) ٠

عمارة المسلمين للمدينة ،

العمارة الأولى

أدرك المسلمون أهمية هذه المدينة لموقعها وقربها من بلاد الروم ورأوا ضرورة اتخاذها قاعدة لهم ، وكان معاوية ابن أبى سفيان — والى الشام والجزيرة — هو أول من فطن إلى ذلك ، فرتب فيها جندا من المسلمين ، وجعل عليها عاملا ، وحرص على تزويدها بالجنود ، وعندما قدم إليها — أثناء ولايته على الشام والجزيرة — لينطلق منها إلى غزو بلاد الروم ، شحنها بجند من أهل الشام والجزيرة وغيرهما ، وصارت ملطية بعد ذلك طريق الصوائف وقاعدة من قواعد جيوش

---

(١١) ابن الأثير : أبو الحسن على بن أبى الكرم محمد الكامل فى التاريخ جـ٢ ص ٣٧٤ ، ص ٣٧٥ دار الفكر بيروت ١٣٩٨ هـ — ١٩٧٨ م ٠

المسلمين المهاجمة لبلاد الروم (١٢) ، وعندما غزا معاوية ابن أبى سفيان حصن المرأة من أرض الروم سنة ٣٣ هـ كان ذلك عن طريق ملطية (١٣) .

وقد انتهزت امبراطورية الروم - كعهدها دائما مع الدولة الإسلامية - فرصة الخلاف والشقاق بين المسلمين والحروب التى نشبت بينهم أيام فتنة عبد الله بن الزبير (١٤) فهاجموا ملطية وخربوها بعد أن جلا المسلمون عنها ، وسكنها بعد ذلك قوم من النصارى من الأرمن والنبط (١٥) .

ويبدو أن ملطية ظلت شبه خالية ليس بها إلا بعض أهل الذمة من الأرمن والنبط مدة من الزمان ، وكانت بعض جيوش المسلمين تمر بها فى غزوها لبلاد الروم ، فقد ذكر اليعقوبى أن الوليد بن عبد الملك غزا أطمار من ناحية ملطية سنة ٧٧هـ (١٦)

---

(١٢) البلاذرى : ابو الحسن احمد بن يحيى فتوح البلدان ص ١٨٩ دار الكتب العلمية بيروت ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م ابن الاثير المصدر السابق .

(١٣) الطبرى : مصدر سبق جـ٤ ص ٣١٧ .

(١٤)وذلك فى عهد يزيد بن معاوية ، وقد افاد ابن الزبير من سخط عامة المسلمين على بنى امية لسوء سياستهم فدعا الى بيعته سنة ٦١ هـ واقام دولة شملت معظم أرجاء العالم الاسلامى ، وانحصر نفوذ بنى أمية فى جزء من بلاد الشام ، حتى تمكن مروان بن الحكم وابنه عبد الملك من القضاء على هذه الدولة وقتل ابن الزبير سنة ٧٣ هـ . الطبرى جـ٥ ، جـ٦ فى مواضع متفرقة .

(١٥) البلاذرى مصدر سبق ص ١٨٩ تاريخ اليعقوبى .

(١٦) اليعقوبى : احمد بن أبى يعقوب - تاريخ اليعقوبى ص ٢٨١ دار صادر بيروت بدون تاريخ .

وذكر الطبرى وابن الأثير أن مسلمة بن عبد الملك غزا بلاد الروم من ناحية ملطية فافتتح ماسة وغزالة وبرجمة سنة ٩٣ هـ (١٧) ، كما فتح داود بن سليمان بن عبد الملك حصن المرأة من ناحية ملطية ٩٨ هـ (١٨) .

وكان من أسباب إهمال المسلمين لملطية فى هذه الفترة وعدم عمارتها ، أن المسلمين اتخذوا قاعدة اكثر قربا من بلاد الروم هى طرندة التى فتحها المسلمون سنة ٨٣ هـ بقيادة عبد الله بن عبد الملك بن مروان ، وهى على ثلاثة مراحل من ملطية واغلة فى بلاد الروم ، وقد أسكنها عبد الله المسلمين بعد فتحها (١٩) ، وكانت القاعدة الجديدة تزود بجند من الجزيرة ، فيأتى الجند فيقيمون فيها فى فصل الصيف حتى إذا أقبل الشتاء وتساقطت الثلوج عادوا إلى بلادهم ، وظل الأمر كذلك حتى ولى عمر بن عبد العزيز الخلافة ، ودفعه الخوف على المسلمين من اعتداء الرو موغدرهم إلى طلب إخلاء طرندة سنة ١٠٠ هـ وترحيل أهلها إلى ملطية ، فترك المسلمون طرندة وهم كارهون ، وحرصوا على تخريب المدينة حتى لا يستفيد منها أعداؤهم « حتى كسروا خوابى الخل والزيت » (٢٠) .

---

(١٧) الطبرى مصدر سبق جـ٦ ص ٤٦٩ ، ابن الأثير مصدر سبق جـ٤ ص ١٢٩ .

(١٨) اليعقوبى مصدر سبق جـ٢ ص ٣٠٠ ، الطبرى مصدر سبق جـ٦ ص ٥٤٥ .

(١٩) البلاذرى مصدر سبق ص ١٨٩ ابن الاثير مصدر سبق جـ ٤ ص ١٥٩ ، ص ١٦٠

(٢٠) البلاذرى المصدر السابق ص ١٩٠ ، ابن الاثير المصدر السابق

العمــارة الثانية :

بعد أن انتقل المسلمون من طرندة إلى ملطية حرص الخليفة عمر بن عبد العزيز على تنظيم الأمور فى المدينة فعين لهــا واليا هو « جعونة بن الحارث » أحد بنى عامر بن صعصعة (٢١) واستأنفت ملطية نشاطها الحربى كمركز للدفاع عن الحـدود الإسلامية ، ومنطلق للهجوم على الأراضى البيزنطية ، فغــزا منهــا معــاوية بن هشــــام الصـــائفة سنة ١١٢ هـ ، فافتتح خرشـــنة وحرق فرندية (٢٢) ، وفى ســـنة ١٢١ هـ بلغ مسلمة بن هشام ملطية لغزو الروم ، كما غزا مسلمة ابن هشام الروم من ناحية ملطية فى العــام التالى ســنة ١٢٢ هـ (٢٣) .

وهكذا كانت المدينة منذ عهد عمر بن عبد العزيز تؤدى مهمتها الثغرية على خير ما يكون الأداء ، وعلى حسب المتــاح لها من ناحية الجند ، ومن ناحية تحصين المدينة ذاتها وكفاية مبانيها ، ويبدو أن المدينة فى هذه الفترة كانت تعانى نقصا من ناحية قواتها المدافعة والمهاجمة ، وكان الواجب أن يتوفر لها عدد كاف منهم .

---

(٢١) البلاذرى المصدر السابق .
(٢٢) الطبرى مصدر سبق جـ٧ ص ٧٠ .
(٢٣) اليعقوبى مصدر سبق جـ٢ ص ٣٢٩ .

جهاد المرأة فى ملطية :

ذكرت المصادر أن الروم عندما هاجموا المدينة سنة ١٢٣ هـ ، أغلق أهلها أبوابها ، وظهرت النساء على السور عليهن العمائم فقاتلن (٢٤)

وهذه الحادثة شهادة طيبة بوعى المرأة المسلمة فى ملطية وجرأتها وتصديها لتحمل المسئولية وتضحيتها ، وتسجل فى نفس الوقت عدم كفاية المدينة من الجنود المحاربين ولعل قواتها الرئيسية كانت فى مهمة عسكرية خارج المدينة عند هجوم الروم عليها .

وقد استنجد أهل المدينة بالخليفة هشام بن عبد الملك ، فدعا الناس إلى الخروج إليها والإنضمام الى مجاهديها ، ثم أتى الخبر برحيل الروم عنها (٢٥) ، وهذا الرحيل بسبب بسالة المقاومة الإسلامية التى تحمل العبء الأكبر منها هؤلاء النسوة من سكان المدينة ، وحصانة المدينة ، وقد يكون سببه ما بلغهم من ندب الخليفة الناس للخروج إلى ملطية لحمايتها والدفاع عنها .

---

(٢٤) البلاذرى مصدر سبق ص ١٩٠ .
(٢٥ المصدر السابق .

وعلى كل حال فقد لمت هجوم الروم نظر الخليفة إلى ضرورة الإهتمام بهذه المدينة « الاستراتيجية » وتدعيمها عسكريا ، فبعث مع الرسول الذى جاء يستنجد به خيلا لترابط فى المدينة ورأى أن يزيد فى تحصيناتها ومبانيها ، وذهب لتحقيق ذلك بنفسه ، ونزل بجنده وعسكر فيها حتى تم بناء ما يلزمها (٢٦) .

وأصبحت المدينة أكثر كفاءة للقيام بمهمتها فى صيانة الحدود الإسلامية ، والهجوم على البلاد البيزنطية ، وأزعج ذلك البيزنطيين وآذاهم . ولذلك عندما واتتهم الفرصة اتجهوا للهجوم عليها وتخريبها ، وكانت هذه الفرصة هى الفتن والاضطرابات والحروب التى صاحبت سقوط دولة بنى أمية وقيام دولة بنى العباس سنة ١٣٢ هـ ، وانشغال الدولة الجديدة بتثبيت أركانها وتدعيم قوتها ، وأقبل الامبراطور البيزنطى « قسطنطين الخامس » (٧٤٠ - ٧٧٥ م / ١٢٢ - ١٥٨ هـ) بنفسه إلى ملطية ، وعرج على « كمخ » قبل مجيئه إلى ملطية ، وكانت بيد المسلمين ، وواليها أحد بنى سليم ، فبعث أهل كمخ إلى أهل ملطية يستنجدون بهم فبعثوا إليهم بثمانمائة مقاتل (٢٧) وهذا يدل على تعاون مدن الثغور ضد العدو المشترك إنطلاقا من مبادىء الإسلام الداعية الى تعاون المؤمنين جميعا فى السراء والضراء ، ونصرة الأخوة فى الدين ، كما يدل على شعور أهل ملطية بأنهم يتحملون

---

(٢٦) المصدر السابق .

(٢٧) المصدر السابق ، ابن الاثير مصدر سبق جـ٤ ص ٣٤١ .

مسئولية أدبية تجاه الثغور عامة وثغور الجزيرة خاصة فى هذه الفترة المبكرة من تاريخ المدينة ، كما نلمس كذلك روح الإيثار والتضحية ، ففى الوقت الذى أدرك فيه أهل ملطية أن الدائرة سوف تدور عليهم ، وأن الروم — لا محالة — سوف يقصدون بلدهم لم يبخلوا على اخوانهم أهل كمخ بالمساعدة .

وهذا العدد القليل من جند ملطية لم يتمكن من الانتصار على الروم ، الذين كانت أعدادهم — بلا شك — تفوق هذا العدد أضعافا مضاعفة ، فقد كان على رأس هذا الجيش الامبراطور نفسه ، ويبدو أن اتجاه قسطنطين الخامس إلى كمخ قبل ملطية وهى أقل منها شأنا كان وفق خطة وضعها لإلقاء الرعب فى قلوب أهل ملطية وإضعاف عزائمهم، ثم ضرب الحصار حول ملطية ، وحاول أهلها الاستنجاد بأهل الجزرة ، وكان واليها موسى بن كعب التميمى . فلم يمكنه إغاثتهم (٢٨) وفى رواية اليعقوبى أنه زحف للقاء ملك الروم ولكن لم يكن بينهما لقاء (٢٩) .

وأراد قسطنطين الخامس أن يكمل مخططه فى التأثير النفسى السيىء على أهل المدينة فأرسل اليهم : « يا أهل ملطية إنى لم آتكم إلا على علم بأمركم ، وتشاغل سلطانكم

---

(٢٨) المصدران السابقان .
(٢٩) جـ٢ ص ٣٦٢ .

عنكم ، وطلب منهم الخروج من المدينة ، وضمن لهم الأمان ، وأوضح لهم أن هدفه هو تخريب هذه المدينة ثم تركهـــــا بعد ذلك (٣٠) .

وفشلت خطة قسطنطين الخامس ، وأبى اهل ملطيـــة الخروج منها بالرغم من الظروف الســـيئة التى كانت تلم بالدولة الإسلامية واظهروا بذلك شجاعتهم وعنادهم وقــوة إيمانهم ، وثقتهم بأنفسهم ، وحينئذ لجأ قســـطنطين إلى استخدام القوة المسلحة ووسائل التدمير ، فنصب المجـانيق وأحكم حصار المدينة ، حتى اعيا اهل ملطية الصبر واجهدهم شدة البلاء ، ولم يجدوا مناصا من التسليم ، واشترطوا على ملك الروم أن يوفر لهم الأمان حتى يخرجوا من المدينــــة ، وتجهزوا للخروج منها ، وحرصـــوا على أن يحملوا معهـــم ما يمكنهم حمله ، وما عجزوا عن حمله ألقـــوه فى الآبار والمخابىء (٣١) ، حتى لا ينتفع بها الروم ، واملا فى العـودة إلى المدينة بعد ذلك ،فيمكنهم إخراجه والانتفاع به .

وذهب أهل ملطية إلى الجزيرة فتفرقوا فيها ، وهدم الروم المدينة هدما كاملا حسب رواية البلازرى ــ ولم يبق منها « إلا هريا شعث منه الروم شيئا يسيرا » (٣٢) .

---

(٣٠) البلاذرى مصدر سبق ص ١٩٠ ، ابن الاثير مصدر سبق جـ٤ ص ٣٤١ .
(٣١) المصدران السابقان ؛
(٣٢) ص ١٩١ .
(٣٣) البلاذرى ص ١٩٠ ، ابن الاثير مصدر سبق جـ٤ ص ٣٤١ .

كما هدموا أيضا حصن قلوذية ، ثم رحلوا عنها عائدين إلى بلادهم .

ورواية اليعقوبى لا تشير الى هدم الروم للمدينـــه ، وإنما تبين أن قسطنطين حاصر المدينة ، ثم « صوابح عنها »(٣٤) ولعل مما يؤكد الرواية الأخيرة ، وأن المدينـــة بقيت بدون تخريب ، ما أوردته المصادر من قدوم قسطنطين الخامس بعد خمس سنوات مرة أخرى الى المدينة وذلك ســـنة ١٢٨ هـ ، فدخلها عنوة وهدم سورها ، وعفا عمن فيها من المقـــبـــاتلة والذرية (٣٥) ، إلا إذا افترضنا أن المدينة عمرت خلال خمس السنوات هذه ـ وهو ما لم تشر إليه المصادر ـ وإذا افترضنا ذلك فيستبعد أن تكون الدولة العباسية هى التى تولت بناء المدينة وتعميرها فى هذه الفترة ، نظرا لاشتغالهـــا بتثبيت نفوذها ، وتوطيد دعائمها ، ومن الجائز أن مجهودات جمهـــور المسلمين الخاصة هى التى كانت وراء ذلك .

وسواء صحت هذه الافتراضات أم لم تصح ، فقد كانت المدينة عندما تولى أبو جعفر المنصور الخلافة (١٣٦ ـ ١٥٨هـ/ ٧٥٤ ـ ٧٧٥ م) فى وضع يستلزم بناءها أو استكمال بنائها ، وتحصينها أو زيادة هذا التحصين .

---

(٣٤) جـ٢ ص ٣٦٢ .

(٣٥) الطبرى مصدر سبق جـ٧ ص ٤٩٧ ، ابن الاثير مصدر سبق جـ٤ ص ٣٥٩ ، ابن كثير : أبو الفداء اسماعيل بن عمر . البداية والنهاية جـ١٠ ص ٧٣ الطبعة الاولى دار الفكر العربى القاهرة ١٣٥١ هـ ـ ١٩٣٢م .

العمارة الثالثة :

بعث أبو جعفر المنصور سنة ١٣٩ هـ إلى ملطية صالح ابن علي والعباس بن محمد ليقوما بمهمة بناء المدينة ، فمكثا بها حتى استتما بناءها (٣٦) ، وغزا هذا العام من درب ملطية جعفر بن حنظلة البهراني (٣٧) .

ويبدو أن المدينة بعد بنائها سنة ١٣٩ هـ لم تكن على المستوى الذي أراده لها الخليفة المنصور ، فقد أرادها مدينة قوية تتناسب مع قوة الدولة الجديدة وفتوتها ، وأرادها قلعة حصينة في وجه من تسول له نفسه مهاجمة الحدود الاسلامية كما أرادها مركزا عسكريا قويا ينطلق منها المجاهدون لغزو بلاد الروم ، ولذلك بعث في العام التالي عبد الوهاب بن اخيه ابراهيم الإمام إلى المدينة ، وجعله واليا على الجزيرة وثغورها ، وبعث معه القائد العظيم الحسن بن قحطبة في سبعين ألفا من جنود خراسان ، وأمرهما ببناء المدينة (٣٨) .

وقبل الحديث عن بناء المدينة للمرة الثالثة ، نوضح ان

---

(٣٦) الطبرى المصدر السابق جـ٧ ص ٥٠٠ ، ابن الاثير المصدر السابق ، ابن كثير مصدر سبق جـ ١٠ ص ٧٤ .

(٣٧) ابن الاثير المصدر السابق .

(٣٨) المصدر السابق جـ٤ ص ٣٦٥ .

الروم أدركوا الخطر الذى تمثله هذه المدينة على حدود بلادهم وأمنها لو تم بناؤها وتحصينها ــ كما رغب الخليفة المنصور ــ ولذلك نهض قسطنطين الخامس سنة ١٤٠ هـ عندما بلغه عزم المسلمين على بنائها ، وعزم على الحيلولة دون تحقيق هذه الغاية ، وكان قسطنطين أكثر من غيره إدراكا «لاستراتيجية» هذه المدينة ، فقد باشر بنفسه الهجوم عليها قبل ذلك ، وعرف ما تتمتع به من أهمية ، وقد أعد جيشا كبيرا عدته أكثر من مائة الف فنزل «« جيحان » فى طريقه إلى ملطية ، ولكن بلغه كثرة المسلمين فتراجع عن مهاجمتهم(٣٩) والحقيقة أن جيش المسلمين كان أقل بكثير عن جيش البيزنطيين ، كما ذكرت بعض المصادر (٤٠) فلعل المسلمين ــ فى هذه الفترة نجحوا فى اتخاذ عملاء لهم عند الروم يذيعون فيهم الأخبار التى تثبط عزائمهم وتبث الرعب فى قلوبهم ، وأيما كان الأمر فهى إرادة الله تعالى أن يتم بناء المدينة لتؤدى مهمتها فى جهاد الروم .

وبدأ الحسن بن قحطبة مهمة بناء المدينة فجمع الفعلة وعمال البناء ، وسخر العدد الكبير من جنده فى المساعدة فى عملية البناء ، وضرب من نفسه المثل أمامهم فكان يحمل الحجر ويناوله البناء ، وتنافس الوالى عبد الوهاب ابن ابراهيم الإمام مع الحسن قحطبه فى تشجيع المشاركين فى عملية البناء بإطعامهم وإكرامهم ، رغبة فى بقاء الهمة

---

(٣٩) البلاذرى مصدر سبق ص ١٩١ ، ص ١٩٢ ، ابن الاثير المصدر السابق .

(٤٠) المصدران السابقان .

والنشاط فى أعلى درجاتها حتى يتم البناء فى أسرع وقت ممكن ، ولذا فرغ المسلمون من بناء ملطية ومسجدها فى ستة أشهر (٤١) ٠

وقد أعطانا البلاذى صورة لمبانى المدينة ، فبين ان منازلها كانت تتكون من طابقين ويتكون كل منزل من غرفتين فى الطابق الأرضى وفوقهما غرفتان فى الطابق الثانى ويلحق بكل منزل اصطبل ، ويسكن كل منزل عرافة ، والعرافة عشرة نفر إلى خمسة عشر ٠

وذكر البلاذى اهتمام العباسيين بتحصين المدينة ، فبنوا لها مسلحة على بعد ثلاثين ميلا منها ، ومسلحة على نهر يدعى « قباقب » أحد روافد نهر الفرات ، كما بنوا حصن قلوذيه ، وزودوا المدينة بما تحتاج اليه من السلاح والذخائر ، وأكثروا من ذلك (٤٢) ٠

(٤١) البلاذرى المصدر السابق ص ١٩١ ، ابن الاثير المصدر السابق ٠
(٤٢) المصدر السابق ٠

تعمـــير المدينـــــة :

حرص العباسيون على تعمير المدينة ، وجذب المقاتلين والجنود إلى سكناها واستعانوا على ذلك بشتى المغـريات المادية من زيادة العطاء والمنح المالية ، وإقطاع الجند المزارع وقد أسكن المنصور أربعة الاف مقاتل من أهل الجـــزيرة ملطية ، وزاد فى عطائهم عشرة دنانير بالإضافة إلى مائـــة دينار معـونة ، سـوى الجعـل « الذى تتجـاعله القبـائل بينها »(٤٣) وحرصت الدولة العباسية على توفير الأمــان لأهلها ، وقطع أمل الروم فى الاستيلاء عليها ، فأنفذت اليها فى سنة ١٤١ هـ محمد بن ابراهيم فى جند من أهل خراسان ، وعلى شرطته المسيب بن زهير للرباط فيها (٤٤) .

لذلك عاد الى المدينة من كان قد تفرق من أهلها فى أنحاء الجزيرة بعد تخريب الروم لها قبل ذلك (٤٥) ، ومما زاد فى عمرانها أن المدينة باعتبارها ثغرا من ثغور المسلمين الهامة ورباطا لهم ، كانت مقصد الراغبين فى الجهاد والمرابطـــة فى سبيل الله تعالى ، كما أنفق المحسنون على الثغـــور . وأوقفوا عليها ، إعانة لأهلها ، وتشجيعا لهم على مواصلة الجهاد والمرابطة والاقامة فى المدينة ، وكانت ملطية ، وغيرها

---

(٤٣) المصدر السابق .

(٤٤) البلاذرى المصدر السابق ص ١٩٢ ، الطبرى المصدر سبق جـ٧ ص ٥١٠ ، ابن كثير مصدر سبق جـ١٠ ص ٧٧ .

من الثغور – بالاضافة الى ما تقدم – مكانا ينفى اليه المغضوب عليهم من العسكريين ، كما حدث لوصيف التركى . عندما بعث به الخليفة المنتصر الى الثغور سنة ٢٤٨ هـ (٤٦)، كما كانت الثغور ملجأ من لم يحالفهم الحظ فى مجال السياسة وفرض النفوذ ، أو خافوا انتقام من هو أعلى سلطة، كما كان من مؤنس الخادم سنة ٣١٥ هـ ، عندما بلغه عزم أم الخليفة المقتدر (٢٩٥ – ٣٢٠ هـ / ٩٠٨ – ٩٣٢ م) على قتله ، حيث طلب الإذن بالخروج الى الثغور ، وأجيب طلبه (٤٧) .

---

(٤٥) البلاذرى المصدر السابق ؛ ابن الاثير مصدر سبق جـ٤ ص ٣٦٥ .

(٤٦) الطبرى مصدر سبق جـ٩ ص ٢٤٣ ، ابن الاثير المصدر السابق جـ٦ ص ٣٠٧ .

(٤٧) القرطبى : غريب بن سعد صلة تاريخ الطبرى جـ١١ من تاريخ الطبرى ص ١١٥ دار المعارف القاهرة ١٩٧٧ م ، الهمدانى : محمد بن عبد الملك تكملة تاريخ الطبرى جـ ١١ من تاريخ الطبرى ص ٢٥٤ دار المعارف القاهرة ١٩٧٧ م .

دور ملطية في جهاد الروم

العوامل التى أعانتها على أداء هذا الدور :

كان دور ملطية فى جهاد الروم دورا كبيرا سواء فى الدفاع أو الهجوم ، وقد أعانها على ذلك :

أولا : الموقع المتميز فى إقليم الجزيرة ، وقربها من الروم، ووقوعها عند أحد الممرات المؤدية من إقليم الجزيرة الى اراضى الدولة البيزنطية (٤٨) ٠

ثانيا : القادة الأكفاء الذين قادوا الجيوش منها لغزو بلاد الروم ، وفى مقدمة هؤلاء القادة ، عمر بن عبد الله الأقطع الذى برز اسمه سنة ٢٠٦ هـ / ٧٢٧ - ٨١٨ م عندما تمكن من هزيمة القائد البيزنطى « تيوكتستوس »(٤٩) ، ورفع اسم مدينة ملطية عاليا ، بسبب غزواته التى توغل فيها الى عمق الأراضى البيزنطية ، واقترن اسم المدينة باسمه وكان من أسباب لفت أنظار البيزنطيين الى أهمية هذه

---

(٤٨) ابن حوقل ٠ مصدر سبق جـ١ ص ٢٠٨ ٠

(٤٩) د ٠ سلمان مرجع تقدم ص ٤٠ ٠ نقلا عن Symeon Mngistor; Annales. p. 654 .

المدينة ، وقد استشهد هذا القائد فى إحدى غزواته الفدائية داخل بلاد الروم سنة ٢٤٩ هـ / ٨٦٣ م (٥٠) .

وقد وصف الطبرى عمر بن عبد الله الأقطع وعلى بن يحيى الأرمنى الذى تولى إمرة طرسوس واستشهد هو الآخر بعده بقليل فقال : « كانا نابين من أنياب المسلمين شديد بأسهما ، عظيما غناؤهما عنهم فى الثغور التى هما بها »(٥١).

وقال المسعودى عنهما : « إنهما كانا من أهل الباس والنجدة والمكايد في النصرانية » حتى إن الروم صوروا في كنائسهم عشرة من كبار قواد المسلمين من بينهم عمر بن عبد الله الأقطع ، وعلى بن يحيى الأرمنى » (٥٢) .

ومن القواد العظام الذين قادوا الجيوش منها الى بلاد الروم ، مؤنس الخادم الذى لقب بالمظفر لشجاعته وانتصاره فى المعارك التى خاضها وقد قام بقيادة بعض الطوائف من هذه المدينة ، ولو قدر له أن يتفرغ للجهاد من هذا الثغر لتحققت نتائج طيبة للدولة الاسلامية ولكنه شغل بالمؤامرات

---

(٥٠) اليعقوبى مصدر سبق ج٢ ص ٥٠١ ، الطبرى مصدر سبق ج٩ ص ٢٦١ .

(٥١) الطبرى مصدر سبق ج٩ ص ٢٦٣ .

(٥٢) مروج الذهب ومعادن الجوهر ج٢ ص ٤٥١ المطبعة البهية القاهرة ١٣٤٦ هـ .

والفتن فى عاصمة الخلافة وانتهى الامر بمقتله سنة ٣٢١ هـ (٥٣) .

ومن القواد الذين أدوا دورا مشكورا لهذه المدينه ، القائد سعيد بن حمدان حاكم ديار ربيعة والموصل ، الذى كان له فضل كبير فى تخليص المدينة من سيطرة الروم سنه ٣١٦ هـ ، فقد سار اليها بجيشه وعندما علم الروم بذلك هربوا من المدينه فدخلها ثم استخلف عليها أميرا وخرج منها ، وغزا بلاد الروم (٥٤) .

ثالثا : تعاون الثغور الأخرى معها ، ووقوفها بجانبها عند الشدائد ، كما كانت ملطية تفعل ذلك أيضا معهم ، ومن الأمثلة على ذلك ما حدث سنة ٢٢٣ هـ عندما هاجم الامبراطور « ثيوفيل » (٨٢٩ — ٨٤٢ م / ٢١٤ — ٢٢٧ هـ) ملطية وزبطرة ، فقد نهض أهل الثغور الأخرى فى الجزيرة والشام أنجدة إخوانهم ، ولم يتخلف عن نجدتهم « إلا من لم يكن لديه دابة أو سلاح »(٥٥) .

وعندما تقدم الامبراطور « باسيل الأول » (٨٦٧ — ٨٨٦ م

---

(٥٣) ابن الاثير مصدر سبق جـ٦ ص ٢٢٤ — ص ٢٢٩ ، ابن كثير مصدر سبق جـ١١ ص ١٧٣ .

(٥٤) ابن الأثير المصدر السابق جـ٦ ص ٢١٧ ، ابن كثير المصدر السابق جـ١١ ص ١٦٧ .

(٥٥) ابن الاثير جـ٥ ص ٢٤٧ .

٢٥٣ - ٢٧٣ هـ) الى ملطية لفتحها سنة ٢٦٨ هـ / ٨٨١ م ؛ تعاون المجاهدون في ثغري الحدث ومرعش مع المجاهدين في ملطية ، ونجحوا في صد الامبراطور وهزيمته (٥٦) .

رابعا : موقف الخلافة العباسية المساند لها باعتبارها مدينة ثغرية تابعة لها تحمي منطقة الجزيرة بل والعــراق الذي تقع فيه عاصمة الخلافة ، وإذا كانت الخلافة - وبخاصة في فترات قوتها - تساند الثغور كلها إلا أنها كما تشـــير المصادر كانت تولى ملطية مزيدا من العناية والاهتمام ، وقد يكون ذلك - بالاضافة الى ما المحنا اليه من حمايتها لمنطقة الجزيرة والعراق - لأن كثافة الجند بها ومواردها الماليـــة اقل من مدينة طرسوس الثغر الأول بين ثغور الشام ، ولذلك لم تنل طرسوس ما نالته ملطية من الرعاية .

وقد دأبت الخلافة العباســية طـوال تاريخ المدينـــة تقريبا على إرسال الجيوش اليها لتخرج لغزو الصائفة منها ، بجانب قوات المدينة الدائمة ، وكانت تحرص على أن يتــولى قيادة هذه الصوائف خيرة قوادها ، وقد رابط في هذه المدينة بعد بنائها محمد بن ابراهيم الإمام سنة ١٤١ هـ (٥٧) ومن أمثلة حرص الخلافة على قيام ثغر ملطية بواجبه في الجهاد والإفادة من موقعها الهام ، أنها أرسلت العباس بن المأمون

---

(٥٦) الطبري مصدر سبق جـ٩ ص ٦١٢ .

(٥٧) المصدر السابق جـ٧ ص ٥١٠ ، وابن كثير مصدر سبق جـ١٠ ص ٧٧ .

الى ملطية سنة ٢١٥ هـ ليغزو الروم (٥٨) ، ووجه الخليفة المنتصر وصيفا التركى الى ملطية لغزو الروم سنة ٢٤٨ هـ (٥٩) وبعث الخليفة المستعين (٢٤٨ - ٢٥٢ هـ ٨٦٢ - ٨٦٦ م) جعفرا الخياط - من كبار قادة الدولة العسكريين - لغزو الصائفة من ملطية سنة ٢٤٨ هـ ، وضم اليه أمير المدينة عمر بن عبد الله الأقطع (٦٠) .

ووجه الخليفة المعتز (٢٥٢ - ٢٥٥ هـ - ٨٦٦ - ٨٦٩ م) مزاحم بن خاقان إلى ملطية لحرب الروم الذين أغاروا على المدينة عدة مرات (٦١) ، وفى سنة ٢٩٦ هـ وجهت الخلافة العباسية جيشا كثيفا لغزو الروم ، وعلى رأسه القائد البارع مؤنس الخادم . وكان يرافقه القائد أبو الأغر السلمى ، ونجحت هذه الغزوة وعادوا بعدد من اسرى الروم (٦٢) .

هذا ولم تنقطع عناية الخلافة بملطية ، واهتمامها بأمر

---

(٥٨) الطبرى المصدر السابق جـ ٨ ص ٦٢٣ ، ابن الاثير مصدر سبق جـ٥ ص ٢١٩ .

(٥٩) الطبرى المصدر السابق جـ٩ ص ٢٤٣ ، ابن الاثير المصدر السابق جـ٥ ص ٣٠٧ ، ص ٣٠٩ .

(٦٠) اليعقوبى مصدر سبق جـ٢ ص ٤٩٦ ، الطبرى المصدر السابق جـ٩ ص ٢٤٣ .

(٦١) اليعقوبى المصدر السابق جـ ٢ ص ٥٠١ .

(٦٢) الطبرى مصدر سبق جـ ١٠ ص ١٤٣ ، ابن الاثير مصدر سبق جـ ٦ ص ١٣٥

الغزو منها إلا بعد اشتداد خطر القرامطة (٦٣) حوالى سنة ٣١٢ هـ وامتداد هذا الخطر إلى سنة ٣١٩ هـ ، وقد سقطت المدينة فى أيدى الروم فى أواخر هذه المدة ، وحرصت الخلافة العباسية بعد أن خف خطر القرامطة على إعادة ملطية ، ووكلت بهذه المهمة إلى سعيد بن حمدان وولته الموصل وديار ربيعة شريطة تنفيذ هذه المهمة بغزو الروم (٦٤) ، اما الفترة الباقية من تاريخ المدينة وحتى سقوطها فى أيدى الروم سنة ٣٢١ هـ ، فقد انشغلت الخلافة عنها بما كان من مؤامرات القادة العسكريين وما أثاروه من فتن .

خامسا : مما أعان ملطية على أداء دورها فى الجهاد أن الثغور منذ نهاية العصر العباسى الأول كانت قد استكملت بناء وإعدادا وتسليحا ، وأصبحت مؤهلة للقيام بهذا الدور بالإضافة إلى النظام الذى وضعه الخليفة هارون الرشيد لهذه الثغور ، وهو يتيح لولاتها قدرا من الاستقلال وحرية التصرف فى مواجهة المواقف المختلفة (٦٥) .

---

(٦٣) القرامطة نسبة الى قرمط بن الاشعث ، وهى من الحركات التى تظاهرت بالاصلاح الاجتماعى ، واتخذت من الدين ستارا لتحقيق أغراضها فى السيطرة واصطبغت بصبغة شيعية ، وقد ارتكب القرامطة الاعمال الاجرامية ، وروعوا الآمنين ، وكان أول ظهورها بالكوفة ثم صارت البحرين مركزا نشطا لدعوتهم وقد ضعفت هذه الدعوة وتلاشى أثرها فى أواخر القرن الرابع الهجرى . انظر القرطبى : مصدر سبق جـ ١١ من تاريخ الطبرى ص ٩٧ وما بعدها ، الهمذانى مصدر سبق جـ ١١ من تاريخ الطبرى ص ٢٤٢ وما بعدها .

(٦٤) ابن الاثير المصدر السابق جـ ٦ ص ٢١٦

(٦٥) محمود : د . حسن أحمد و د . أحمد الشريف العالم الاسلامى فى العصر العباسى ص ١٦٩ الطبعة الخامسة دار الفكر العربى القاهرة بدون تاريخ .

سادسا : معاونة طائفة البيالصة (٦٦) .فى فترة من فترات تاريخ المدينة ، فقد كان لهذه الطائفة دور كبير فى مساعدة المسلمين فى الثغور عامة ، وفى ملطية على وجه الخصوص ، نظرا للقرب المكانى ، حيث اتخذت هذه الطائفة المسيحية من « تفريك » على حدود أرمينية مركزا لها وناصبت الدولة البيزنطية العداء ، واشتركت مع المسلمين فى غزو الأراضى البيزنطية (٦٧) ، ولما هاجمت القوات البيزنطية الثغور الجزرية سنة ٢٤٢ هـ / ٨٥٦ م اشترك زعيم البيالصة « قريباس » مع أمير ملطية عمر بن عبد الله الأقطع فى الرد على هذا الهجوم ، وبادر البيزنطيون بالهرب (٦٨) ، وعندما أراد الامبراطور ميخائيل الثالث (٢٢٧ ـ ٢٥٣ هـ / ٨٤٢ ـ ٨٦٧ م) أن يثأر لهزيمته القاسية فى سميساط عام ٢٤٥ هـ/ ٨٥٩ م (٦٩) خطط للزحف فى العام التالى على ملطية وتفريك عاصمة البيالصة ، وما إن تحرك بجيشه سنة ٢٤٦ هـ / ٨٦٠م حتى علم باقتراب الخطر الروسى من عاصمة بلاده ، فأرجأ الخطة (٧٠) ، وانتهز المسلمون وحلفاؤهم من البيالصة

---

(٦٦) البيالصة أتباع مذهب بولس الشمشاطى الذى يقول بأن المسيح انسان فقط وأن الله تعالى تبناه ـ تعالى الله عن ذلك ـ وهو مذهب يتعارض مع المذهب الارثوذكسى الذى تسير عليه الدولة البيزنطية ، ولذلك اضطهدت أصحاب هذا المذهب وعملت على تصفيتهم . د . سليمان مرجع سبق جـ ١ ص ٤١ ، ص ٤٢ .

(٦٧) المرجع السابق .

(٦٨) الطبرى مصدر سبق جـ ٩ ص ٢٠٧ .

(٦٩) د . سليمان مرجع سبق جـ ١ ص ٤٤ نقلا عن :
Theophans. Cotinuas, pp. 177. Born -1838 .

(٧٠) د . سليمان مرجع سبق جـ ١ ص ٤٤ نقلا عن :
Obolensky' D.' The Byzantine Commonwealth Eastern Europe' 500 - 14:3 pp 182 - 183 .

ذلك ، واشترك « قريباس » زعيم البيالصة مع عمر بن عبد الله الأقطع أمير ملطية وعلى بن يحيى الأرمنى أمير طرسوس ، وقائد ثالث هو « بلكاجور » فى غزو الأراضى البيزنطية سنة ٢٤٦ هـ / ٨٦٠ م (٧١) وظل التعاون قائما بين البيالصة وملطية وسائر الثغور الإسلامية حتى ادرك أباطرة الروم ضرورة القضاء على هذه الطائفة وحرمان المسلمين من معونتهم ليتيسر لهم هزيمة المسلمين وإسقاط ملطية وغيرها من الثغور ، وتمكن باسيل الأول من تحقيق ذلك سنة ٢٥٩ هـ / ٨٧٢ م (٧٢) .

دورها فى الجهاد :

وقد تأثر هذا الدور بالحالة التى كانت عليها الدولة العباسية قوة وضعفا ، كما أثر عليه كذلك الوضع فى الدولة البيزنطية ، كما ستشرح الأحداث التالية ذلك ، ويمكن تقسيم هذا الدور إلى ثلاث فترات :

الأولى من سنة ١٤٠ هـ - ٢٣٢ هـ (٧٥٧ - ٨٤٦ م)

---

(٧١) المرجع السابق ص ٤٥ .

(٧٢) عاشور : د . سعيد عبد الفتاح أوربا العصور الوسطى ص٣٨٤ الطبعة الاولى مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٩٥٨ م ، د . سليمان المرجع السابق جـ ١ ص ٤٩ نقلا عن :
Cambridge Medieval History' Vol . Iv' P1. PP119 - 120 .

الثانية من سنة ٢٣٢ هـ — ٣١٢ هـ (٨٤٦ — ٩٢٤ م)

الثالثة من سنة ٣١٢ هـ — ٣٢٢ هـ (٩٢٤ — ٩٣٤ م)

الفترة الأولى من سنة ١٤٠ هـ — ٢٣٢ هـ (٨٥٨ — ٨٤٦ م)

وكان ميزان القوى بين الجانبين البيزنطى والإسلامى يميل ناحية المسلمين ، فقد أحرز المسلمون انتصارات رائعة على البيزنطيين ، واضطر بعض أباطرة بيزنطة إلى طلب الصلح والتعهد بدفع الجزية ، كما فعلت الإمبراطورة إيرين (١٨٠ — ١٨٦ هـ / ٧٩٧ — ٨٠٢ م) والامبراطور نقفور (١٨٦ — ١٩٥ هـ / ٨٠٢ — ٨١١ م) (٧٣) ، ثم تعرض الجانبان منذ عهد المأمون وحتى نهاية العصر العباسى الاول لفتن داخلية وإخطار خارجية أثرت على ميزان القوى بينهما ، ففى الجانب الإسلامى كانت ثورات العلويين فى الكوفة واليمن ومكة فى عهد المأمون (٧٤) (١٩٨ — ٢١٨ هـ / ٧١٣ — ٨٣٣ م) ، وثورة بابك الخرمى سنة ٢٠١ هـ ولم يتم إخمادها إلا فى عهد الخليفة المعتصم (٢١٨ — ٢٢٧ هـ / ٨٣٣ — ٨٤٢ م) وذلك سنة ٢٢٢ هـ ، وثورة القبائل العربية حول المدينة وفى فدك ، وثورة الخوارج فى ديار ربيعة ، والأكراد فى مناطق أصبهان والجبال وفارس (٧٥) .

---

(٧٣) الطبرى جـ ٨ ص ١٥٢ ، ص ١٥٣ ، ص ٣٠٧ ، ص ٣٠٨

(٧٤) المصدر السابق جـ ٨ ص ٥٢٨ ، وما بعدها .

(٧٥) المصدر السابق جـ ٨ ص ١٢٩٠ وما بعدها .

أما الجانب البيزنطي فقد تمثلت الفتن الداخلية في الناحية الدينية حول الأيقونية (٧٦) ، وكانت أكبر الثورات الداخلية تلك الثورة التي قام بها « توماس السلافي » ورفع فيها شعار الحزب الأيقوني ، وتمكن من حصار القسطنطينية وكاد أن يستولي عليها لولا نجاح الامبراطور ميخائيل العموري في صده وهزيمته ، وكان لهذه الثورة آثارها الخطيرة على الأوضاع في الامبراطورية البيزنطية (٧٧) .

وكانت مشاكل الدولة البيزنطية الخارجية تتمثل في البلغار الذين هاجموا بعض جهات الدولة ، واضطر الامبراطور نقفور إلى النزول بنفسه الى ميدان القتال معهم ولكنه قتل في حروبه معهم سنة ٨١١ م / ١٩٦ هـ ، أما الامبراطور ليو الأرمني (١٩٨ — ٢٠٥ هـ / ٨١٣ — ٨٢٠ م) فقد أنزل بهم هزيمة ساحقة سنة ٨١٤ م / ١٩٩ هـ واضطروا إلى طلب الصلح (٧٨) كما تمثلت المشاكل الخارجية في الصرب الذين هاجموا إقليم دالماشيا واستيلاء المسلمين على كريت سنة ٢١٢ هـ / ٨٢٧ م وبدء فتح صقلية منذ سنة ٢١٤هـ/ ٨٢٩ م (٧٩) .

---

(٧٦) الايقونية تقديس الصور والتماثيل المتعلقة بالدين ورجاله وعبادتها . هسي : ج . م العالم البيزنطي ص ١٣٢ — ص ١٣٩ ترجمة د. رافت عبد الحميد الطبعة الثانية دار المعارف القاهرة ١٩٨٢ م ، يوسف : د . جوزيف نسيم تاريخ الدولة البيزنطية ص ١٢٣ وما بعدها الاسكندرية ١٩٨٨ م .

(٧٧) د . يوسف : المرجع السابق .

(٧٨) د . عاشور مرجع تقدم ذكره ص ٣٧٦ — ص ٣٧٨ .

وبالرغم من هذه المشـــاكل فإن المواجهــات العسكرية لم تتوقف بين الجانبين ، وفى سنة ٢١٥ هـ / ٨٣٠ م قام العباس بن المأمون يغزو بلاد الروم انطلاقا من ملطية (٨٠) . وقام الامبراطور « ثيوفيل » بهجوم على مدينتى ملطيـــــة وزبطرة سنة ٢٢٢ هـ / ٨٢٧ م بتحريض من بابك الخـــرمى الثائر على الخلافة العباسية ، وكان الامبراطور يشجع على هذه الثورة كما كان المأمون يشجع الثـــائر البيزنطى « توماس الصقلبى » ، وقد سبى « ثيوفل » فى غارته هـــذه أكثر من ألف امرأة مســـلمة ، ومثل بمن صار فى يده من المسلمين (٨١) وقد هب أهل الثغور الأخرى لنجدة زبطـــرة وملطية ، ورد المعتصم على ذلك بفتح عمورية فى قلب إقليـــم فريجيا بآسيا الصغرى سنة ٢٢٣ هـ / ٨٣٧ - ٨٣٨ م وهى أشرف مدينة عند البيزنطيين بعد القسطنطينية (٨٢) .

وتوالت الهزائم على البيزنطيين فى نهاية هذه الفتـرة على الجبهة الإسلامية ومن ذلك هزيمة قائدهم العســـكرى « ثيو كتستوس » أمام عمر بن عبد الله الأقطع امير ملطيـــة سنة ٢٢٩ هـ / ٨٤٤ م (٨٣) واضطر البيزنطيون إلى طلب

---

(٧٩) المرجع السابق .

(٨٠) الطبرى مصدر سبق جـ ٨ ص ٦٢٣ ، ابن الاثير مصدر سبق جـ ٥ ص ٢١٩ .

(٨١) الطبرى جـ ٩ ص ٥٥ ابن الاثير جـ ٥ ص ٢٤٧ ابن كثير جـ ١٠ ص ٢٨٥ وقد ذكر ابن كثير أن غارة ثيوفل كانت على ملطية وحدها .

(٨٢) الطبرى المصدر السابق جـ ٩ ص ٥٥ ، ص ٥٧ ، ص ٧٠

(٨٣) د . سليمان جـ ١ ص ٤٠ نقلا عن :
Symecn Mngistor; Op. Cit. P. 65.

الهدنة وتبادل الأسرى ، ووافق الخليفة الواثق (٢٢٧ - ٢٣٢ هـ / ٨٤٢ - ٨٤٧ م) وتم تبادل الأسرى (٨٤) .

الفترة الثانية ٢٣٢ - ٣١٢ هـ (٨٤٦ - ٩٢٤ م) .

وهى اطول الفترات وأدلها تعبيرا عن الدور الذى قامت به المدينة فى جهاد البيزنطيين ومع أن الخلافة لم تغفل عن إرسال الجيوش إلى المدينه نغزو الروم فى غالب الأوقات ، إلا أن هذه الفترة من العصر العباسى الثانى التى تتميز بضعف الخلفاء وتسلط القادة الأتراك ، واختفاء شخصية الخليفة المجاهد الذى يغزو بنفسه بلاد الروم ، قد ضاعفت من مسئولية أمير ملطية وغيره من مراء الثغور وحملت اهلها إلى حد كبير تبعة حماية الحدود الإسلامية ، وكانت الفتن والاضطرابات داخل الدولة العباسية والتى كانت الشغل الشاغل للمسئولين قد صرفتهم تماما عن الالتفات إلى الثغور وما يجرى فيها ، وتحمل أمراء الثغور حينئذ المسئولية كاملة فى الحرب ضد البيزنطيين كما حدث عندما انشغلت الخلافة العباسية بالفتنة فى أرمينية سنة ٢٣٧ هـ / ٨٥٢ م ووجهت جيوشها إلى هذه المنطقة (٨٥) فقد تحمل أمير ملطية عمر ابن

---

(٨٤) الطبرى مصدر سبق جـ ٩ ص ١٤١ ، ص ١٤٢

(٨٥) المصدر السابق جـ ٩ ص ١٨٧ ، ص ١٨٨

عبد الله الأقطع المسئولية كاملة ، كما تحمل غيره من أمراء الثغور - فى مواجهة البيزنطيين وقام عمر بغارات ناجحة على الأراضى البيزنطية واضطرت الإمبراطورة ثيودورا امام التفوق البرى للقوات الإسلامية فى منطقة الثغور إلى اللجوء إلى السلاح البحرى ، فهاجمت أساطيلهم ميناء دمياط سنة ٢٣٨ هـ / ٨٥٣ م ، وكان هذا الميناء يقدم المساعدات لمسلمى إقريطش (كريت) (٨٦) ، وبالرغم من نجاح هذه الحملة البحرية إلا أن الإمبراطورة رأت عدم جدوى ذلك وأنه لا يؤثر على تفوق المسلمين البرى فى منطقة الثغور ، ورأت عقد الهدنة وتبادل الأسرى وتم ذلك سنة ٢٤١ هـ / ٨٥٥ م (٨٧) .

وتجددت المعارك على الحدود الإسلامية البيزنطية فى العام التالى ٢٤٢ هـ / ٨٥٦ م وكان لمجاهدى ملطية بقيادة امير المدينة عمر بن عبد الله الأقطع القدح المعلى فى هذه المعارك ، وقام ولاة الثغور سنة ٢٤٦ هـ / ٨٦٠ م بغزو بلاد الروم منتهزين انشغال البيزنطيين بالخطر الروسى ، ويبدو أن هذا الغزو كان قويا لدرجة دفعت الامبراطور ميخائيل الثالث إلى الخروج بنفسه لصده ، وكان لمجاهدى ملطية وأميرها عمر بن عبد الله الأقطع دور مميز فى التصدى للامبراطور ، فبعد أن ألحقوا به هزيمة نكراء ، قاموا بملاحقة

---

(٨٦) المصدر السابق جـ ٩ من ص ١٩٣ ، ص ١٩٥ - ابن الاثير مصدر سبق جـ ٥ ص ٢٩٢ ابن تغرى بردى : أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة جـ ٢ من ص ٢٩٤ - ص ٢٩٥ طبع دار الكتب المصرية القاهرة ١٣٥٢ - ١٣٥٨ (١٩٢٢ - ١٩٣٩)

(٨٧) الطبرى المصدر السابق جـ ٩ ص ٢٠١ - ص ٢٠٣

الامبراطور الذى كاد أن يقع فى أسر المسلمين ، لولا أنه لجأ إلى تبديل ثيابه ، فاستطاع الهرب إلى العاصمة (٨٨) ·

وحانت الفرصة المناسبة للامبراطور ميخائيل الثالث للانتقام من أمير ملطية عمر بن عبد الله وذلك بعد أن زال الخطر عن العاصمة بانسحاب الأسطول الروسى سنة ٢٤٦ هـ/ ٨٦٠ م وتوغل عمر بن عبد الله فى ثمانية آلاف من جنوده داخل الأراضى البيزنطية حتى وصل (أميسوس) فدمرها ، فأرسل إليه جيشا على رأسه القائد « بتروناس » الذى حاصر عمر من كل الجهات وضيق عليه الخناق ، وحاول عمر أن يفتح ثغرة للخروج فقتل فى إحدى محاولاته وقتل معه ألفان من المسلمين (٨٩) وخسر المسلمون بذلك قائدا بارعا ، وانتهز البيزنطيون فرصة مقتله وخلو الساحة من قائد عظيم يحل محله ، فقاموا بالإغارة على الثغور الجزرية حتى وصلوا قرب ميافارقين ، وعندما علم على بن يحيى الأرمنى ، أثناء عودته

---

(٨٨) د · سليمان مرجع تقدم جـ ١ ص ٤٥ نقلا عن :
Theophanes Conuatus. PP . 178 - 179 .

(٨٩) اليعقوبي مصدر سبق جـ ٢ ص ٥٠١ ، الطبرى مصدر سبق جـ ٩ ص ٢٦١ ، ويذهب السعودى الى أن من معه قتل الا عددا قليلا ، مروج الذهب ومعادن الجوهر مصدر تقدم جـ ٢ ص ٤٥١ · أما المصادر الاجنبية فيبالغ بعضها ، ويذكر أن جيش عمر البالغ أربعين ألف جندى قد قتلوا جميعا ·
د · سليمان المرجع المتقدم جـ ١ ص ٤٥ ، ص ٤٦ نقلا عن :
Theophanes Conuatus; PP. 179 - 180 .

(٩٠) وكان يتولى قبل ذلك امرة طرطوس ، وعرف بالشجاعة والمهارة العسكرية والحمية للاسلام · أنظر الطبرى جـ ٩ والمسعودى مصدر تقدم جـ ٢ فى مواضع متفرقة ·

من أرمينية بعد عزله عنها (٩٠) خرج إلى الروم فى جماعة من رجال ميافارفين فقتل هو الآخر (٩١) .

موقف جمهور المسلمين من هذه الأحداث وأثره :

كان لمقتل هذين القائدين العظيمين أثر سيىء على جموع المسلمين فى بغداد القائدين العظيمين اثر سيىء على جموع المسلمين فى بغداد وسامراء وغيرهما من المدن الإسلامية ومما زاد الأمر سوءا ما رأوه من تقاعس الخليفة وجيش الدولة عن القيام بواجب الجهاد وقتال أعداء الإسلام ، وتسلط القادة الأتراك وتغلبهم على أمور الخلافة ، وقتلهم المتوكل ، واستضعافهم المنتصر والمستعين من بعده ، واجتمعت العامة فى بغداد بالصراخ ونادوا بالنفير سنة ٢٤٩ هـ فاجتمع خلق كثير ، وامتد لهيب الثورة إلى سامراء أيضا ، وقام العامة فى بغداد بإخراج السجناء وأفسدوا جسرى بغداد ، ورأى القادة الأتراك خطر هذه الثورة فتصدوا لها وأرسلوا إحدى فرق الجيش وتدعى الزرافة ، ولكن العامة تغلبوا عليها ، فركب وصيف وبغا الصغير ، وهما من كبار القادة ومعهما جموع الأتراك فقتلوا

---

(٩١) الطبرى المصدر السابق جـ ٩ ص ٢٦١ .

من العامة خلقا كثيرا ، واستمرت الثورة - مع ذلك - مدة طويلة حتى سكنت (٩٢) .

وإذا كانت هذه الثورة لم تفلح فى تنبيه المسئولين فى بغداد إلى فداحة الأخطار التى تتعرض لها الحدود الإسلامية وظل هؤلاء المسئولين سادرين فى فتنهم ومؤامراتهم ضد بعضهم البعض من اجل الجاه أو المال ، فإنها أفلحت فى إثارة الحمية للجهاد ، وقتال أعداء الإسلام ، وجمع أهل اليسار فى بغداد أموالا كثيرة لتصرف على من ينهض إلى ثغور المسلمين لقتال العدو ، عوضا عمن قتل من المسلمين هناك ، وأقبل الناس من نواحى الجبال والأهواز وفارس وغيرها لغزو الروم (٩٣) .

وقد أصبح الوضع فى ملطية بعد استشهاد أميرها عمر الأقطع حرجا حيث لم يوجد من يسد مسده ، وزاد الأمر حرجا انشغال الخلافة ببعض الفتن الداخلية ، فقد واجه الخليفة المستعين ثورات العلويين فى الكوفة وطبرستان والرى منذ سنة ٢٥٠ هـ / ٨٦٤ م ، والفتنة بالأنبار سنة ٢٥١ هـ / ٨٦٥م ، واضطرت الخلافة إلى سحب بعض جنودها من الثغور لمواجهة هذه الفتن والثورات (٩٤) ، وهو مما أدى إلى ازدياد

---

(٩٢) المصدر السابق جـ ٩ ص ٢٦٢ ، ابن الاثير مصدر سبق جـ ٥ ص ٣١٣ ، ابن كثير مصدر سبق جـ ١١ ص ٣
(٩٣) الطبرى ، ابن الاثير ، ابن كثير المصادر السابقة .
(٩٤) الطبرى المصدر السابق جـ ٩ ص ٢٦٦ ، وما بعدها ، ابن الاثير المصدر السابق جـ ٥ ص ٣٢٥ وما بعدها .

وضع هذه الثغور سوءا ، وقد قدم من ملطية وحدها نحــــو ثلاثمائة مقاتل للاشـــتراك فى القضـــاء على فتنــــة الأنبار (٩٥) .

وهكذا اضطربت الأمور فى ملطية وغيرها من الثغور ، وأكثر الروم الغارة عليها فقد ذكر اليعقوبى أن الخليفــــة المعتز (٢٥٢ — ٢٥٥ هـ / ٨٦٦ — ٨٦٩ م) وجه مزاحم بن خاقان إلى ملطية بعد أن ظهر بها الروم مرات عديدة (٩٦) ، وعندما استأنفت نشاطها العسكرى سنة ٢٥٣ هـ / ٨٦٧ م لم يكن مستواها العسكرى على نفس القدر من الكفاءة والمهـــارة ، فعندما قاد واليها الجديد محمد بن معاذ الهجوم على الروم فى هذا العام لم يحالفه التوفيق وهزم ووقع أسيرا فى أيديهم (٩٧) .

وفى الوقت الذى وصلت فيه الأوضــــاع فى الدولة الإسلامية ، ومنطقة الثغور إلى ما وصلت إليه تـــــهدت الامبراطورية البيزنطية قيام أسرة جديدة فى الحـــكم هى الأسرة المقدونية (٢٥٣ — ٤٤٨ هـ / ٨٦٧ — ١٠٥٦ م) بعد ان استولى باسيل الأول على العرش سنة ٢٥٣ هـ ٨٦٧ م ، وقد عملت هذه الأسرة على إحياء مجد الإمبراطورية الحـــربى واسترداد أملاكها التى استولى عليها المسلمون ، وهيـــا

---

(٩٥) المصدران السابقان .

(٩٦) مصدر سبق جـ ٢ ص ٥٠١ .

(٩٧) الطبرى المصدر السابق جـ ٩ ص ٣٧٧ .

طول حكم هذه الأسرة وتوارث أبنائها الحكم إلى ضمان استقرار الأوضاع الداخلية (٩٨) ، وكان من الممكن تحقيق هذه الأهداف سريعا اولا بعض المشاكل الخارجية مع جيران الإمبراطورية من البلغار والروس •

وفى سنة ٢٥٩ هـ / ٨٧٢ م اتجه الإمبراطور باسيل الأول - بعد نجاحه فى القضاء على البيالصة حلفاء المسلمين - إلى ملطية منتهزا انشغال الخلافة العباسية بالقضاء على ثورة الزنج (٩٩) واستولى وهو فى طريقه إلى المدينة على سميساط ، ولما وصل ملطية فرض الحصار عليها، وتصدى المجاهدون فى المدينة للامبراطور وجيشه وتمكنوا من هزيمته ، وقتل نصر الإقريطشى بطريق البطارقة (١٠٠) ، وهكذا تمكنت المدينة من الصمود فى وجه الامبراطور ودحره بالرغم من الأوضاع التى كانت عليها المدينة والدولة

---

(٩٨) د • عاشور مرجع سبق ج ١ ص ٣٨٢ ، ص ٣٨٣ •

(٩٩) استمرت هذه الثورة من سنة ٢٥٥ هـ - ٢٧٠ هـ (٨٦٩ - ٨٨٣م) وقادها علي بن محمد احد المغامرين من أهل الطالقان بفارس مستغلا الاوضاع السيئة التى كان يعيشها الزنوج فى المنطقة بين البصرة وواسط ، وكانت أول الامر دعوة الى منع استغلال ملاك الاراضى لهؤلاء الزنوج وتحرير العبيد ثم انقلبت الى حركة عنصرية ورغبة فى الانتقام وأشاعت الرعب وهددت عاصمة الخلافة حتى تمكن العباسيون من القضاء عليها - الطبرى مصدر سبق ج ٩ ص ٤٣١ وما بعدها ابن الاثير ج ٥ ص ٣٤٦ وما بعدها • حسن : د • حسن ابراهيم تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعي ج ٣ من ص ٢٣٦ - ص ٢٤٠ الطبعة العاشرة مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٩٨٢ م •

(١٠٠) الطبرى المصدر السابق ج ٩ ص ٥٠٦ •

الإسلامية بوجه عام ، والفضل فى ذلك يرجع إلى ما كانت تتمتع به من تحصينات قوية ، ومجاهدين أشـــداء وهبوا أنفسهم للدفاع عن الأمة الإسلامية

وكان ذلك من أسباب اهتمـــام البيزنطيين بضرورة القضاء على هذه المدينة •

وقد عاودت باسيل فكرة الهجوم على ملطية بعد حوالى تسع سنوات من هزيمته أمام جندها ، فتوجه إليها مرة أخرى سنة ٢٦٨ هـ - ٨٨١ م وفشل أيضا هذه المرة وتمكن المجاهدون فى المدينة بمساعدة من بعض الثغـــور من صد الامبراطور وهزيمته (١٠١) •

ومع استمرار غزوات المسلمين للحدود البيزنطية انشغل البيزنطيون بالنزاع مع البلغار ، وكان محور هــذا النزاع الناحية التجارية ونشبت الحرب بينهما سنة ٢٨٠ هـ/٨٩٤م وانتهت بهزيمة البيزنطيين سنة ٢٨٢ هـ / ٨٩٦ م (١٠٢) ، واضطر البيزنطيون إلى عقد معاهدة لتبـــادل الاسرى مع المسلمين سنة ٢٨٢ هـ / ٨٩٧ م (١٠٣) •

---

(١٠١) المصدر السابق ج ٩ ص ٦١٢ •
(١٠٢) د •سليمان مرجع تقدم ص ٥٤ نقلا عن :
Obolensky' Op. Cit. PP. 105 - 106 .
(١٠٣) الطبرى مصدر سبق ج ١٠ ص ٤٦ •

وانشغلت الخلافة العباسية هى الأخرى ببعض الفتن الداخلية ، ومن هذه الفتن ثورة القرامطة (١٠٤) منذ سنة ٢٨٧ هـ / ٩٠٠ م فى البصرة وامتدادها إلى مناطق أخـــرى وخروج محمد بن أبى الساج والى أرمينية على الخلافة سنة ٢٨٧ هـ / ٩٠٠ م (١٠٥) وكان لهذه الثورات تأثيرها السلبى على الثغور إذ أنها كانت تدفع الخلافة فى كثير من الأحيان إلى الاستعانة بجند من الثغور للقضاء على هذه الفتن ، كما أن بعض هذه الثغور لم تكن بمعزل عن هذه الفتن مما كان يؤثر على موقفها من البيزنطيين ، وقد حدث ذلك لملطيـــة نفسها فقد لجأ إليها وصيف خادم محمد بن أبى الساج سنة المعتضد بذلك ، وسأله أن يوليه الثغور ، ولكن المعتضد عرف مكره وخداعه وسار إلى حربه ، وتمكن من أسره (١٠٦) .

ومن نشاط ثغر ملطية فى هذه الفترة غزو مؤنس الخادم الصائفة منها فى جيش كثيف ، ومعه أبو الأغر السلمى — أحد القادة العسكريين — بلاد الروم فى أواخر سنة ٢٨٦ هـ / ٨٩٩ م ، ونجاح هذه الغزوة ، وعودته ببعض الأسرى (١٠٧).

---

(١٠٤) القرامطة نسبة الى قرمط بن الأشعث ، وهى من الحركات التى تظاهرت بالاصلاح الاجتماعى ، واتخذت من الدين ســـتارا لتحقيق أغراضها ، واصطبغت بصبغة شيعية ، وكان أول ظهورها فى الكوفة ، وقد ضعفت هذه الدعوة وتلاشى اثرها فى أواخر القرن الرابع الهجرى • انظر الهمذانى مصدر تقدم ج ١١ من تاريخ الطبرى ص ٣٣٧ ابن كثير مصـــدر تقدم ج ١١ ص ٦١ •

(١٠٥) المصدر السابق ج ١٠ ص ٧٧ وما بعدها فى اماكن متفرقة •

(١٠٦) المصدر السابق ج ١٠ ص ٧٧ ابن الاثير مصدر سبق ج ٦ ص ٩٤

(١٠٧) الطبرى المصدر السابق ج ١٠ ص ١٤٣ ابن الاثير المصدر السابق ج ٦ ص ١٣٥ •

وقد تحسن موقف البيزنطيين ، وزادت هجماتهم على الثغور الإسلامية بعد إبرام معاهدة الصلح مع البلغار سنة ٢٨٢ هـ / ٨٩٦ م وتمكنهم من نقل قواتهم البرية إلى منطقة الحدود مع المسلمين (١٠٨) مما دفع الخليفة المكتفى (٢٨٩ - ٢٩٥ هـ / ٩٠٢ - ٩٠٨ م) إلى السعى لعقد الهدنة ، وتم عقدها وتبادل الأسرى بين الجانبين سنة ٢٩٠ هـ / ٩٠٢ م (١٠٩) وإن كان البيزنطيون الذين شعروا بضعف الجانب الاسلامى ، واحسوا بقوتهم ، نقضوا الهدنة فى العام التالى ٢٩١ / ٩٠٣ - ٩٠٤ م وهاجموا الجزيرة (١١٠) .

وقد عوض المجاهدون فى ثغور الشام هذا القصور فى الحروب البرية حيث قاموا بهجوم بحرى ناجح على مدينة « سالونيك » ثانية المدن البيزنطية بعد القسطنطينية سنة ٢٩١ هـ / ٩٠٤ م ، وألحقوا هزيمة قاسية بالبحرية البيزنطية وكان لها نتائجها السيئة على الامبراطورية (١١١) ، كما قام المسلمون بمعارك بحرية أخرى ضد البيزنطيين حالفهم التوفيق فيها (١١٢) .

---

(١٠٨) الطبرى المصدر السابق جـ ١٠ ص ٧٥ وما بعدها ، د . سليمان مرجع تقدم ص ٥٩ نقلا عن : Obolensky' OP. Cit. P. 106 .

(١٠٩) الطبرى المصدر السابق جـ ١٠ ص ٩٨ ، ص ١٠٧

(١١٠) المصدر السابق جـ ١٠ ص ١١٦ .

(١١١) المسعودى : أبو الحسن على بن الحسين التنبيه والاشراف ص ١٦٩ دار التراث بيروت ١٩٦٨ م ، غنيم : د . اسمت الامبراطورية البيزنطية وكريت الاسلامية ص ١٢١ ، ص ١٢٢ المجمع العلمى بجدة ١٩٧٧م

(١١٢) المسعودى مروج الذهب مصدر تقدم جـ ٢ ص ٥١٢ ، د . غنيم المرجع السابق ص ١٣٨ ، ص ١٣٩ .

وشهدت الإمبراطورية البيزنطية بعد وفاة ليو السادس (٢٧٣ - ٢٩٩ هـ / ٨٨٦ - ٩١٢ م) اضطرابات داخليـــة ، وأعلن أحد القادة العسكريين الطامعين فى العرش الثورة ، وتعرضت الإمبراطورية كذلك لتهديدات مباشرة من البلغـار وقام ملكهم « سيمون » بحصار القسطنطينية سنة ٩١٣ م / ٣٠١ هـ (١١٣) وانتهز الحسين بن حمدان - حاكم ديار ربيعة - ذلك وقام بمهاجمة الحدود البيزنطية من طرســوس إلى ملطية سنة ٣٠١ هـ / ٩١٣ م (١١٤) .

وشهدت الخلافة العباسية بدورها أوضاعا داخلية سيئة فى عهد الخليفة المقتدر ، فقد تعرضت مصر - التابعــــة للعباسيين - لحملات فاطمية منذ سنة ٣٠٢ هـ / ٩١٤ م(١١٥) وتمرد الحسين بن حمدان حاكم ديار ربيعة على الخلافةولكن المقتدر تمكن من إخضاعه أما يوسف بن أبى الساج حــاكم أرمينية وأذربيجان ، فلم تفلح الخلافة فى إخضاعه وأصبح شبه مستقل بالمناطق التى يحكمها (١١٦) ، ولم تحــاول الإمبراطورة « زوى » التى آلت إليها الوصاية على الامبراطور الصغير قسطنطين السابع أن تستغل هذه الظروف لمهاجمة الأراضى الاسلامية لإحساسها باستمرار التهديد البلغـارى لبلادها (١١٧) ، بل إنها سعت للهـــدنة سنة ٣٠٥ هـ /

---

(١١٣) د . سليمان مرجع تقدم ص ٧٠ نقلا عن :
Obolenky, Op. Cit. PP. 107 - 108 .

(١١٤) الطبرى مصدر سبق جـ ١٠ ص ١٤٧ .

(١١٥) المصدر السابق جـ ١٠ ص ١٤٩ ، ص ١٥٠ .

(١١٦) القرطبى مصدر سبق جـ ١١ من تاريخ الطبرى ص ٢٥ ، ص ٥٥ ، ص ٦٤ .

(١١٧) د . سليمان مرجع تقدم ص ٧٢ .

٩١٧ م (١١٨) فرحب الخليفة المقتدر ليتفرغ لمشاكله الداخلية ثم ظهر « رومانوس ليكابينوس » كامبراطور شريك لقسطنطين السابع (٣٠٨ — ٣٣٣ هـ / ٩٢٠ — ٩٤٤ م)(١١٩)، وكان قبل ذلك قائدا للأسطول البيزنطى ، وبظهوره بدأت مرحلة جديدة اتسمت بالنشاط العسكرى الكبير ، وقد اضطر رومانوس الى طلب الهدنة من الخليفة المقتدر نظرا لاشتداد الخطر البلغارى ، ووجد هذا الطلب استجابة من المقتدر الذى كان يعانى من هجمات القرامطة على البصرة والكوفة (١٢٠) ، وتم عقد الهدنة وتبادل الأسرى بين الطرفين سنة ٣١٢ هـ / ٩٢٤ م (١٢١) ٠

---

(١١٨) القرطبى مصدر سبق ج ١١ من تاريخ الطبرى ص ٦٢ ، مسكويه مصدر سبق ج ٥ ص ٥٣ ، ص ٥٥ ٠

(١١٩) كان النظام البيزنطى يسمح أن يكون فى منصب الامبراطور عدة اشخاص ولكن الذى يمارس الحكم بالفعل واحد منهم ، والباقون يحملون اللقب فقط ، وكان الذى يمارس الحكم فى هذه الفترة هو « رومانوس ليكابينوس » ، رنسيمان : ستيفن : الحضارة البيزنطية من ص ٦٥ — ص ٦٧ ترجمة عبد العزيز جاويد مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٩٦١ م ٠

(١٢٠) ابن الاثير مصدر سبق ج ٦ ص ١٧٥ ، ابن كثير ج ١١ ص ١٤٧

(١٢١) مسكويه مصدر سبق ج ٥ ص ١٣٩ ، ابن الاثير ج ٦ ص ١٨١

الفترة الثالثة : ٣١٢ – ٣٢٢ هـ (٩٢٤ – ٩٣٤ م)

وفى بداية هذه الفترة شعر البيزنطيون بتحسن الموقف العسكرى على الجبهة البلغارية ، وابتعدت نذر الحرب بين الطرفين ، فى الوقت الذى كانت فيه الخلافة تعانى من فتن داخلية فى مقدمتها هجمات القرامطة على بعض مدن العراق ، وبادر رومانوس إلى نقض الهدنة مع العباسيين ، وأرسل قائده كوركواس للهجوم على ملطية سنة ٣١٣ هـ / ٩٢٥ م (١٢٢) ، وفى العام التالى ٣١٤ هـ / ٩٢٦ م كرر الهجوم على ملطية وما يليها ، ومعه مليح الأرمنى – القائد البيزنطى صاحب ثغر ليكاندوس – وحاصروا المدينة ، ولكن أهلها صبروا على هذا الحصار ، وتمكن الروم من فتح أبواب من الحصن فدخلوه ، فقاتلهم أهلها وأخرجوهم منه ، ولم يظفروا من المدينة بشىء (١٢٣) .

وأمام هذا الفشل صب البيزنطيون جام غضبهم على القرى المنتشرة حول المدينة فخربوها ، بل إن سورة الغضب والحقد دفعتهم إلى نبش قبور الموتى والتمثيل بهم ، وهذه درجة سفلى من التصرفات البعيدة عن أبسط قواعد القيم

---

(١٢٢) الهمذانى مصدر تقدم جـ ١١ من تاريخ الطبرى ص ٢٤٨ ، ابن الاثير مصدر تقدم جـ ٦ ص ١٨٢ .

(١٢٣) ابن الاثير المصدر السابق جـ ٦ ص ١٨٥

الإنسانية والأخلاق ، وفى النهاية رحلوا عن الثغور ، وذهب بعض أهل ملطية إلى بغداد مستغيثين فلم يستجب لهم أحد وعادوا إلى ملطية مخذولين (١٢٤) ، فقد كان الخليفة المقتدر ومعظم القادة العسكريين مشغولين بحرب القرامطة التى امتدت إلى سنة ٣١٧ هـ / ٩٢٩ م وهددوا بغداد والبصرة والكوفة وديار ربيعة وكثيرا من المدن الهامة (١٢٥) .

وتذكر المصادر البيزنطية أن أمير ملطية « أبا حفص » ـ حفيد القائد الشهيد عمر بن عبد الله الأقطع ـ اضطر أمام الضغط البيزنطى على التفاوض مع « كوركواس » ، وذهب بنفسه ومعه قائده العسكرى « أبو الصلت » إلى القسطنطينية وعقد مع الإمبراطور « رومانس » معاهدة سنة ٣١٦ هـ / ٩٢٧ م تشترك بموجبها قوات ملطية فى صفوف الجيش البيزنطى (١٢٦) ، وذلك يعنى استسلام المدينة ، وتبعيتها لبيزنطة ، وذكرت أيضا أن سكان المدينة سرعان ما نقضوا اتفاقهم مع البيزنطيين بعد وفاة أبى حفص ، فاضطر كوركواس إلى مهاجمتها من جديد سنة ٣١٧ هـ / ٩٢٩ م وفرض عليها غرامة مالية كبيرة (١٢٧) ، أما المصادر الاسلامية فلا تشير الى شىء من ذلك .

---

(١٢٤) المصدر السابق جـ ٣ ص ١٨٥ .

(١٢٥) القرطبى مصدر سبق جـ ١١ من تاريخ الطبرى ص ١٠٣ وما بعدها ، ابن الاثير المصدر السابق جـ ٦ ص ١٧٥ وما بعدها .

(١٢٦) د . سليمان مرجع تقدم جـ ١ ص ٧٧ نقلا عن :
Tneophanes Continuatus PP. 415 - 416 .

(١٢٧) المرجع السابق جـ ١ ص ٨٧ .

رأى وتعليق :

لعله من المستبعد أن تستسلم المدينة - على يد أبى حفص - بهذه السهولة، وهى التى أثبتت صلابتها وقوة صمودها، وعجزت قوات البيزنطيين على كثرة عددها ، ومهارة قوادها عن اقتحام المدينة قبل ذلك - ورجعوا عنها خائبين ، وإذا كانت الخلافة العباسية والمسئولون فى عاصمتها لم يستجيبوا لاستغاثة أهلها ، فلا يؤكد ذلك ما روى عن استسلامهم السريع للبيزنطيين ، والحوادث القادمة التى أوردتها المصادر الإسلامية تشير إلى أن المدينة ظلت فترة من الزمان محتفظة بمكانتها كقلعة إسلامية .

وعلى فرض صحة ما ذكرته المصادر البيزنطية ، فمن المحتمل أن يكون استسلام المدينة عملا قام به أبو حفص ومساعدوه دون موافقة أهل المدينة والمجاهدين بها ، ومما يقوى هذا الاحتمال ما ذكرته المصادر البيزنطية من سرعة نقض أهل المدينة الاتفاق مع البيزنطيين بعد وفاة أبى حفص (١٢٨) .

وكانت سنة ٣١٧ هـ / ٩٢٨ م - على ما يبدو - سنة قاسية على ملطية وميافارقين وآمد وأرزن وغيرها من الثغور

---

(١٢٨) المرجع السابق

الجزرية ، فقد ضعفت هذه الثغور عن دفع الروم عنها ، وفكر أهلها فى التسليم بعد أن عجز الخليفة المقتدر عن مساعدتهم، ولكنهم قبل أن يقدموا على هذه الخطوة الخطيرة ، رغبوا فى استئذان الخليفة وكتبوا إليه يوضحون ما هم عليه من عجز، ويطلبون أن يمدهم بجند من عنده ، ولكن لم يجبهم أحد (١٢٩) .

ولكن هل استسلمت ملطية بعد هذا الاستئذان مباشرة أم أنها تأخرت ؟ الواقع أن المصادر العربية لا تعطينا إجابة شافية حول هذا الموضوع ، ورواية ابن الأثير تفيد أن ملطية كانت فى سنة ٣١٩ هـ / ٩٣١ م خاضعة للروم ، وعلل ذلك بضعف أهلها عن حمايتها أمام قوة الروم وكثرة جمعهم (فصالحوهم وسلموا مفاتيح البلد إليهم ، فحكموا على المسلمين) (١٣٠) .

وكانت الخلافة لا تستطيع أن تمنع سقوط ملطية وغيرها من الثغور فى أيدى الروم نظراً لظروفها الداخلية السيئة ، حتى تهيأ للخلافة ظهور شخصية عسكرية طموحة هو القائد التغلبى سعيد بن حمدان الذى ولاه الخليفة الموصل وديار ربيعة واشترط عليه مقابل ذلك أن يستنقذ منطقة ملطية من الروم ، وغزو بلادهم (١٣١) .

(١٢٩) ابن الأثير مصدر سبق جـ ٦ ص ٢٠٦
(١٣٠) المصدر السابق جـ ٦ ص ٢١٧ .
(١٣١) المصدر السابق

وخرج القائد سعيد بن حمدان بقـــواته سنة ٣١٩ هـ / ٩٣١ م فأنقذ سميساط من الوقوع في أيدي الروم ، ثم سـار إلى ملطية ، وكان بها جمع من الروم ومن عسكر مليح الأرمني ومعهم « بني بن نفيس » (١٣٢) ، فلما علموا بمقدم سـعيد خرجوا من المدينة وخافوا أن يأتيهم سعيد في عســكره من خارج المدينة ، ويثور أهلها بهم من داخلها فتكون نهايتهم الأليمة ، فغادروها ، ودخلها سعيد وعادت المدينة مره أخرى للمسلمين ، وبعد أن عين عليها أميرا غادرها لغـــزو بلاد الروم (١٣٣) .

تعليـــل للتراجع البيزنطي :

إن هذا التقهقر الطارئ في موقف البيزنطيين، يمكن أن نرجعه إلى اهتمام الخلافة العباسية بالموقف في الثغـــور وبخاصة ملطية بعد أن تخلصت من ثورة القرامطة في العراق التي انتهت تقريبا سنة ٣١٧ هـ / ٩٢٩ م (١٣٤) وظهـــور القائد البارع سعيد بن حمدان الذي كانت له جهوده الموفقة

---

(١٣٢) كان صاحب المقتدر ثم دفعته تقلبات السياسة في بغداد الى الهرب الى بلاد الروم وتنصر وكان يصاحب جيوشهم الى بلاد المسلمين . ابن الاثير المصدر السابق ص ١١٧ .

(١٣٣) المصدر السابق

(١٣٤) القرطبي مصدر سبق جـ ١١ من تاريخ الطبري ص ١٠٣ وما بعدها ابن الاثير جـ ٦ ص ١٧٥

فى تثبيت الوجود الإسلامى فى بعض الثغور ، ويمكن ان نضيف إلى ذلك انشغال القائد البيزنطى كوركواس بالحرب فى أرمينية ، وخلو الساحة من قائد بيزنطى يضارعه شجاعة ومهارة واهتمام كوركواس بالقتال فى أرمينية وترك منطقة الثغور الجزرية يمكن أن نفسره بأن البيزنطيين وجدوا فى هذه الفترة أن القضاء على النفوذ الاسلامى فى أرمينيـــة اهم لموقعهـــا ، وللتقـــارب بين الأرمن والبيزنطيين ، وقد وصـــل بعض الأرمن إلى مناصب مرموقة فى الدولة البيزنطية ، وربما قدروا أن ذلك خطوة فى سبيل تحقيـــق هدفهم فى منطقة الثغور الجزرية .

وبالنسبة للقائد كوركواس قد تكون خيبة الأمل الذى صادفته أول الأمر فى منطقة الثغور بعجزه عن الاستيلاء على ملطية سنة ٣١٤ هـ / ٩٢٦ م (١٣٥) قد صرفته إلى منطقـــة أخرى هى أرمينية ، وقد يكون أصله الأرمنى (١٣٦) هو الذى دفعه إلى تطهير هذه المنطقة من النفوذ الإســـلامى قبـل غيرها .

وقد ساعد على تقهقر موقف البيزنطيين فى الثغـــور الجزرية أن ثمال الخادم والى طرسوس قام بهجـــومين

---

(١٣٥) ابن الاثير المصدر السابق جـ ٦ ص ١٨٥

(١٣٦) حسين : د . صابر دياب مرجع سبق ص ١٨٥

ناجحين على الأراضى البيزنطية سنة ٣١٩ هـ /٩٣١م (١٣٧) مما كان له أثر فى أن يخف الضغط على المسلمين فى الثغور الجزرية ويشغل البيزنطيون إلى حد ما بهذين الهجومين .

وتطلع الروم للاستيلاء على ملطية سنة ٣٢٠ هـ / ٩٣٢م، وأعدوا الجيوش اللازمة لذلك ، ووصل الخبر إلى المسلمين فاحتال مؤنس الخادم - أحد كبار القادة العسكريين فى الدولة العباسية - لمنع الهجوم على ملطية حيث كاتب « بنى بن نفيس » الذى أصبح موضع ثقة الروم ، يستدعيه إليه ، ويمنيه ، ويسأله أن يصرف الروم عن ملطية ونجح بنى بن نفيس فى صرف الروم عن ملطية ، وأقبل إلى الموصل ففرح به مؤنس (١٣٨) .

وبعد عامين من هذا التاريخ وفى سنة ٣٢٢ هـ / ٩٣٤ م تمكن القائد كوركواس من الزحف إلى المدينة بقوات كبيرة ، وحاصرها ، ونجح فى الاستيلاء عليها (١٣٩) .

---

(١٣٧) القرطبى مصدر سبق جـ ١١ من تاريخ الطبرى ص ١٤١ ، ابن الاثير جـ ٦ ص ٢١٦ ، ص ٢١٧ .

(١٣٨) القرطبى مصدر سبق جـ ١١ من تاريخ الطبرى ص ١٤٦ .

(١٣٩) ابن الاثير مصدر سبق جـ ٦ ص ٢٤٣ .

انهيـــــار ثغر ملطية

سقوط ملطية :

ساعدت أحوال الخلافة العباسية المضطربة القـــائد البيزنطى كوركواس الذى عاد إلى ثغور الجزيرة على مهاجمة ملطية سنة ٣٢٢ هـ / ٩٣٤ م · بجيش بلغ عدده خمسين ألف مقاتل وحاصر المدينة ، وقاوم أهلها الحصار مدة طويلة حتى هلك أكثر أهلها من شدة الجوع (١٤٠) مما يدل على صمود أهلها وعنادهم وتضحيتهم ويشهد بقوة إيمانهم ، وحينئذ وقعت المدينة فريسة سهلة فى أيدى البيزنطيين ، وســلاح الحصار والجوع سلاح طالما استخدمه البيزنطيون ضد مدن الثغور الإسلامية ·

ويذكر ابن الأثير أن « كوركواس » ضرب خيمتين على إحداهما صليب ، وقال من أراد النصرانية انحاز الى خيمة الصليب ليرد عليه أهله وماله ، ومن أراد الاسلام انحاز الى الخيمـــة الأخـــرى ، وله الأمان على نفســـــه ، ونبلغه مامنه (١٤١) ·

---

(١٤٠) القرطبى مصدر سبق جـ ١١ من تاريخ الطبرى ص ١٤٦ ·

(١٤١) مصدر سبق جـ ٦ ص ٢٤٣ ، وهذه الطريقة التى سلكها الروم لفتنة المسلمين عن دينهم ونشر النصرانية بينهم طريقة غير انسانية لأنهـــا =

وقد اضطر كثير من المسلمين تحت ضغط العاطفة إلى الانحياز إلى الخيمة التى عليها الصليب طمعاً فى أهليهم وأموالهم ، أما الباقون فأبوا أن يستسلموا لذلك فأرسل الروم معهم بطريقا يبلغهم مأمنهم ، وفتحت المدينة بالأمان مستهل جمادى الآخرة يوم الأحد (١٤٢) سنة ٣٢٢ هـ / ٩٣٤م.

وهكذا لم تكن مصيبة أهل ملطية فى فقد بلدهم التى أحبوها وأخلصوا فى الدفاع عنها فحسب بل كانت مصيبتهم كذلك فى أهليهم وأموالهم ، وإذا كان ابن الأثير قد ذكر أن الروم بعثوا مع الراغبين فى ترك المدينة بطريقا يبلغهم مأمنهم ، فقد ذكر ابن كثير أن الروم أعطوا أهل ملطية الأمان حتى تمكنوا منهم ثم قتلوا من أهل ملطية خلقا كثيرا وأسروا ما لا يحصى كثرة (١٤٣) ، وما ذكره ابن كثير يدل على سوء أخلاق البيزنطيين ونكثهم العهود وقسوتهم ، وليس ببعيد أن يكون ذلك هو الذى صدر منهم تجاه أهل ملطية ، وبخاصة أن هذه المدينة كان لها دور كبير فى جهادهم ، وقاومتهم بعناد وإصرار عندما ألحوا بالهجوم عليها ، وما لنا نستبعد ذلك وقد

=

تستغل الظروف السيئة التى تحيط بالبشر ، والدين انما ينشر بالاقتناع والحجة ، وما فعله الروم هنا يشبه الى حد كبير ما حدث فى طرسوس بعد ذلك فقد نصبوا فيها علمين بدل الخيمتين ، ولكن الخيار كان بين الاقامة فى بلاد المسيحية او بلاد الأسلام . أنظر الحموى مصدر سبق جـ ٤ ص ٢٨ ، ٢٩ .

(١٤٢) المصدر السابق .
(١٤٣) مصدر سبق جـ ١١ ص ١١٧ .

ارتكبوا من قبل ما هو أشد فظاعة عندما انتهكوا حرمة الموتى من المسلمين ونبشوا قبورهم ومثلوا بهم سنة ٣١٢ هـ بعد فشلهم في الإستيلاء على ملطية (١٤٤) .

موقف المسلمين من سقوط ملطيه :

كان سقوط ملطية في أيدى البيزنطيين سنة ٣٢٢ هـ / ٩٣٤ م خسارة كبرى للمسلمين جميعا باعتبارها الثغر الأول بين ثغور الجزيرة والقلعة الحصينة للدفاع عن الأمة الإسلامية ، ويوضح البحث موقف المسلمين من سقوطها على مستوى الحكومات وعلى مستوى الشعوب

أولا : موقف الحكومات الإسلامية :

اما موقف الحكومات فيأتى فى مقدمتها الخلافةالعباسية صاحبة الشرعية فى حكم العالم الإسلامى كله والتى يستمد حكام الدولة المستقلة شرعية حكمهم منها ، وكانت ملطية تابعة للخلافة العباسية تبعية مباشرة حين سقوطها ولم يصدر عن الخلافة العباسية رد فعل إزاء ذلك ، ولم تذكر

---

(١٤٤) ابن الاثير مصدر سابق جـ ٦ ص ١٨٥ .

المصادر شيئا يتعلق بهذا الأمر ، ولعل الخليفة الجديد « الراضي » (٣٢٢ هـ - ٣٢٩ هـ / ٩٣٤ - ٩٤٠ م) الذى تولى الخلافة قبل ما يقرب من شهر من سقوط ملطية ، كان منهمكا فى اختيار رجال دولته ، وتثبيت حكمه ، وكان القـادة وكبار رجال الدولة يتطلعون إلى تحسين أوضاعهم فى العهد الجديد ، بالإضافة إلى أمر فى غاية الأهمية وهو أن خطر القرامطة كان لم ينته بعد وإن كان قد سكن بعض الوقت ، لذلك رأت الخلافة - على ما يبدو - عدم إرسال الجيوش إلى منطقة الثغور وادخرت قواتها لمحاربة القرامطة الذين كان خطرهم أشد من خطر البيزنطيين فى نظرهم ، وفى نفس الوقت أرسلت إلى زعيم القرامطة أبى طاهر سنة ٣٢٢ هـ تدعوه إلى طاعة الخليفة « ليقره على ما تحت يده من البلاد ، ويقلده بعد ذلك ما شاء من البلدان » ويلتمس منه أن يكف عن الحجاج جميعهم ، وأن يرد الحجر الأسـود إلى موضعه ، فوعد أبو طاهر بالكف عن الحجاج ، ورفض رد الحجر الأسود ، وفى نفس هذا العام خرج جماعة من أصحاب أبى طاهر القرمطى فهاجموا نواحى توج (١٤٥) ، ولم يوف أبو طاهر بوعده الكف عن الحجاج فقد اعترض فى العـام التالى ٣٢٣ هـ حجاج العراق، ولم يتمكنوا من أداء الحج فى هذه السنة (١٤٦) .

---

(١٤٥) المصدر السابق جـ ٦ ص ٢٤٢ ، ص ٢٤٣ وتوج مدينة بفارس قريبة من كازرون وبينها وبين شيراز اثنان وثلاثون فرسخا . الحموى مصدر سبق جـ ٢ ص ٥٦

(١٤٦) ابن الاثير المصدر السابق جـ ٦ ص ٢٤٩ .

وفى الموصل أقرب المدن الكبرى فى العراق إلى ملطية والثغور الجزرية كان النزاع بين أفراد البيت الحمدانى على إمارة الموصل وديار ربيعة وانتهى الأمر بقتل أبى العلاء سعيد بن حمدان الذى ولاه الخليفة الراضى الموصل وديار ربيعة ، على يد ابن اخيه ناصر الدولة الحسن بن عبد الله سنة ٣٢٣ هـ ، وبعث الراضى بجيش على رأسه ابن مقله الوزير إلى الموصل ، فلما قاربها رحل الحسن بن عبد الله ، وبقى الوزير بالموصل يجبى منها الأموال ، فاحتال أصحاب الحسن حتى تمكنوا من حمل الوزير على العودة إلى بغداد بعد أن أناب عنه من يحكمها ، وتمكن الحسن من العودة إلى الموصل ، وحارب نواب الوزير ابن مقله بها ، وتمكن فى النهاية من الانتصار عليهم ، واستولى على الموصل ، وكتب إلى الخليفة يسأله الصفح ، وأنه سيضمن له البلاد فأجيب إلى ذلك (١٤٧) .

ويكشف لنا ما حدث فى الموصل عن حقيقة هامة ، وهى أن الخلافة لم تكن عاجزة تماما عن إعداد الجيوش وإرسالها الى أى مكان فى هذا الوقت ، ولكنها كانت تفضل إرسال الجيوش إلى المناطق التى يتعرض نفوذها فيها إلى الاختلال ، وما يتبع ذلك من نقص ما يرد إليها من مال عن إرسالها إلى مناطق الثغور التى ليس فيها إلا القتال والأهوال ، وفى هذا إشارة إلى أن الدولة العباسية فى هذه الفترة كانت تقدم

(١٤٧) الهمذانى مصدر تقدم جـ ١١ من تاريخ الطبرى ٠ ص ٢٩٥ ، ابن الأثير مصدر سبق جـ ٦ ص ٢٤٨ ، ص ٢٤٩ .

المصالح المادية على القيم والمبادىء التى تمسك بها الأولون فى وجوب الجهاد وحماية العقيدة والدفاع عن ديار المسلمين وأعراضهم .

أما فى شرق العراق فكان هناك نزاع بين القوى العسكرية على امتلاك أقاليم هذه المنطقة ، وتقدم « مرداويج ابن زيار » حاكم الدولة الزيارية فى إقليم الجبل ، واستولى على الأهواز من على بن بويه - مؤسس الدولة البويهية التى سيكون لها الأمر والنهى فى بغداد بعد ذلك - ورضى على أن يكون نائبا لمرداويج فيما تحت يده ، ولما قتل مرداويج ، تقدم ياقوت - من قواد العباسيين - إلى الأهواز ، واستولى على هذه الولاية .

ثم التقى بجند بنى بويه عند أرجان ، وانهزم ياقوت هزيمة لم يفلح بعدها ثم جرت مراسلات للصلح انتهت بأن جعل الخليفة الراضى بلاد فارس لابن بويه واستقر ياقوت بالأهواز وذلك سنة ٣٢٢ هـ (١٤٨) وبذلك انشغلت هذه القوى الإسلامية عما يجرى فى ملطية ومدن الثغور الأخرى وانصرف القادة العسكريون عن العدو الخارجى الذى يتربص بهم وببلادهم بالنزاع فيما بينهم على السلطة والنفوذ .

---

(١٤٨) ابن الاثير المصدر السابق جـ ٦ ص ٢٣٨ ، ص ٢٣٩ .

وفى الغرب كانت مصر هدفا للحملات الفاطمية المتكررة ، وقد أرسلت الدولة الفاطمية سنة ٣٢١ هـ / ٩٣٣ م حملة أخرى استمرت حوالى ثلاث سنوات تخللها صلح سنة ٣٢٢ هـ / ٩٣٤ م بين المصريين وقائد القوات الفاطمية لم يحترمه الطرفان (١٤٩) .

ولم يكن من المتوقع أن يقدم الفاطميون مساعدة للدولة العباسية لاسترداد ملطية والوقوف فى وجه البيزنطيين ، فقد كان هناك العداء السياسى ، فالفاطميون يعتقدون أنهم أحق بخلافة المسلمين من العباسيين بحكم انتسابهم إلى فاطمة الزهراء رضى الله عنها بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم (١٥٠) .

هذا إلى جانب الاختلاف المذهبى بين العباسيين السنة والفاطميين الشيعة ، وتطلع الدولة الفاطمية الفتية إلى الاستيلاء على اقاليم الدولة العباسية الهرمة ، وقد رأينا محاولاتهم الاستيلاء على مصر .

أما القوة السياسية الكبرى الأخرى فى الغرب فكانت

---

(١٤٩) الكندى : ابو عمر محمد بن يوسف ولاه مصر من ص ٣٠٠ - ص ٣٠٦ تحقيق د . حسين نصار دار صادر بيروت بدون تاريخ ، مسكويه : أبو على احمد بن محمد تجارب الامم وتعاقب الهمم ص ٢٨٤ ، ص ٢٨٥ القاهرة ١٩١٤ م

(١٥٠) حسن : د . حسن ابراهيم تاريخ الدولة الفاطمية ص ٣٦٤ الطبعة الرابعة مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٩٨١ م .

الدولة الأموية بالأندلس، وكانت هناك عداوة قديمة بين الأمويين والعباسيين لا تشجع على تقديم هؤلاء الأمويين مساعدة للعباسيين فى محنتهم ، كما أن تخوف الأمويين بالأندلس من الدولة الفاطمية الناشئة تجعلهم دائما على أهبة الاستعداد محتفظين بكامل قوتهم تحسبا للمفاجآت ولا يغامرون بإرسالها إلى بلاد الشرق البعيدة (١٥١) .

هذا فضلا عما فى إرسال الجيوش من المغرب والأندلس من تكاليف باهظة وتضحيات جسيمة فى المال والرجال نظرا لطول الطريق ، بالإضافة إلى ما درج عليه أهل المغرب من ترك أمور الشرق ومشاكله لأبنائه لأنهم أكثر دراية بها ، وقدر على تصريفها وحلها .

ثانيا : موقف عامة المسلمين :

اما وقع سقوط ملطية على عامة المسلمين ، وهى المدينة التى لها مكانتها واهميتها فى الجهاد ضد البيزنطيين فقد ضنت علينا المصادر بكشف أثر سقوط المدينة فى أوساط المسلمين إلا ما كان من قصائد قيلت لتعبر عن هذه المأساة ، وقد ساق الحموى (١٥٢) أبياتا من إحدى هذه القصائد وفيها

---

(١٥١) : د . احمد مختار فى تاريخ المغرب والأندلس ص ١٩٩ وما بعدها مؤسسة الثقافة الجامعية الاسكندرية بدون تاريخ .

(١٥٢) مصدر سبق جـ ٥ ص ١٩٣ .

يقول الشاعر :

فلأبكين على ملطيـــة كلمـــا
أبصرت سيفا أو سمعت صهيلا

هـدم الدمستق سورها وقصورها
فسمعت فيها للنســاء عويلا

والعلج (١٥٣) يسحبها وتلطم كفه
متوردا يقق (١٥٤) البياض جميلا

قالوا الصليب بهــا بأمر ثابت
قد أظهروا الصلبان والإنجيــلا

وأمثل هذا الشاعر لسان حال جمهور المسلمين فى ذلك الزمان والمعبر عن مشاعرهم بلغة جميلة يحفظها الدهر ٠

أما ردود الأفعال الأخرى العملية كما حــدث من عامة المســلمين بعــد مقتــل القــائدين عمر ابن عبد الله الاقطـع وعلى بن يحيى الأرمنى ســنة ٢٤٩ هـ - وتحــدثنــا عنــه من قبــل - من تجمع النــاس ودعوتهم الغاضبة إلى الجهاد وردع الأعداء ، وجمع المــال

(١٥٣) العلج الواحد من كفار العجم ٠ الرازى : محمد بن ابى بكر مختار الصحاح ص ٧٤ الطبعة الاولى القاهرة ١٣٠١ هـ ٠

وإرسال المجاهدين للثغور (١٥٥) ، فبالنسبة لسقوط ملطية لم تتحدث المصادر عن شيء من هذا القبيل ، ولا يمكن أن يكون ذلك عن جهل بما يجرى فى الثغور أو انصراف عن الاهتمام بهذه الأمور ، ولكن يبدو أن المسلمين قد شغلوا ـ فى هـــذه الفترة ـ بأمور أخرى أكثر قربا والتصاقا بهم فإذا نظرنا الى خراسان وفارس وجدنا الصراع العســكرى بين بنى بويه وغيرهم من القادة العسكريين ، وقد شغلت المعارك بينهـــم افكار الناس والهتهم عما يجرى فى ملطية وغيرها من الثغور، هذا فضلا عما الم بخراسان سنة ٣٢٣ هـ من الغلاء الشديد والجوع الذى أودى بحياة كثير من أهل خراسان ، حتى عجز الناس عن دفن موتاهم (١٥٦) ٠

وفى العراق انغمس أهل بغداد ـ عاصمة الخـــلافة فى خلافات مذهبية وفقهية ، وسيطر على عامة الناس فيها بعض الغالين فى الدين من الحنابلة وتزعمهم « البربهارى » (١٥٧)، وقد اراد القائد ابن يلبق ان يقبض عليه لإثارته الفتنة فى بغداد ولكنه هرب فأخذ جماعة من أعيان أصحابه (١٥٨) ٠

---

(١٥٤) يقق البياض شديد البياض ناصعه المصدر السابق ص ٣٦٤ ٠

(١٥٥) الطبرى مصدر سبق جـ ٩ ص ٢٦٢ ابن الاثير جـ ٥ ص ٣١٣ ابن كثير جـ ١١ ص ٣ ٠

(١٥٦) ابن الاثير مصدر سبق جـ ٦ ص ٢٤٩ ٠

(١٥٧) هو الحسن بن على بن خلف ابو محمد البربهارى الفقيه العابد شيخ الحنابلة فى بغداد ، توفى سنة ٣٢٩ هـ ابن الاثير ٠ جـ ٦ ص ٢٢٣ ٠

(١٥٨) المصدر السابق ٠

ولم تنته أمر هذه الطائفة عند هذا الحد بل على النقيض من ذلك تعاظم أمرهم وقويت شوكتهم ، واضطلعوا بأنفسهم بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واستخدموا القوة والإرهاب فى تغيير المنكر ، ونفذوا ذلك مع العامة والقادة على السواء ، وأصبح الناس منهم فى هلع ، وقام صاحب الشرطة فى بغداد بالتصدى لهذه الطائفة ، ومنعها من الاجتماع ، وحظر مناظرتهم فى مذهبهم ، فلم يفد ذلك وزاد خطرهم وإجرامهم ، وكان لابد من تدخل الخليفة شخصيا للقضاء على هذه الفتنة ، فخرج توقيع الخليفة الراضى سنة ٣٢٣هـ بما يقرأ على الحنابلة، ينكر عليهم أفعالهم المذمومة ، ويدعوهم الى الابتعاد عنها ويهددهم بالضرب والتشريد وحرق منازلهم ومحالهم (١٥٩) .

وهكذا شغل الحنابلة - فى هذه الفترة الخاسمة - أنفسهم بهذه الأمور ، وانشغل الناس بهم ، وغفلوا عن أمر عظيم وهو سقوط ملطية قلعة المسلمين المجاهدين والثغور الأخرى فى ايدى البيزنطيين ، وانتهاك حرمات المسلمن فى هذه الثغور ، وقتل الكثيرين منهم ، ومحاولات هؤلاء النصارى نشر دينهم على حساب المسلمين فى هذه المناطق، ولو وجهوا جهودهم لبث الحماس للجهاد ، ودفع المسلمين إلى اللحاق بالثغور لحرب البيزنطيين ، ومنع سقوط مدن الثغور الأخرى واستعادة ما ضاع منها لكان خيرا للمسلمين وأنفع لهم .

---

(١٥٩) الهمذانى مصدر سبق ج ١١ من تاريخ الطبرى ص ٢٩٤ ، ص ٢٩٥ ، ابن الاثير المصدر السابق ج ٦ ص ٢٤٨ .

وفى مصر انشغل العامة بالصراع بين العباسيين والفاطميين على أرضها من أجل السيطرة عليها ، ثم ما كان من محاولة الإخشيد تدعيم سلطانه بها .

أسباب سقوط ملطية سنة ٣٢٢ هـ / ٩٣٤ م :

أولا : بالنسبة للجانب الإسلامى :

١ - الحالة السيئة التى كانت عليها الخلافة العباسية، فقد ضعف شأن الخلفاء وازداد تدخل الأتراك فى شئون الحكم ، وتطلعوا إلى مصالحهم الخاصة ، ولم يراعوا الصالح العام للمسلمين ، وقد حرصوا على أن يجعلوا الخلافة فى من لا يحسن القيام بأعبائها ليظل لهم النفوذ والسلطة ، من ذلك ما حدث بعد وفاة المكتفى فقد عدلوا عن اختيار عبد الله بن المعتز مع نضوجه وكفاءته ، إلى جعفر بن المعتضد الذى لقب بالمقتدر سنة ٢٩٥ هـ ، وكان صبيا فى الثالثة عشر من عمره (١٦٠) .

وكان الخلفاء الذين عاصروا فترة اشتداد الهجوم البيزنطى على ملطية من سنة ٣١٢ هـ وحتى سقطت فى أيدى البيزنطيين سنة ٣٢٢ هـ ، هم المقتدر والقاهر والراضى أما المقتدر فقد تولى الحكم سنة ٢٩٥ هـ / ٩٠٨ م وامتدت فترة

---

(١٦٠) مسكويه : تجارب الأمم مصدر سبق جـ ١ ص ٣ .

حكمه إلى سنة ٣٢٠ هـ / ٩٣٢ م وكانت فترة سيئة من فترات الحكم العباسى ، اتسمت بتدخل النساء والخدم فى شئون الحكم ، وكان المقتدر مبذرا فخلت بيوت المال ، وقد زاد هذه الفترة سوءا اختلاف من حوله من القادة فى الأهواء والرأى ، وقد خلع المقتدر ثم أعيد إلى الخلافة ثم قتل (١٦١) ٠

وتولى بعده القاهر ، ومكث فى الخلافة حتى سنة ٣٢٢هـ، وجاء اختيار الاتراك له بناء على نصيحة أحدهم بالابتعاد عمن له ام وخالة وخدم يدبرونه - كما كان الحال فى عهد المقتدر - وأنه لابد من رجل كامل « يدبر نفسه ويدبرنا »(١٦٢) وقد عرف القاهر بالقسوة ، وسوء الأخلاق والغدر فخافه بعض القادة الأتراك ، ودبروا للتخلص منه ، ونجحوا فى خلعه فى الخامس من جمادى الأولى سنة ٣٢٢ هـ / ٩٣٤ م وسملوا عينيه ، وولى القادة والخدم بعده الراضى (١٦٣) ، ولم يمض على خلافته شهر واحد حتى سقطت ملطية فى جمادى الثانية ٣٢٢ هـ ٠

وقد تلاشت فى هذه الفترة هيبة الخلفاء ، وأصبحوا هدفا للازدراء فى الداخل وأغرت أعداء الدولة الإسلامية بمهاجمة حدودها وانتقاص أطرافها (١٦٤) ٠

---

(١٦١) ابن طباطبا / محمد بن على المعروف بابن الطقطقى ٠ الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الاسلامية ص ٢٢٣ ، ص ٢٣٥ القاهرة ١٩٢٣م

(١٦٢) ابن الاثير مصدر سبق جـ ٦ ص ٢٢١ ، ص ٢٢٢ ، ابن كثير مصدر سبق جـ ١١ ص ١٧٠ الخضرى مرجع سبق ص ٣٥٨ ٠

(١٦٣) ابن الاثير المصدر السابق جـ ٦ ص ٢٣٦ ، ص ٢٣٧ ٠

(١٦٤) د ٠ حسن ابراهيم تاريخ الاسلام مرجع تقدم جـ ٣ ص ٢٥ ٠

٢ - الفتن الداخلية ، وقد احتلت فتنة القرامطة (١٦٥) مكان الصدارة ، وقد تركز نشاط هؤلاء القرامطة في البحرين وامتد نفوذهم إلى هجر والأحساء والقطيف ، وقد تولى أمرهم أبو طاهر الجنابي بعد مقتل والده الحسن بن بهرام الجنابي سنة ٣٠١ هـ ، وقد اشتدت هجمات أبي طاهر على البصرة ، وكان أشد هذه الغزوات سنة ٣١١ هـ (١٦٦) ، كما هاجموا الكوفة سنة ٣١٢ هـ (١٦٧) .

وفي سنة ٣١٥ هـ توجه القرامطة إلى العراق ، ووجهت الخلافة العباسية لحربهم « يوسف بن أبي الساج » من كبار القادة العسكريين ، ولكنه هزم أمامهم وأسر ، فوجهت الخلافة خيرة من لديها من القواد ، وفي مقدمتهم مؤنس الخادم (المظفر) ونصر الحاجب وهارون بن غريب الخال وأبا الهيجاء الحمداني ، ومعهم جيش الخليفة الذي بلغت عدته نيفا وأربعين بينما كان عدد جيش القرامطة ألفا وخمسمائة ، وأشار أبو الهيجاء بقطع قنطرة على نهر (زبارا) على بعد فرسخين من بغداد ، وكان النهر يفصل بين الجانبين ولم يتمكن القرامطة من العبور الى جيش العباسيين لعمق النهر ، ولما أشرفوا على عسكر الخليفة هرب خلق كثير إلى بغداد من غير أن يلقوهم ، فلما رأى أبو

---

(١٦٦) ابن الاثير المصدر السابق جـ ٦ ص ١٧٥ ، ابن كثير المصدر السابق جـ ١١ ص ١٤٧ .

(١٦٧) القرطبي مصدر سبق جـ ١١ من تاريخ الطبري ص ١١٥ ، ابن الاثير المصدر السابق جـ ٦ ص ١٨٠ ، ص ١٨٦ .

الهيجاء ذلك قال لمؤنس : (كيف رأيتم ما أشرت به عليكم والله لو عبر القرامطة النهر لانهزم كل من معك ولأخذوا بغداد) وبعد أن يئس القرامطة من مقامهم انصرفوا إلى الأنبار ولم يجسر أحد على اتباعهم (١٦٨) وسار أبو طاهر من الأنبار إلى الجزيرد ينهب ويقتل وجيوش العباسيين عاجزة عن التصدى لهم ، ثم عاد القرامطة أدراجهم إلى موطنهم (١٦٨) ٠

ودنب هؤلاء القرامطة على اعتراض طريق الحجاج وترويعهم ، ومن أفظع ما قاموا به فى هذا الصدد ما حدث سنة ٣١٧ هـ من ترويع حجاج بيت الله الحرام ونهبهم وقتل بعضهم حتى فى المسجد الحرام ، وقلع الحجر الأسود ، ونقله إلى هجر (١٧٠) ٠

ولم يحدث فى التاريخ أن انتهكت حرمة المسجد الحرام إلى هذا الحد (١٧١) ، وبعث الخليفة الفاطمى المهدى إلى ابي طاهر الذى كان يدعى التشيع - يلومه ويبرأ منه ومن الدنيا

---

(١٦٨) القرطبى مصدر سبق جـ ١١ من تاريخ الطبرى ص ١١٥ ، الهمذانى مصدر سبق جـ ١١ من تاريخ الطبرى ص ٢٥٤ ، ابن الاثير جـ ٦ ص ١٨٧ ٠

(١٦٩) القرطبى المصدر السابق ص ١١٥ ، ابن الاثير المصدر السابق جـ ٦ ص ١٩١ ؛ ص ١٩٢ ٠

(١٧٠) ابن الاثير المصدر السابق جـ ٦ من ص ٢٠٣ ؛ ص ٢٠٥ ابن كثير مصدر سبق جـ ١١ من ص ١٦٠ ؛ ص ١٦٢ ٠

(١٧١) الخضرى مرجع سبق ص ٣٥٣ ٠

والآخرة إن لم يعد الحجر الأسود إلى مكانه ، فأعاده (١٧٢).

وكان لظهور هؤلاء القرامطة أثره الكبير في ترويع أهل العراق والحجاز ، وعندما بلغ أهل مكة مسير القرمطي إليهم سنة ٣١٤ هـ نقلوا حرمهم وأموالهم إلى الطائف (١٧٣) ، وفكر أهل بغداد في الهرب من المدينة إلى حلوان وهمذان سنة ٣١٥ هـ عندما أقبل القرامطة إلى العراق (١٧٤) وكان ما فعله القرامطة بالحجاج وترويعهم سببا في منع أهل العراق من أداء فريضة الحج سنة ٣١٤ هـ حيث ذكر بعض المؤرخين انه لم يحج أحد من العراق خوفا من القرامطة (١٧٥) ، وعندما كانوا يصممون على أداء هذه الفريضة في بعض الأعوام كانوا يسلكون طرقا غير ممهودة ليسلموا من أذاهم (١٧٦) ، وعندما خرج القائد مؤنس الخادم للحج سنة ٣١٩ هـ خرج في جيش كثيف خوفا من القرامطة ، وتفادى الإلتقاء بهم (١٧٧).

وهكذا ظهرت الخلافه العباسية عاجزة عن التصدى لاعتداءات القرامطة ، ومنع جرائمهم ، بالرغم من كثرة عدد

---

(١٧٢) ابن الاثير المصدر السابق ابن كثير المصدر السابق .

(١٧٣) الهمذاني مصدر سبق جـ ١١ من تاريخ الطبرى ص ٢٤٩ ، ابن الاثير جـ ٦ ص ١٨٥ .

(١٧٤) الهمذاني مصدر تقدم جـ ١١ من تاريخ الطبرى ص ٢٥٣ ، ابن الاثير المصدر السابق جـ ٦ ص ١٨٧ .

(١٧٥) الهمذاني المصدر السابق ص ٢٤٩ ابن كثير مصدر سبق جـ ١١ ص ١٥٤ .

(١٧٦) ابن كثير المصدر السابق جـ ١١ ص ١٦٥ .

(١٧٧) المصدر السابق ص ١٦٦ .

جيوش الخلافة . فقد امتاز هؤلاء القرامطة بالشجاعة والإقدام والحرص على الموت ، وهذا ما لم يتوفر لجنود الخلافة الذى ملأ الطمع نفوسهم وسيطر حب الدنيا عليهم .

وكانت فتنة القرامطة فى مقدمة اهتمامات الخلافة العباسية ، وكان خطرها لا يقل فى - نظرها - عن خطر الروم فى الثغور ، إن لم يزد عليه ، بعدما استحلوا دماء المسلمين وأموالهم وحرماتهم ، واستهانوا بمقدساتهم فهم العدو القريب الدار ، الحال بين أظهر المسلمين ، وقد كلفت فتنة القرامطة الدولة العباسية الكثير من الأموال ، وجندت لها خيرة قوادها وجنودها . وشغلتهم المعارك مع هؤلاء القرامطة عن الالتفات إلى الخطر البيزنطى على ملطية وغيرها من الثغور .

٣ - النزاع بين القادة العسكريين ، فما إن خف ضغط القرامطة على العراق حتى برزت على السطح فتنة أخرى استحوذت على اهتمام القادة العسكريين وصرفتهم عن الاهتمام بالثغور ، وهى النزاع فيما بينهم . وتنافسهم على النفوذ والسلطان ، وقد ظهر ذلك واضحا فى آخر عهد المقتدر ، بين القائدين مؤنس الخادم (المظفر) ومحمد بن ياقوت ، وكان مؤنس قد وصل إلى مرتبة عليا فى الدولة العباسية ، نظرا لما قام به هذا القائد من جهود فى

تثبيت سلطان الدولة ، ولحروبه الموفقة ضد البيزنطيين حتى أصبح بمثابة القائد العام للجيوش ، وكان الخليفة يمتثل لما يشير به ، وعندما رأى مؤنس أن الخليفة قد أسند إلى محمد بن ياقوت بعض المناصب الهامة سنة ٣١٩ هـ طلب من الخليفة عزله عن هذه المناصب لأنه ليس أهلا لها ، فعزله الخليفة وأبعده إلى المدائن (١٧٨) ولم ينته الأمر عند هذا الحد ، فقد تولى الوزارة الحسين بن القاسم ، وأخذ الحسين يدبر للقضاء على نفوذ مؤنس الخادم ، وبعث إلى محمد بن ياقوت يستقدمه إلى بغداد ، وجمع الجنود ، ومال المقتدر إلى جانب الوزير ومحمد بن ياقوت ، فقد حدث بين الخليفة ومؤنس ما كدر صفو المودة بينهما (١٧٩) .

وإزاء ما حدث ذهب مؤنس بجنده إلى الموصل وادعى أن الخليفة ولاه عليها وكتب الوزير إلى الحمدانيين سنة ٣٢٠ هـ يطلب منهم قتال مؤنس فقاتلوه ولكنهم هزموا أمام مؤنس الذى إستولى على الموصل وأخذ اموال بنى حمدان ، ثم آخذ مؤنس طريقه إلى العاصمة سنة ٣٢٠ هـ وتراجعت أمامه طلائع الخليفة المقتدر ، وفكر الخليفة فى ترك بغداد لمؤنس والذهاب إلى واسط ، ولكن محمد بن ياقوت منعه من ذلك وطلب منه

---

(١٧٨) القرطبى مصدر سبق جـ ١١ من تاريخ الطبرى ص ١٣٧ ، ابن الاثير مصدر سبق جـ ٦ ص ٢١٣ .

(١٧٩) ابن الاثير المصدر السابق جـ٦ ص ٣١٦ .

الخروج بنفسه للقتال ، وبين له أن جنود مؤنس إذا رأوه تركوا مؤنسا وانضموا إليه .

.. وانهزم جند الخليفة قبل أن يصل الخليفة إلى ميدان القتال ، وانتهى الأمر بقتل الخليفة المقتدر ، وانتصار القائد مؤنس على خصومه (١٨٠) .

وبعد تولية القاهر الخلافة استوحش مؤنس الخادم ويلبق الحاجب وولده على والوزير أبو على بن مقلة من القاهر وضيقوا عليه ، فى الوقت الذى علت فيه منزلة محمد ابن ياقوت عند القاهر الذى عزم على الإيقاع بمؤنس ، وبعد سلسلة من المؤامرات والدسائس ، انتهى الأمر بقتل مؤنس ويلبق وولده على وذلك سنة ٣٢١ هـ)(١٨١) .

اما أبو على بن مقله فقد اختفى ، ولم يتمكن القاهر من القبض عليه ، وأخذ ابن مقلة يدبر المكائد للتخلص من القاهر ، واتصل برؤساء الساجية والحجرية (١٨٢) وأخذ يؤلبهم على

---

(١٨٠) القرطبى مصدر سبق جـ ١١ من تاريخ الطبرى من ص ١٤٢ - ص ١٥٢ ، ابن الاثير المصدر السابق جـ ٦ ، ص ٢٢٠ ، ص ٢٢١ .

(١٨١) ابن الاثير المصدر السابق جـ ٦ من ص ٢٢٤ - ص ٢٢٩ ، ابن كثير مصدر سبق جـ ١١ ص ١٧٣ .

(١٨٢) الساجية اتباع ابن ابى الساج احد قواد المعتمد ، والحجرية جماعة من الشباب يقيمون فى حجرة منفردة ، وهم فرقة من الحرس الخاص فى قصور الخلافة - د . حسن ابراهيم تاريخ الاسلام مرجع تقدم جـ ٣ ص ٧ حاشية (٢٠) .

القاهر ، ويخوفهم من بطشه وقد حدثت من القــاهر بعض التصرفات أكدت لهم هذه المخاوف (١٨٣) وما زال بهم حتى قاموا بالقبض عليه وخلعوه من الخلافة ثم سملوا عينيه فى الخامس من جمادى الأولى سنة ٣٢٢هـ (١٨٤) .

وهكذا فى الوقت الذى كان فيه البيزنطيون يطرقــون مدن الثغور ، ويهاجمونها ، وأهلها يستنجدون ويستغيثون، تنهمك القادة العسكريون فى معارك داخلية ومؤامرات لا تهدف سوى زيادة النفوذ الشخصى ، والرغبة فى الانتقام ، وتحقيق السيادة والمكانة العالية .

٤ - أن جند الدولة وقادتها - وجلهم من الأتراك - كان ينقصــــهم الشـــــعور بالولاء للدولــة - كمــــــا يظهــر من تتبع الأحــــداث - ولم يكن يحــركهـــم القتــال حمية لدين ولا غيرة على حرمات ولا دفــــاع عن وطن نعموا بالإقامة فيه وتمتعوا بخيراته ، بل كان المــال همهم الأول ، ومحركهم القوى ، وقد عبر عن هذا المعنى قائد من قواد هذا العصر هو محمد بن ياقوت عندما ذهب - فى عدد من القادة - إلى الخليفة المقتدر لطلب المال لإنقاذ بغداد

---

(١٨٣) من ذلك أنه بعد أن استتب له الامر كان يعامل الساجيــة والحجرية بجفاء وغلظة ، وانه حفر فى دار الخليفة خمسين مطمورة تحت الارض واحكم أبوابها ، وأشيع بانه اعدها ليسجن فيها رؤساء الساجية والحجرية . الهمذانى مصدر سبق ج ١١ من تاريخ الطبرى ص ٢٨٣ ، ابن الاثير مصدر سبق ج ٦ ص ٢٣٦ ، ص ٢٣٧ .

(١٨٤) المصدران السابقان .

من السقوط فى يد مؤنس الخادم ، وقال له : « إن الرجال لا تقاتل إلا بالمال » (١٨٥) .

ومن الحوادث التى تؤكد هذا المسلك ما حدث عندما استدعت الخلافة يوسف بن أبى الساج لحرب القرامطة سنة ٣٢٤ هـ حيث طلب مقابل ذلك ثلاثة آلاف آلاف دينار وهو مبلغ ضخم يرهق بيت مال الخلافة ، لذلك آثر على بن عيسى الوزير الاستعانة بخمسة آلاف فارس من بنى أسد لحماية طريق مكة ، وخمسة آلاف رجل من بنى شيبان يبعثهم لحرب القرامطة، ولن يكلف ذلك الخلافة أكثر من ألف ألف دينار (١٨٦) وعندما تحرك يوسف بن أبى الساج فى اتجاه بغداد — ويبدو أن الخلافة قد توصلت إلى اتفاق معه — طلب منه مؤنس الخادم الإقامة فى واسط وأن الأموال سترد عليه (١٨٧) .

٥ — سوء الناحية الاقتصادية فى فترة اشتداد الهجوم البيزنطى على ملطية وغيرها من الثغور ، فقد كانت الدولة تعانى من أزمة مالية حادة وهذه الأزمة ترجع فى جذورها إلى سنوات سابقة فقد كلفت الثورات التى نشبت فى داخل الدولة ، كالثورات العلوية وثورة الزنج وثورة القرامطة الخلافة العباسية مبالغ

---

(١٨٥) الهمذانى المصدر السابق جـ ١١ من تاريخ الطبرى ص ٢٧٢ .
(١٨٦) القرطبى مصدر سبق جـ ١١ من تاريخ الطبرى ص ١١١ ، ١١٣ ، ص ١١٤ .
(١٨٧) المصدر السابق ص ١١٤ .

بامظة ، وفى نفس الوقت قلت موارد الدولة نتيجة استقلال بعض أجزائهـا (١٨٨) ، وتأخر الولاة الذين ظلوا على تبعيتهم للدولة العباسية عن دفع ما يلزمهم من مال ، وقد لجأت الدولة العباسية إلى أسلوب المصادرات لتغطية عجزها المالى (١٨٩) كما استحدثت طريقة التضمينات (١٩٠) ، ولكن ذلك لم يؤد إلى انفراج الأزمة المالية ، ولا يخفى ما للمال من أهمية فى إعداد الجيوش وتسليحها ، وكان العجز المالى سببا فى تأخر الدولة - أحيانا - عن دفع رواتب الجند ، وثورة هؤلاء مطالبين بأرزاقهم ، كما حدث عندما ثار الجند على الخليفة المقتدر سنة ٣١٨ هـ مطالبين بأرزاقهم ، وتعهد المقتدر بدفعها إليهم (١٩١) .

وقد اشتدت الأزمة المالية فى آخر عهد المقتدر - قبل سقوط ماطية بسنوات معدودات نظرا للتكاليف التى تحملتها الدولة فى حرب القرامطة ، ومما يدل على اشتداد الأزمة المالية، ان الخليفة المقتدر عجز عن تدبير المال اللازم لمعركته المصيرية مع مؤنس الخادم الذى قدم إلى عاصمة الخلافة للاستيلاء على مقاليد الأمور بها ، وفكر الخليفة فى الذهاب إلى واسط لولا أن قال له محمد بن ياقوت أحد القادة العسكريين :

---

(١٨٨) الهمذانى مصدر سبق جـ ١١ من تاريخ الطبرى ص ٢٧٢ .

(١٨٩) القرطبى مصدر سبق جـ ١١ من تاريخ الطبرى ص ١١١ .

(١٩٠) تعنى هذه الطريقة تعيين شخص فى ولاية أو منصب كبير نظير دفع مبلغ ثابت يلتزم به ويقسمه بالطريقة التى يتفق معه عليهـا . الهمذانى مصدر سبق جـ ١١ من تاريخ الطبرى ص ٢٧١ .

(١٩١) ابن الاثير مصدر سبق جـ ٦ ص ٢١١ .

(اتق الله يا أمير المؤمنين ولا تسلم بغداد بغير حرب ، وان رجال مؤنس إذا رأوك أحجموا عن القتال) (١٩٢) ٠

واضطرت الخلافة أمام عجزها المالي ورغبتها فى نفس الوقت تحقيق بعض الأغراض التى تهدف الصالح العام للدولة إلى منح بعض الولايات لقادتها العسكريين نظير القيام بذلك كما فعلت مع سعيد بن حمدان عندما ولاه المقتدر الموصل وديار ربيعة سنة ٣١٩ هـ واشترط عليه غزو الروم واستنقاذ ملطية منهم (١٩٣) ٠

٦ ـ خلو ساحة الجهاد ضد البيزنطيين من القواد الأكفاء من أمثال مؤنس الخادم الذى قاد الصوائف ضد البيزنطيين دون ملطية وغيرها ، لقد شغل هذا القائد تماما بالمؤامرات والدسائس فى عاصمة الخلافة وانتهى الأمر بقتله سنة ٣٢١ هـ (١٩٥) ٠

ومن أمثال القائد أبى العلاء سعيد بن حمدان الذى عقد له الخليفة المقتدر على ديار ربيعة والموصل فى ذى الحجة

---

(١٩٢) الهمذاني مصدر تقدم جـ ١١ من تاريخ الطبرى ٠ ص ٢٧٢ ٠

(١٩٣) ابن الاثير مصدر سبق جـ ٦ ص ٢١٧ ، ابن كثير مصدر تقدم جـ ١١ ص ١٦٧ ٠

(١٩٥) الهمذاني مصدر تقدم جـ ١١ من تاريخ الطبرى ص ٢٨١ ، ابن الاثير مصدر تقدم جـ ٦ ص ٢٢٤ وما بعدها ٠

(١٩٦) القرطبى ٠ مصدر سبق جـ ١١ من تاريخ الطبرى ص ١٣٦ ٠

سنة ٣١٨ هـ (١٩٦) ، وقد دخـــل هـــذا القــــائد ــ البيزنطيون ، فلما علموا بمقدمه خافوا أن يحاربهم سعيد من خارج المدينة ويثور أهل ملطية عليهم من داخلها فيهلكوا وبذلك تركوا المدينة سنة ٣١٩ هـ ودخلها سعيد ، وندب عليها أمراء وخرج منها لغزو بلاد الروم (١٩٧) ، وقد دخل هذا القائد ــ للأسف ــ فى حلبة الصراع حول المناصب وقتل ضحية هذا الصراع سنة ٣٢٢ على يد ابن أخيه الحسين بن عبد الله الحمدانى الذى استولى على الموصل ، ونجح فى الحصــول على موافقة الخلافة (١٩٨) ٠

٧ ــ انشــــغال أقاليـــم الدولة ــ فإذا تجــاوزنا العــراق ــ مقــر الخـــلافة العبــاسية ــ ومنطقة الثغور ، إلى شرق العالم الإسلامى وغربه ، حيث كان من الممكن أن تتشارك جيوش من فارس ومصر ، وهما تابعتـــان للدولة العباسية ، فى صد الخطــر عن ملطية وغيرها من الثغـــور ٠

نجد أن الظروف السيئة التى أحكمت حلقاتها على الدولة العباسية ومنطقة الثغور قد امتدت إلى شرق العالم الإسلامى وإلى غربه على حد سواء ، ولم يكن من الممكن أن تأتى جيوش من هذه المناطق لنجدة ملطية وغيرها من الثغور ٠

فقد كان شرق العالم الإسلامى يشهد هجرة بنى بويه

---

(١٩٨) الهمدانى مصدر تقدم جـ ١١ من تاريخ الطبرى ص ١٤٦ ٠

الفرس من بلاد الديلم فى الجنوب الغربى لبحر قزوين والصراع بين بويه والقوى السياسية والعسكرية الأخرى على امتلاك الأقاليم شرق العراق (١٩٩) .

وفى غرب العالم الإسلامى كانت الدولة الفاطمية تتطلع للاستيلاء على مصر وكانت حملتهم الثالثة على مصر التى استمرت حوالى ثلاث سنوات (٣٢١ - ٣٢٤ هـ) (٢٠٠) .

٨ - وضع جمهور المسلمين - فإذا تركنا الخلفاء والحكام والدول والإمارات إلى جمهور المسلمين وعامتهم ، وهى قوة عظيمة لا يستهان بها ، فمنهم يمكن ان يخرج المتطوعون لقتال الروم والمجاهدون فى سبيل الله ، وبأموال الموسرين منهم يمكن ان ينفق على إعداد عدة الحرب وتجنيد الرجل ، كما ان هذا الجمهور أو العامة باستطاعتهم أن يكونوا أداة ضغط على الحكام وأن يحركوهم التصدى للبيزنطيين ، ولكننا نجد الناس - فى هذه الفترة العصيبة - قد فسدت أخلاقهم ، وبخاصة فى العراق وفى عاصمة الخلافة ، فلم تعد بغداد - كما ذهب أحد الباحثين - المدينة التى تضم رجالا أقوياء تأخذهم الحمية لنصرة بلاد الإسلام وثغوره (٢٠١) .

---

(١٩٩) ابن الاثير مصدر سبق جـ ٦ ص ٢٢٤ ، ص ٢٣٥ .
(٢٠٠) الكندى مصدر تقدم من ص ٣٠٠ ، ص ٣٠٦ .
(٢٠١) د . حسن ابراهيم تاريخ الاسلام مرجع تقدم جـ ٣ ص ٢٥

وما يصدق على بغداد يصدق ـ إلى حد كبير ـ على سائر المدن والبلاد الاسلامية وبخاصة القريبة من الثغور ، وإذا أردنا أن نعرف أسباب فساد الأخلاق وذهاب الحمية ، وجدنا فى مقدمة هذه الأسباب انقسام المجتمع الاسلامى على نفسه وتفرقه واختلافه ومن مظاهر هذا الانقسام ، الجدال العنيف بين أصحاب الآراء والمذاهب الفقهية .

ومن الأمثلة على ذلك الفتنة التى نشبت فى بغداد سنة ٣١٧ هـ بين أصحاب أبى بكر المرزوى الحنبلى وبين غيرهم من جمهور المسلمين وكان سببها الخلاف حول تفسير آية من القرآن الكريم (٢٠٢) .

ومن مظاهر هذا الانقسام تحرش أصحاب المهن والحرف ببعضهم البعض ومن أمثلة ذلك ما حدث فى الموصل سنة ٣١٧ هـ حيث ثارت الفتنة بين العامة وكانت أسبابها تتعلق بالمعاش ، وتعصب أصحاب الحرف ضد بعضهم البعض ، واقتتالهم وما تبع ذلك من إحراق وتخريب ، وفشل أمير المدينة الحسن بن عبد الله الحمدانى فى إطفاء هذه الفتنة حتى تدخل بعض العلماء وأهل الدين فأصلحوا بينهم (٢٠٣) .

ومن مظاهر هذا لانقسام أيضا أن بوادر الخلاف المذهبى بين السنة والشيعة أخذ طريقه إلى الظهور ، من ذلك الفتنة

---

(٢٠٢) ابن الاثير مصدر سبق جـ ٦ ص ٢٠٦ .
(٢٠٣) المصدر السابق ص ١١٤ .

التى حدثت فى بغداد سنة ٣٢١ هـ فقد أمر على بن يلبق أحد القادة العسكريين ، وكاتبه الحسن بن هارون - وكلاهما من الشيعة أو ممن يميل إلى التشيع - بلعن معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنهما وابنه يزيد على المنابر مما أدى إلى ثورة أهل بغداد وهم من السنة ، وأراد ابن يلبق القبض على الداعين إلى هذه الثورة وعلى رأسهم البربهارى رئيس الحنابلة ولكنه أفلت منه (٢٠٤) .

وامتدت ظاهرة الانقسام والاختلاف بين المسلمين إلى القبائل العربية ، فبالقرب من الموصل تحالف بنو ثعلبة وبنو أسد وطيىء ضد بنى مالك ومن معهم من تغلب ، وكانت الحرب تنشب بينهم سنة ٣٢١ هـ ، وتدخل حاكم الموصل الحسن بن عبد الله الحمدانى بينهم ، فقتل بنو ثعلبة أحد بنى عمه ، فقاتلهم الحسن فانهزموا وملكت بيوتهم ، وتبعهم الحسن الى الحديثة فلقيهم يأنس غلام مؤنس وقد ولى الموصل فانضم إليه بنو ثعلبه وبنو أسد وعادوا إلى ديار ربيعة (٢٠٥) وكان كل ذلك من عوامل إضعاف وحدة جمهور المسلمين ، وشغل أفكارهم ، وإبعادهم عن النظر فى أحوال الثغور الاسلامية التى تتعرض لانتهاكات البيزنطيين .

---

(٢٠٤) المصدر السابق جـ ٦ ص ٢٣٣ .

(٢٠٥) المصدر السابق .

ثانيا : بالنسبة للجانب البيزنطى :

١ - من أسباب سقوط ملطية أن الدولة البيزنطية ركزت جهودها على الحروب بين المسلمين منذ سنة ٣١٢ هـ/٩٢٤ م وجاء هذا التركيز نتيجة لتحسن الأوضاع الداخليـــــة والخارجيـــــة للدولة البيزنطية ، فمن ناحيـــة الأوضاع الداخلية استقرت هذه الأوضاع بعد القضاء على مشكلة الخلاف الدينى حول مسألة الأيقونات ، واتجـــاه الامبراطورية إلى تأييد الأيقونية سنة ٨٤٣ م / ٢٢٨ هـ (٢٠٦) .

أما الأوضاع الخارجية ، فكانت أهم المشـــاكل التى صادفت الامبراطورية قبيل هذه الفترة هى أطماع البلغار فى الأراضى البيزنطية ، ورغبتهم الحصـــول على امتيازات فى المجال التجارى وأدت تطورات الأحداث إلى نشوب معركة بين الجانبين انتهت بهزيمة البيزنطيين سنة ٣٠٥ هـ / ٩١٧ م وأصبح « سيمون » ملك البلغار مسيطرا من الناحية الفعلية على البلقان ، وظل مبعث تهديد مستمر للقسطنطينية حتى سنة ٣١٢ هـ / ٩٢٤ م (٢٠٧) ، وفى هذه السنة دخل سيمون فى مفاوضات مع البيزنطيين بعد أن أدرك صعوبة إحكام الحصار حول القسطنطينية بســبب حاجته الى أسطول

---

(٢٠٦) د . غنيم مرجع سبق ص ٨٤ ، هسى مرجع تقدم ص ١٣٦ وحاشية ٨ ، ٩

(٢٠٧) د . سليمان مرجع تقدم ص ٧٣ نقلا عن :
Obolensky' Op. Cit. PP. 110 - 111 .

قوى ، فى الوقت الذى تمكن فيه البيزنطيون من حشـــد كامل قواتهم بعد توقيع معاهدة مع الدولة العباسية فى هذه السنة (٢٠٨) .

٢ ـ إنه كان يتولى الحكم فى الفترة التى ألح فيهـا البيزنطيون بالهجوم على ملطية (٣١٢ ـ ٣٢٢ هـ) الامبراطور « رومانوس ليكابينوس » الذى عرف بالمهارة العسكرية وحسن السياسة ، والتعصب ضد المسلمين ، وبعـد أن اطمأن هذا الامبراطور من ناحية البلغار وتحسن الموقف ، اتجه إلى منطقة الثغور الاسلامية ، وأولى اهتماما بالثغور الجزرية وبملطية على وجه الخصوص ، باعتبـارها مركز الدفاع عن منطقة الجزيرة ويسهل الزحف منها إلى ثغـور الشـام .

٣ ـ التخطيط لإسـقاط المدينـة والمثـابرة لتحقيق ذلك ، وقـد بدأ هـذا التخطيـط منـذ تبين للبيزنطيين أهميتها وخطورتها ، وكان لأميرها عمر بن عبدالله الأقطع دور فى إبراز هذه الأهمية عندما كان يصـل فى غزواته البلاد البيزنطية إلى أعماق بعيدة ، ويهـزم البيزنطيين ، كما مر .

وفى مقدمة الأباطرة الذين خططوا لإسقاط هذه المدينـة

---

(٢٠٨) مسكويه مصدر سبق جـ ٥ ص ١٣٩ ، د . سليمان المرجع السابق ص ٧٦ ، ص ٧٧ .

الامبراطور ميخائيل الثالث فبعد أن تخلص من وصاية أمه « ثيودورا » وأصبح الحاكم الفعلى للامبراطورية سنة ٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م درس الموقف على الحدود الإسلامية البيزنطية ، ووجد أن الخطر يأتى من قبل ملطية وأميرها عمر بن عبد الله الأقطع ، فوضع خطة للقضاء على هذه المدينة ورأى أن ذلك لن يتأتى إلا بتوجيه ضربة إلى حلفائها من البيالصة ، ولذلك أعد جيشا للهجوم على ملطية وتفريك عاصمة البيالصة ، واستعان على تنفيذ هذه الخطة بالخداع والتمويه حيث طلب من الخليفة العباسى المتوكل فى العام السابق على تحرك جيشه عقد الهدنة ، وذلك سنة ٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م (٢٠٩) ، وما أن تحرك جيشه سنة ٢٤٦ هـ/ ٨٦٠ م حتى علم باقتراب الروس من العاصمة فعاد أدراجه ، وفشلت خطته (٢١٠) .

وكان الامبراطور باسيل الأول أكثر من غيره إلحاحا على تدمير ملطية ، والقضاء على هذه القلعة الإسلامية التى تهدد حدود بلاده وأمن أراضيها ، وقد خطط بإحكام لتحقيق هذا الهدف ، وبعد أن اطمأن إلى العلاقات السلمية مع جيرانه من الروس والبلغار فى الشمال ، ومع البندقية والألمان فى الغرب (٢١١) ، اتجه صوب البيالصة حلفاء المسلمين وأعوان أمراء ملطية ، ورأى أن يقضى على هؤلاء أولا ، وتمكن من الزحف إلى عاصمتهم ، تفريك » واستولى عليها ، كما تمكن

---

(٢٠٩) الطبرى مصدر سبق جـ ٩ ص ٢١٣ .

(٢١٠) د . سليمان مرجع تقدم جـ ١ ص ٤٤ نقلا عن :
Obolensk' Op. Cit, 182 - 183 .

(٢١١) المرجع السابق ص ٤٩ .

البيزنطيون من القبض على زعيمهم «كريسوكير» الذى كان يهاجم حينئذ أنقرة ، ونجح باسيل فى تشتيت شمل البيالصة فتحول بعضهم عن مذهبه إلى الأرثوذكسية مذهب الامبراطورية البيزنطية ، وذهب فريق منهم إلى ملطية للعمل مع المسلمين، واحتفل باسيل بهذا النصر سنة ٢٥٩ هـ / ٨٧٢ م (٢١٢) ، وبالرغم من نجاحه فى القضاء على البيالصة إلا أن ذلك لم يهيىء له النجاح فى فتح المدينة ولقى الهزيمة أمام أسوارها سنة ٢٥٩ هـ / ٨٧٢ م ، وسنة ٢٦٨ هـ / ٨٨١ م (٢١٣) وأدرك باسيل أن الامبراطورية فى حاجة إلى حلفاء يقفون معها فى هذه المنطقة حتى يتسنى لها الانتصار على المسلمين ، واتجه باسيل إلى أرمينية واعترف بآشوت البغـــراتى ملكا على أرمينية سنة ٢٧٣ هـ / ٨٨٦ م ، وتوفى باسيل فى نفس هذا العام (٢١٣) ، ولم يتوقف التخطيط لإسقاط المدينة فى عهـد ليو السادس الذى جدد الاعتراف بآشوت البغراتى ملكا على أرمينية سنة ٢٧٤ هـ / ٨٨٧ م ، وعقد معه معاهدتين إحداهما سياسية والأخرى تجارية ، وقام البيزنطيون بإنشاء ثغرين جديدين هما ثغر ليكاندوس ، وثغر أعالى العراق ، وكان ثغر ليكاندوس فى شمال ملطية شرقى قيليقيا ، والغرض من هذا الثغر قطع الاتصال المباشر بين ثغرى ملطية وطرسوس وبالتالى منع المساعدات العسكرية بينهما (٢١٥) ، ولكن

---

(٢١٢) المرجع السابق ٠

(٢١٣) الطبرى مصدر تقدم جـ ٩ ص ٥٠٦ ، ص ٦١٢ ٠

(٢١٤) حسين : د ٠ صابر محمد دياب أرمينية ص ٣ – ١٤٣ دار النهضة العربية بالقاهرة ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م ، د ٠ سليمان مرجع تقدم ص ٥٢

(٢١٥) د ٠ سليمان المرجع السابق ص ٦٩ نقلا عن :
Foord. The Byzartine Empire P. 247. london' 1911 .

تأثير هذا الثغر لم تظهر - كما يبدو - إلا بعد مدة من الزمان فقد ظل الاتصال مستمرا بين ملطية وطرسوس بالرغم من وجوده ، بل إن قوات طرسوس ذهبت إلى ملطية لتقوم بالغزو من هناك سنة ٣١١ هـ (٢١٦) ، أما ثغر أعالى العراق فيقع إلى الشمال من ملطية ، والغرض الواضح منه تسهيل وصول القوات البيزنطية والامدادات ، إلى المدينة مما يساعد على إسقاطها

ثم كانت خطة الامبراطور - رومانوس ليكابينوس » الذى تقوم على الهجوم أكثر من الدفاع وتهدف إلى الاستيلاء على الثغور الإسلامية ومهاجمة المدن التى تقع خلف هذه الثغور ، وإنشاء قوة بيزنطية حازمة فى أرمينية ، وقد هيأ الركود العسكرى والضعف الذى هيمن على الخلافة العباسية فى هذه الفترة نجاح هذه الخطة .

بدأ رومانوس تنفيذ خطته بعد أن خف الضغط العسكرى البلغارى على بلاده سنة ٣١٣ هـ / ٩٢٤ م ، وأخذ يتحسن وضع الامبراطورية العسكرى ، فأرسل إلى مدن الثغور يتوعدهم ويهددهم إن لم يدخلوا فى طاعته ، ويبذلوا له الخراج ، وأرسل قائده الكبير « كوركواس » للهجوم على ملطية سنة ٣١٣ هـ (٢١٧) ، وكرر الهجوم فى العام

---

(٢١٦) ابن الاثير مصدر سبق جـ ٦ ص ١٧٢ .
(٢١٧) الهمذانى مصدر سبق جـ ١١ من تاريخ الطبرى ص ٢٤٨ . ابن الاثير جـ ٦ ص ١٨٢ ، ابن كثير جـ ١١ ص ١٥٣ .

التالى ٣١٤ هـ / ٢٩٦ م ، ولكن البيزنطيين لم يظفروا من المدينة بشيء (٢١٨) ، وأمام هذا الفشل رأى البيزنطيون أن يدعموا التحالف بينهم وبين آشبوط الثانى (ايركات الحديدى) ملك أرمينية ، فأرسل الامبراطور جيشا لضرب مدينة « دبيل » وهى من المناطق الإسلامية فى أرمينية سنة ٣١٥ هـ / ٩٢٧ م ، بقيادة كوركواس ، ولكن هذا الجيش هزم ، وقتل منه عشرة آلاف جندى (٢١٩) ٠

وفى العام التالى وصل جيش ضخم إلى جنوب أرمينية بزعامة كوركواس ، وحاصر « أخلاط » وتمكن من دخول المدينة ، وأخرج المنبر من الجامع وجعل مكانه صليبا وفعل بمدينة بدليس كذلك ، وخافه أهل أرزن وغيرهم ففارقوا بلادهم وانحدر أعيانهم إلى بغداد يستغيثون فلم يغثهم أحد(٢٢٠)٠

وكان الغرض من هذه الحملات التى اتسمت بروح التعصب البغيض ، استمالة الأرمن ، والأمل فى مساعدتهم ضد ملطية وغيرها من الثغور الاسلامية ، بالاضافة إلى النيل من المسلمين والقضاء على نفوذهم فى هذه المناطق ، والرغبة فى ضم هذه المناطق ـ فيما بعد ـ إلى إمبراطوريتهم ٠

وقد أتت سياسة البيزنطيين تجاه أرمينية ثمارها ،

---

(٢١٨) ابن الاثير : المصدر السابق ج ٦ ص ١٧٥ ٠

(٢١٩) المصدر السابق ج ٦ ص ١٩٨ ٠

(٢٢٠) المصدر السابق ج ٦ ص ١٩٩

وساعد على نجاح هذه السياسة الحملات الإسـلامية التى شنها يوسف الساجى وغيره من الولاة المسلمين على بعض أجزاء من ارمينية ، وكتب البطريك الأرمنى « هوفهانيس الخامس » إلى الامبراطور البيزنطى « قسطنطين السابع » وشريكه الامبراطور « رومانوس ليكابينوس » رسالة يوضح فيها أن أمل ارمينية معقود على بيزنطية فى محاربة المسلمين والأخذ بثأرها منهم ، واعتبر البطريرك تدخل امبراطـور بيزنطة – الذى توجه يسوع المسيح – حربا صليبية ، وصرح بأنه يتحدث باسم الباجراتيين – جزء من الشعب الأرمنى – وسائر أمراء البلاد ٠

وتلقى الامبراطور البيزنطى هذه الرسالة بسرور بالغ ، لأنها فتحت دروب بابا طال انتظارهم امامه ، وارسـل فى الحال مبعوثا بيزنطيا إلى الملك الارمنى « اشوط الثانى » محمـلا بالهـدايا ، ومعه صيغة تحـالف بيزنطى أرمنى (٢٢١)

ومن وسائل البيزنطيين للإيقاع بملطية فى هذه الفترة استخدام الحيلة والخديعة ، فقد بعث القائد البيزنطى «مليح الأرمنى » سنة ٣١٦ هـ / ٩٢٧ م بسبعمائة رجل من الروم والأرمن إلى ملطية ، ومعهم الفؤوس والمعاول ، وأظهروا أنهم يتكسبون بالعمل حتى يستقروا فى المدينة ، فإذا جاء الروم

---

(٢٢١) حسين : د ٠ صابر دياب مرجع تقدم ص ١٨٥ ، ص ١٨٦ ٠

لحصارها عاونوهم من الداخل ، وعملوا على تسليم المدينة إليهم ، واكتشف أهل ملطية الخدعة فقتلوهم ، وأخذوا ما معهم (٢٢٢) .

وبعد ان وثق البيزنطيون من تحالف الأرمن معهم ، تقدم كوركواس سنة ٣٢٢ هـ بجيشه إلى المدينة ، واثقا من تحقيق النصر هذه المرة ، وكانت الأحوال المضطربة للجانب الاسلامى من أسباب هذه الثقة ، ومع ذلك لم يكن سقوط المدينة من السهولة بمكان لولا اعتماد البيزنطيين على الحصار الطويل الذى أدى إلى موت أكثر أهلها من شدة الجوع (٢٢٣) .

نظرة وتعقيب فى الختام :

هذه صورة لجهاد شعب ملطية ، وصفحة من تاريخ أمتنا الإسلامية كساها الاشراق والفخار فى معظم سطورها وجللها سوء النهاية بوشاح من الندم والأسى فى بقية سطورها ، ولكن يجب ألا تجعلنا سوء نهاية ثغر ملطية نحكم على العالم الإسلامى آنئذ بالضعف والانحلال ، بل لابد من النظر إلى العالم الاسلامى نظرة عامة شاملة ، وسوف نرى أنه فى الوقت الذى كانت فيه بلاد المشرق الإسلامى تشهد مرحلة من الضعف السياسى والعسكرى أطمع فيها أعداؤها من

---

(٢٢٢) المصدر السابق .

(٢٢٣) المصدر السابق .. ٦ ص ٢٤٣ .

البيزنطيين ، وجرأتهم على اقتطاع ثغورهم ، فإن الوضع فى المغرب الاسلامى كان مختلفا تماما ، فاسطول الدولة الفاطمية الفتية فى البحر المتوسط يحرز الانتصارات تلو الانتصارات على امم الفرنجة ، وكانت جزيرة صقلية - فى معظمها - تابعة للفاطميين ، وفى سنة ٣١٣ هـ سار جيش صقلية مع أميرهم سالم بن راشد إلى أرض انكبرده - لومبارديا - ودعم الخليفة المهدى الفاطمى (٢٩٧ - ٣٢٢ هـ / ٩٠٩ - ٩٣٤) هذا الجيش بجيش آخر من أفريقيا، وتمكنت هذه القوة الاسلامية من فتح جهات كثيرة ثم عادت إلى صقلية ، وسارت منها إلى أرض قلورية - جنوب إيطاليا - وقصدوا مدينة طارنت فحاصروها ، وفتحوها بالسيف فى شهر رمضان ، ووصلوا مدينة أدرنت فحاصرها وخربوا منازلها ، وواصل أهل صقلية المسلمون الإغارة على ما بأيدى الروم من جزيرة صقلية وقلورية (٢٢٤) ، كما أرسل الخليفة المهدى حملة بحرية سنة ٣١٥ هـ بقيادة « صابر الفتى » أغارت على قلورية وسواحل الروم ، وأرسل حملة أخرى بقيادة « صابر » أيضا سنة ٣١٦ هـ فتحت بعض الجهات ثم سارت الى مدينة (نابل) فدفع أهلها الجزية (٢٢٥) .

وبعث الخليفة القائم الفاطمى بجيش إلى جنوة سنة

---

(٢٢٤) ابن الاثير المصدر السابق جـ ٦ ص ١٨٢ .

(٢٢٥) ابن عذارى المراكشى : ابو عبد الله محمد البيان المغرب فى اخبار الأندلس والمغرب جـ ١ ص ١٩٨ نشر دوزى ليدن ١٨٤٨ - ١٨٥١ م . د . حسن ابراهيم تاريخ الدولة الفاطمية مرجع سبق ص ٦١٢ .

٣٢٢ هـ فسبى وغنم (٢٢٦) ، ويبـــدو أنهـــا كانت حملة استطلاعية ، ففى العام التالى ٣٢٣ هـ سير الخليفة القـائم أسطولا من أفريقية تمكن من فتح مدينة جنوة ، ومر بسردانيه فأوقع بأهلها ، وأحرق مراكب كثيرة ، ومر هذا الأســطول الفاطمى بقرقيسيا - قورسقة - فأحرق مراكبهـــا وعـاد سـالما (٢٢٧) .

وكانت بلاد الأندلس تزهو بدولة الأمويين ، وبخاصة فى عهد عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ / ٩١٢ - ٩٦١م) الذى استطاع أن يحوز احترام الممالك الأوربية وتقديرهم ، وتبادل السفارات والهدايا معهم (٢٢٨) ، وتمكن من صيانة حدود دولته من غارات المغيرين ، واستطاع أن يكبح جماح القوى الأسبانية المسيحية فى الشـمال . وخرج على رأس جيوشه وخاض ضدهم حروبا كثيرة ، وهدم حصونهـم ، واستعاد بلاد كثيرة ، وقد اشتهرت الأندلس فى عهده بالرقى والازدهار الداخلى والمنشآت المعمارية الكثيرة (٢٢٩) .

---

(٢٢٦) ابن الاثير جـ ٦ ص ٢٣٨ .

(٢٢٧) المصدر السابق جـ ٦ ص ٢٤٩ ، د . حسن ابراهيم تاريخ الدلوة الفاطمية مرجع تقدم ص ١١١ .

(٢٢٨) ابن عذارى مصدر سبق جـ ٢ ص ٢١٣ - ٢١٥ ، ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد . العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ ٤ ص ١٤٣ بولاق القاهرة ١٢٨٤ هـ ١٨٦٧ .

(٢٢٩) العبادى مرجع تقدم ص ٢١٠ ، ٢١٥ ، ٢١٨ .

وإذا تجاوزنا النواحى السياسية والعسكرية للعالم الإسلامى فى هذه الفترة من القرن الرابع الهجرى إلى الناحية الحضارية ، نجد أن القرن الرابع الهجرى — باعتراف أغلب الباحثين — كان قرن ازدهار الحضارة الإسلامية فى شتى النواحى (٢٢٠) .

وأخيرا فإن ملطية لم تبق طويلا فى أسر الروم ، ولم يظل المشرق الإسلامى غارقا فى ضعفه السياسى وعجزه العسكرى، فقد برزت قوة جديدة من داخل العالم الإسلامى أعادت للدولة الاسلامية شبابها ، وأمجادها العسكرية ، هذه القوة هى الأتراك السلاجقة (٢٣١) ، وبعد أن استتب لهم الأمر بدخول عاصمة الخلافة سنة ٤٤٧ هـ وتسلمهم مقاليد الأمور أخذوا فى الإغارة على أطراف الدولة البيزنطية وتعرضت ملطية لغارات هؤلاء السلاجقة حتى سقطت فى أيديهم ، ولعل أول هذه الغارات تلك التى قام بها القائد السلجوقى « دينار » سنة ٤٤٨ هـ / ١٠٥٧ م (٢٣٢) ، وكان للسلاجقة التفوق

---

(٢٣٠) انظر فى ذلك : اوبون : جوستاف • حضارة العرب ترجمة عادل وعيتر مطبعة عيسى الحلبى بدون تاريخ ، متز : آدم الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة دار الكتاب العربى بيروت ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م ، د/حسن ابراهيم تاريخ الاسلام مرجع تقدم •

(٢٣١) نزح هؤلاء الاتراك الى بلاد العالم الاسلامى من تركستان فى أواخر القرن العاشر الميلادى (الرابع الهجرى) واصبحوا قوة سياسية وعسكرية يخشى بأسها ، وتمكنوا من دخول بغداد سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م وتمكنوا من السيطرة على مقاليد الامور فى الدولة العباسية ولم يكن للخليفة سوى الزعامة الروحية • انظر ابن الاثير جـ ٨ فى مواضع متفرقة د • عاشور أوربا العصور الوسطى مرجع تقدم جـ ١ ص ٣٩٦ ، ص ٣٩٧ •

(٢٣٢) د • سليمان مرجع تقدم جـ ١ ص ٢٢٥ •

[illegible] البيزنطيين في هذه الفترة ، ونتمكن [illegible]
[illegible]
[illegible] في موقعة (منزكرت) سنة [illegible]
١٠٧١ م حتى [illegible] الامبراطور [illegible]
[illegible] ١٠٧١ م [illegible]
[illegible] السلاجقة في التوسع [illegible]
[illegible] البيزنطي ، وتمكن القائد السلاجقي [illegible]
[illegible] من التوغل في اسيا الصغرى ، ونشر في [illegible]
[illegible] دولة الروم السلاجقة التي امتدت شمالا حتى
[illegible] البحر الاسود وجنوبا حتى البحر المتوسط ،
وتوسعت غربا كذلك دون ان يتمكن البيزنطيين [illegible]
[illegible] (٢٣٤) ٠

---

(٢٣٣) ابن الاثير جـ ٨ ص ١٠٩ ، ١١٠ ، د ٠ عاشور اوربا العصور الوسطى مرجع تقدم جـ ١ ص ٣٩٨ ، يوسف : د ٠ جوزيف مرجع سبق ص ٢٠١ ، ٢٠٢ ٠

(٢٣٤) ابن الاثير المصدر السابق جـ ٨ ص ١٣٦ د ٠ عاشور المرجع السابق ٠

المصـــادر والمـراجع والمعـــاجم

أولا : المصـــــادر :

ابن الأثير : أبو الحسن على بن أبى الكرم محمد ...
الشيبانى (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م).

١ ــ الكامل فى التاريخ ــ دار الفكر بيروت ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م

البلاذرى) أبو الحسن أحمد بن يحيى البغـــدادى
(ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م)

٢ ــ فتوح البـــلدان ــ دار الكتب العلميـــة بيروت
١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م

ابن تغرى بردى : جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن
تغرى بدوى (٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م)

٣ ــ النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة .. ...
١٣٥٢ ــ ١٣٥٨ هـ / ١٩٣٢ ــ ١٩٣٩ م

الحموى : أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله ...
الرومى (٦٢١ هـ / ١٢٢٨ م)

٤ ــ معجم البلدان ــ دار إحياء التراث العـــربى بيروت
بدون تاريخ

ابن حوقل : أبو القاسم محمد بن حوقل النصيبي (ت ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م)

٥ ـ صورة الأرض ـ نشر كرامر ضمن المجموعة الجغرافية العربية ـ الطبعة الثانية ليدن ١٩٣٨ ـ ١٩٣٩ م

ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي (ت ٨٠٨ هـ ـ ١٤٠٥ م)

٦ ـ العبر وديوان المبتدأ والخبر ـ بولاق القاهرة ١٢٨٤هـ ١٨٦٧ م

ابن طباطبا : محمد بن على المعروف بالطقطقى (ت ٧٠٩ هـ / ١٣٠٩ م)

٧ ـ الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الاسلامية المطبعة الرحمانية ـ القاهرة ١٣٤٥ هـ / ١٩٢٧ م

الطبرى : أبو جعفر محمد بن جرير بن زيد (ت ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م)

٨ ـ تاريخ الرسل والملوك ـ تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ـ الطبعة الثانية ـ دار المعارف ـ ١٦٧٠ ـ ١٩٧٦ م

ابن العديم : كمال الدين أبو حفص عمر بن أحمد هبة الله (ت ٦٦٠ هـ / ١٢٦٢ م)

٩ ـ بغية الطلب فى تاريخ حلب ـ مخطوط مصور بدار الكتب ـ القاهرة تحت رقم ١٥٦٦ تاريخ

ابن عذارى المراكشى : أبو عبد الله محمد (ت أواخر القرن السابع الهجرى)

١٠ - البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب - تحقيق كولان وليفى بروفنسال - دار الثقافة بيروت ١٩٦٧

قدامة بن جعفر (ت القرن الرابع الهجرى)

١١ - نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة ، ضمن المسالك والممالك لابن خرداذبة ليدن ١٩٦٧ م

القرطبى : عريب بن سعد (ت حوالى سنة ٣٣١ هـ / ٩٤٢ م)

١٢ - صلة تاريخ الطبرى فى الجزء الحادى عشر من تاريخ الطبرى ، دار المعارف - القاهرة ١٩٧٧ م

ابن كثير : عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير القرشى الدمشقى (ت ٧٧٤ هـ / ١٣٨٢ م)

١٣ - البداية والنهاية - الطبعة الأولى - دار الفكر العربى - القاهرة ١٣٥١ هـ / ١٩٣٣ م

الكندى : أبو عمر محمد بن يوسف (ت ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م)

١٤ - ولاة مصر - تحقيق د . حسين نصار - دار صادر بيروت - بدون تاريخ

المسعودى : أبو الحسن على بن الحسين (ت ٣٤٦ هـ / ٩٥٦ م)

١٥ – التنبيه والاشراف – دار التراث بيروت ١٩٦٨ م

١٦ – مروج الذهب ومعادن الجوهر – المطبعة البهية القاهرة ١٣٤٦ هـ

مسكويه : أبو على أحمد بن محمد بن يعقوب (ت ٤٢١ هـ / ١٠٣٠ م)

١٧ – تجارب الأمم وتعاقب الهمم – القاهرة ١٩١٤ م

الهمذانى : محمد بن عبد الملك (ت ٥٢١ هـ / ١١٢٧ م)

١٨ – تكملة تاريخ الطبرى ضمن الجزء الحادى عشر من تاريخ الطبرى – دار المعارف – القاهرة ١٩٧٧ م

اليعقوبى : أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن وهب ابن واضح (ت ٢٨٤ هـ / ٨٩٧ م)

١٩ – تاريخ اليعقوبى – دار صادر بيروت – بدون تاريخ

ثانيا : المراجع :

حسن : د • حسن ابراهيم

٢٠ – تاريخ الدولة الفاطمية – الطبعة الرابعة – مكتبة النهضة المصرية – القاهرة ١٩٨١ م

٢١ — تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى — الطبعة العاشرة — مكتبة النهضة المصرية ١٩٨٢ م

حسنين : د • محمد صابر دياب

٢٢ — أرمينية من الفتح الإسلامى إلى مستهل القرن الخامس الهجرى — دار النهضة العربية — القاهرة ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م

الخضرى : الشيخ محمد

٢٣ — محاضرات فى تاريخ الأمم الإسلامية (الدولة الأموية) الطبعة الرابعة — المطبعة الاستقامة — القاهرة ١٣٥٣ هـ / ١٩٣٤ م

رنسيمان : ستيفن

٢٤ — الحضارة البيزنطية — ترجمة عبد العزيز جاويد مكتبة النهضة المصرية — القاهرة ١٩٦١ م

سليمان : د • أحمد عبد الكريم

٢٥ — المسلمون والبيزنطيون فى شرقى البحر المتوسط الطبعة الأولى — مطبعة السعادة — القاهرة ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م

٢٧ — فى تاريخ المغرب والاندلس — مؤسسة الثقافة الجامعية — الاسكندرية — بدون تاريخ

عثمان : د • فتحى

٢٨ — الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربى والاتصال الحضارى — الدار القومية للطباعة والنشر — القاهرة ١٩٦٦ م

العرينى : د • السيد الباز

٢٩ — أجناد الروم — مكتبة نهضة مصر — القاهرة ١٩٥٦ م

غنيم : د . إسمت
٣٠ - الامبراطورية البيزنطية وكريت الإسلامية - نشر المجمع العلمى بجدة ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م

نوبون : جوستاف
٣١ - حضارة العرب - ترجمة عادل زعيتر - مطبعة عيسى الحلبى - القاهرة - بدون تاريخ

متز : آدم
٣٢ - الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى - ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريده - الطبعة الرابعة - دار الكتاب العربى - بيروت ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م

محمود : د . حسن أحمد و د . أحمد ابراهيم الشريف
٣٣ - العالم الإسلامى فى العصر العباسى - الطبعة الخامسة - دار الفكر العربى - القاهرة - بدون تاريخ

هسى : ج . م
٣٤ - العالم البيزنطى - ترجمة د . رأفت عبد الحميد - الطبعة الثانية - دار المعارف - القاهرة - ١٩٨٢ م
يوسف : د . جوزيف نسيم
٣٥ - تاريخ الدولة البيزنطية - دار المعرفة الجامعية الاسكندرية ١٩٨٨ م

ثالثا : المعاجم :

الرازى : محمد بن أبى بكر
٣٦ - مختار الصحاح - الطبعة الأولى - المطبعة الشرقية بمصر المحمية .. القاهرة ١٣٠١ هـ .

جامعة الأزهـــر
كلية اللغة العربيـــة
بإيتـــاى البارود

تـــاء التـــأنيث
خصـــائصها وأغراضها

بقـــلم
د. وجيه عبد العزيز زيادة
المدرس بقسم اللغويات بالكلية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - وعلى آله وصحبه أجمعين ، وبعد :

فإن موضوع « المذكر والمؤنث » من الموضوعات التى حظيت باهتمام كبير من علماء اللغة والنحو على السواء ، فقد تناوله بالدراسة كثير منهم فى طيات كتبهم ، بل افرد له بعضهم المؤلفات المستقلة ، كالفراء ، وأبى عبيد القاسم ابن سلام ، وأبى حاتم السجستانى ، والمبرد ، والزجاج ، وابن خالويه ، وابن الأنبارى ، وابن جنى وغيرهم .

ومرجع تلك العناية الى ما يمثله هذا الموضوع من أهمية كبيرة فى صيانة اللغة ، وما يلعبه من دور فعال فى حفظ اللسان من اللحن والانحراف ، فالنحو - عند حذاق النحاة - ليس مقصورا على معرفة أواخر الكلم إعرابا وبناء - كما يتوهم بعض المتوهمين - وإنما هو أرحب أفقا ، وأوسع دائرة من ذلك بكثير ، فالنحو فى مفهومه الحقيق وحده الجامع هو : « علم يعرف به أحوال الكلم العربى من حيث الإعراب والبناء ، والتعريف والتنكير ، والتقديم والتأخير ، والذكر والحذف ، والاتصال والانفصال ،

والتذكير والتأنيث ، والتعدى واللزوم ، وما إلى ذلك مما يدخل فى تنظيم الجملة وإصلاح الكلام » .

وليس أدل على صحة هذا التعريف ، وانطباقه على ما تناوله العلماء الأجلاء من موضوعات فى علم النحو - من قول أبى بكر بن الأنبارى فى صدر كتابه «المذكر والمؤنث» : (اعلم أن من تمام معرفة النحو والإعراب ، معرفة المذكر والمؤنث ، من ذكر مؤنثا ، أو أنث مذكرا كان العيب لازما له كلزومه من نصب مرفوعا ، أو خفض منصوبا ، أو نصب مخفوضا)(١)

هذا ، ومما هو جدير بالذكر أن ظاهرة التأنيث والتذكير فى لغتنا العربية ، تعد فضيلة من فضائلها المتعددة ، وواحدة من أهم سماتها التى ميزتها على غيرها من سائر اللغات ، فبينما نرى عددا من اللغات كالتركية والفارسية لا يفرق فيها بين المذكر والمؤنث بفارق لفظى ، بل بالقرائن غير اللفظية (٢) - نجد أن فى لغتنا من العلامات التى يميز بها المؤنث من المذكر ما أوصله البعض الى خمس عشرة علامة (٣) .

---

(١) المذكر والمؤنث لأبى بكر بن محمد الأنبارى : ٥١ .

(٢) حاشية الصبان على شرح الأشمونى : ٤/ ٩٤ .

(٣) ثمان فى الأسماء : الهاء ، والألف الممدودة ، والمقصورة ، تاء الجمع فى الهندات ، والكسرة فى أنت ، والنون فى أنتن وهن ، والتاء فى أخت وبنت ، والياء فى هذى - وأربع فى الأفعال التاء الساكنة وياء المخاطبة ، والكسرة فى قمت ، ونون النسوة - وثلاث فى الأدوات : التاء فى ربت وثمت ، والهاء فى هيهات ، والألف والهاء فى أنها هند قائمة الأشباه والنظائر فى النحو للسيوطى : ٢/ ١٢٩ .

هذا الى جانب أنماط عديدة من الأسماء والصفات تنفرد بأحوال خاصة ، فمنها ما يشترك فيه المذكر والمؤنث ، ومنها ما جرد من علامة التأنيث وهو خاص بالمؤنث ، ومنها ما لحقته علامة تأنيث وهو خاص بالمذكر ، الى غير ذلك من أمور ترجح شأن تلك اللغة وتعلى قدرها ٠

وفى الصفحات التالية سنتناول واحدة من تلك العلامات التى وضعت للفرق بين المؤنث والمذكر ، وهى « تاء التأنيث » بقصد التعرف على أهم خصائصها وأحكامها ، وسرد معانيها وأغراضهــــا ٠

وسر اختيار تلك العلامة ــ دون غيرها من العلامات ــ هو كونها أكثر وأظهر دلالة من غيرها ، كما أنها ــ الى جانب ذلك ــ تحمل العديد من المعانى والأغراض كالفرق بين الواحد والجنس ، والمبالغة ، وتأكيد المبالغة ، وغير ذلك مما سيتضح فيمــــا يأتى :

اولا - التأنيث وأنواعه :

يمكن حصر أنواع التأنيث وأقسامه فى ستة أنواع هى :

١ - المؤنث الحقيقى : وهو الذى يلد ويتناسل ، ولابد له من علامة تأنيث ظاهرة أو مقدرة مثل : « فاطمة ، لبنى ، هند، عصفورة ، عقاب » (٤) .

٢ - المؤنث المجازى : وهو الذى لا يلد ولا يتناسل ، سواء أكان مختوما بعلامة تأنيث ظاهرة مثل : « ورقة ، وسفينة » أم مقدرة مثل : « دار وشمس » .

٣ - المؤنث اللفظى : وهو ما اشتمل على علامة تأنيث ظاهرة ، ومدلوله مذكر مثل : « حمزة وأسامة »

٤ - المؤنث المعنوى : وهو ما كان مدلوله مؤنثا حقيقيا أو مجازيا ، وكان خاليا من علامة التأنيث نحو : « زينب وعناق ، وعين وبئر » .

---

(٤) العقاب - بضم العين - من الطيور الجارحة مؤنثة ، وقيل يقع على الذكر والانثى ، والجمع : أعقب وأعقبه وعقبان ، وجمع الجمع : عقابين .

٥ ـ المؤنث الحكمي : وهـــو ما كانت صيغته مذكرة ، ولكنها أضيفت الى مؤنث فاكتسبت منه التأنيث ، وذلك نحو لفظ « كل وبعض » فى قوله تعالى : « وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد » (٥) وقـــوله عز وجـــل : « يلتقطه بعض السيارة » (٦) فيمن قرأ (٧) « تلتقطه » بالتاء ، فإن اللفظين المذكورين ـ كل وبعض ـ مذكران فى الأصل واكتسبا التأنيث مما أضيفا اليه ، فقد ذكر النحاة من الأمور التى يكتسبهـــا الاسم بالإضافة تانيث المذكر وتذكير المؤنث (٨) ٠

٦ ـ المؤنث التأويلى : وهو نوع آخر من التأنيث تكون الكلمة فيه مذكرة المدلول ، ولكن يراد ـ لسبب ما ـ تأنيثها ، حكى الأصمعى عن أبى عمرو بن العلاء قال : سمعت أعرابيـــا يمانيا يقول : فلان لغوب جاءته كتابى فاحتقرها ، فقلت له : أتقول : « جاءته كتابى » ؟ فقال : أليس بصحيفة ؟ (٩) ٠

والتراث العربى حافل بأمثلة عديدة من هذا النوع ـ نثرا وشعرا ـ فمن شواهده الشعرية قول رويشد بن كثير الطائى :

---

(٥) ق : ٢١ ٠

(٦) يوسف : ١٠

(٧) الكشاف : ٢/٢٤٤ ، قال الزمخشرى : « وقرىء (تلتقطه) بالتاء على المعنى ، لأن بعض السيارة سيارة ، كقوله : كما شرقت صدر القناة من الدم ٠ ومنه : ذهبت بعض اصابعه » أ هـ ٠

(٨) المغنى ٢/٥١٢ ٠

(٩) الانصاف فى مسائل الخلاف لأبى البركات الأنبارى : ٢/٧٦٢ المسألة « ١١١ » ٠

يا أيها الراكب المزجي مطيتـــه
سائل بني أسد ما هذه الصوت (١٠)

فقال « هذه » لأن الصوت في معنى الصيحة ، ويطلق عليه لفظ الجلبة أو الضوضاء ، وقد جاء عكسه أيضا — إطلاق المذكر على المؤنث — ومنه قول القائل :

قامت تبكيـــه على قبـــره
من لي من بعـــــدك يا عامر

تركتني في الدار ذا غـــربة
قـــد ذل من ليس له ناصر (١١)

قال « ذا غربة » ولم يقل « ذات غربة » على تأويل المرأة بإنســـان .

هذا ·· وقد اختلفت وجهات نظر العلماء في هذا النوع ،

---

(١٠) البيت من البسيط ، المزجي : السائق · وجملة « ما هـــذه الصوت » في موضع المفعول للفعل « سائل » وموضع الاستشهاد قوله « هذه الصوت » حيث أشار باسم الاشارة للمؤنثة الى المذكر ، وقد خرج على الحمل على المعنى ، وتأويل الصوت بالاستغاثة ونحوها · الخصائص ٤١٦/٢ ، وابن يعيش : ٩٥/٥ ، ٩٦ ، والانصاف ٧٧٣/٢١ ·

(١١) البيتان من السريع ، ومحل الاستشهاد « ذا غربة » فانه كان ينبغي ان يقول « ذات غربة » لأن الحديث على لسان امرأة ، فأجرى الكلام على المعنى المذكر والمؤنث لابن الأنباري : ١٤٧/١ ، واللسان « ج م ر » والانصاف : ٥٠٧/٢ ، ٧٦٣ وابن يعيش : ١٠٧/٥

فالأنباري يرى أنه نوع من الحمل على المعنى (١٢) ، وعده ابن عصفور من الضرائر ولم يفرق بين تذكيـــر المؤنث وتأنيث المذكر (١٣) ، أما ابن جنى فقد فرق بين النوعين من حيث تسويغ الاستعمال ، فجعل من قبيح الضرورة تأنيث المذكر ، لأنه خروج عن أصل الى فرع ، وإنما المستجاز – عنده – رد التأنيث الى التذكير ، لأن التذكير هو الأصل ، وتبعه فى ذلك ابن يعيش (١٤) .

ومن هذا المنطلق صح ما شاع فى زماننا هذا من إطلاق الأسماء المذكرة على بعض الصحف والمجلات ، نحو : « المنبر والمساء والعربى » وغيرها .

وهذا النوع يجوز فيه مراعاة كل من لفظه ومعناه ، فيذكر بحسب اللفظ ، ويؤنث بحسب المعنى ، إلا أنه من الخير أن نقتصر على صيغة اللفظ قدر الاستطاعة ، منعا للالتباس ، فإن هذا المنع غرض لغوى من أهم أغراض اللغة .

---

(١٢) الانصاف : ٧٦٢/٢ .

(١٣) الضرائر لابن عصفور : ٢٧٠ .

(١٤) سر صناعة الاعراب لابن جنى : ١٣/١ وابن يعيش : ٩٦/٥ .

ثانيا ـ تاء التأنيث وأحكامها :

بعد هذا العرض الموجز لأنواع التأنيث وأقسـامه المختلفة ، يحسن بنا أن نلم إلماما سريعا بأحكام عـلامته الأساسية وهى التاء ، ويمكن حصر تلك الأحكام فى الأمور التاليـة :

١ ـ اختصاصها بالأسماء :

وذلك أننا نعنى بها تلك التاء المتحركة التى تلحق آخـر الاسم ، وتنقلب فى الوقف هاء . وسر اختصاصها بالأسـماء إنما يكمن فى أن الذى يؤنث ويذكر من أنواع الكلم الثلاثة ـ الاسم والفعل والحرف ـ هو الاسم ، حيث يدل على مسميات تكون مذكرة ومؤنثة ، بخلاف الفعل والحرف ، فالفعـل موضوع للدلالة على نسبة الحدث الى الفاعل أو المفعول ، فلما لم يكن فى الحقيقة بإزاء مسميات لم يدخله التأنيث ، كما أن مدلوله الحدث ، والحدث جنس والجنس مذكر (١) .

أما التاء التى تلحق آخر الفعل الماضى وأول المضارع ، فإنما هى أمارة على تأنيث الفاعل ، لذا يقول الرضى : « وتاء التأنيث فى الاسم أصل ، وما فى الفعل فرعه ، لأنه يلحـق

---

(١٥) ابن يعيش : ٥/٨٨ ، والأشباه والنظائر : ٢/١٢٠

الفعل لتأنيث الاسم : أى فاعله ، وأصل العلامة أن تلحق كلمة هى علامة لها » (١٦) .

وأما الحروف ، فلأنها لا تدل على معنى تحتها ـ على حد تعبير ابن يعيش ـ وإنما تجىء لمعنى فى الاسم والفعل . فهى لذلك فى تقدير الجزء منهما ، وجزء الشىء لا يؤنث (١٧) .

يستثنى من ذلك ما ورد من لحاق التاء بعض الحروف نحو : « لات وثمت وربت ولعلت »

هذا .. والمراد بالأسماء التى تلحقها تلك التاء ، إنما هى الأسماء المعربة ، أما الأسماء المبنية أصالة كالضمائر وأسماء الإشارة ونحوهما ، فلها علامات أخرى مثل كسر التاء فى « أنت » والنون المشددة فى « هن » وغير ذلك (١٨) .

---

(١٦) شرح الكافية : ٢/١٦١ .
(١٧) ابن يعيش : ٥/٨٩ .
(١٨) حاشية الخضرى على ابن عقيل : ٢/١٤٥ .

الفرق بين تاء التأنيث فى الاسم والفعل والحرف :

تاء التأنيث اللاحقة للأسماء مربوطة خطا محركة لفظا بحركة الإعراب ، وتدل على تأنيث نفس الكلمة ، ويوقف عليها بالهاء ، أما اللاحقة للأفعال فتدل على تأنيث الفاعل ، ويوقف عليها بالتاء ، وهى مفتوحة خطا ساكنة لفظا ٠ وأما اللاحقة للحروف فمفتوحة خطا محركة بالفتح لفظا ، تدل على تأنيث نفس الحرف ويجوز تسكين التاء مع الحرف نادرا (١٩) ٠

٢ ـ انقلابها فى الوقف هاء :

قلنا : إن من علامات التاء اللاحقة للأسماء أنها تنقلب فى الوقف هاء ، وقد اختلف البصريون والكوفيون فى ذلك ، فذهب البصريون الى أن التاء هى الأصل ، والهاء بدل منها ٠ وقال الكوفيون : الهاء هى الأصل والتاء بدل منها ٠

وقد رجح مذهب البصريين بأن الوصل هو الأصل ، والوقف فرع ، وبأن الوصل مما تجرى فيه الأشياء على أصلها ، والوقف من مواضع التغيير ، ألا ترى أن من قال فى

---

(١٩) الكامل فى النحو واللغة للدكتور/محمد محمود هلال : ٣٤ ٠

الوقف : « هذا بكر ومررت ببكر » ـ بنقل ضمة الراء وكسرتها الى الكاف ـ إذا وصل عاد الى الأصل ، وكذلك من قال : « هذا خالد » بتشديد الدال ـ إذا وصل لا يفعل ذلك (٢٠) ٠

على أن الطائيين يجرون الوقف مجرى الوصل ، فيقولون : « هذا طلحت ، وعليك السلام والرحمت » (٢١)

كما أجروها في الوصل على حد مجراها في الوقف ، فنطقوا بها في الوصل هاء ، من ذلك ما حكاه سيبويه من قولهم في العدد « ثلاثه أربعه » وعلى هذا قالوا في الوصل : « سبسبا وكلكلا » بإبدال التنوين ألفا ، وهو قليل (٢٢) ٠

ومما يرجح مذهب البصريين أن التاء قد ورد إبدالها هاء في بعض الكلمات ، من ذلك « هيهات » في قوله عز وجل : « هيهات هيهات لما توعدون » (٢٣) حيث قرأ الكسائي والبزي بإبدال التاء هاء في الوقف ، ومنها « لات » في قوله تعالى : « ولات حين مناص » (٢٤) فقد قرأها بالهاء في الوقف الكسائي أيضا ٠

---

(٢٠) ابن يعيش : ٥/٨٩ ٠
(٢١) السابق والمذكر والمؤنث لابن الأنبارى : ١/٢٠٠ ٠
(٢٢) ابن يعيش : ٥/٨٩ ٠
(٢٣) المؤمنون : ٣٦ والنشر : ٢/١٣ ٠

٣ - بناؤها على العروض والانفصال :

مما تميزت به التاء عن غيرها من العلامات ، أنها تدخل - فى غالب الأمر - كالمنفصلة مما دخلت عليه ، لأنها تدخل على اسم تام الفائدة لإحداث معنى آخر وهو التأنيث ، فكانت كاسم ضم الى اسم آخر ، فهى تشبه عجز المركب فى نحو « بعلبك وحضرموت » بدليل فتح ما قبلها كما يفتح صدر المركب المزجى ، وعند تصغير ما فيه التاء فإننا نصغر الاسم مستقلا عن التاء ، كما نصغر صدر هذا المركب . كما انها تحذف عند تكسير الكلمة فنقول فى جمع « جفنة وقصعة » جمع تكسير : « جفان وقصاع » أما الألف - مثلا - فهى بخلاف ذلك ، فإنها تثبت فى التكسير ، فنقول فى جمع « حبلى وسكرى » جمع تكسير « حبالى وسكارى » ، لأن الكلمة بنيت عليها بناء سائر حروفها (٢٥) .

قال ابن الأنبارى : (والفرق بين الألف والهاء ، أن الذى فيه الهاء خرج بها عن التذكير الى التأنيث ، والأصل التذكير ، وذلك أنك تقول : « قائم وقائمة وجالس وجالسة ، فتكون الهاء مزيدة على بناء المذكر .

والذى فيه ألف تأنيث هو مصوغ للتأنيث على غير تذكير

---

(٢٤) ص : ٣ والاتحاف : ٣٧١ .
(٢٥) ابن يعيش : ٥/٩٠ .

خرج منه ، فامتنع من الإجراء ـ الصرف ـ فى المعرفة والنكرة لبعده من المذكر الذى هو الأصل ٠

ألا ترى أن « قائمة » على بناء « قائم » ، و « حمراء » ليست على بناء « أحمر » ، و « عطشى وسكرى » ليستا على بناء « عطشان وسكران » (٢٦) .

هذا ... وقد تأتى التاء كاللازمة ، كأن الكلمة بنيت عليها ، فتكون كحرف من حروف الاسم صنيغ عليه ، وذلك نحو : « غباوة ونهاية وشقاوة » ولذا لم تعل كل من الواو والياء بالقلب همزة ، للزوم التاء مما ترتب عليه بعدهما عن الطرف .

ومثل ذلك ـ أيضا ـ قولهم : « قمحدوه(٢٧) وترقوة(٢٨) » فلولا بناء الكلمة على التأنيث لوجب قلب الواو ياء ، لوقوعها طرفا حكما وانضمام ما قبلها ، إذ ليس فى الأسماء ما آخره ولو قبلها ضمة (٢٩) ٠

ولذلك ـ أيضا ـ جاز القلب والتصحيح فى نحو

---

(٢٦) المذكر والمؤنث : ٢٠٢/١ ، ٢٠٣ ٠
(٢٧) القمحدوة : الهنة الناشزة فوق القفا ٠
(٢٨) الترقوة : العظم المشرف بين ثغرة النحر والعاتق ٠
(٢٩) الرضى على الكافية : ١٦٣/٢ ، وابن يعيش : ٩٩/٥ ٠
(٣٠) العظاءة : دويبة أكبر من الوزغة ٠

« عباءة وعظاءة (٣٠) وصلاءة » (٣١) ، فالتصحيح بناء على أن الكلمات بنيت على التأنيث ، وأن التاء جزء منها ، وأما القلب فبناء على عروض التاء ، حيث قالوا فى الجمع : « عباء وعظاء وصلاء » بالقلب وجوبا ، فإذا أرادوا إفراد الواحد من الجنس ، أدخلوا عليه تاء التأنيث ، وقدروها منفصلة فثبتت الهمزة لذلك (٣٢) ·

٤ - دخولها على المذكر :

مما تميزت به هذه العلامة - أيضا - أنهـــا لا تختص بدخولها على المؤنث ، بل تدخل على المذكر فى نحو : « علامة راوية وهمزة » وغير ذلك لأغراض سيأتى الحديث عنهـا قريبا ، ولذلك يقول ابن الأنبارى : « والمدة والألف المقصورة لا تكونان فى نعت المذكر أبدا ، والهـــاء قد تكون فى نعت المذكر » (٣٣) .

وأما ما ورد من قولهم : « حمار جمزى » - سريع وثاب - فقد خرجه الأزهرى على تقدير حمـــــار ذى جمزى ، أى ذى مشية جمزى ، أى على أنه مصدر وصف به على تقدير حذف المضاف والموصوف ، نقل ذلك ابن منظور (٣٤) ·

---

(٣١) الصلاءة : مدق الطيب ونحوه وهى أيضا القهر ·
(٣٢) ابن يعيش : ٥١/٩٩ ·
(٣٣) المذكر والمؤنث : ١/٢٠٠ ، ٢٠١ ·
(٣٤) اللسان : « ج م ز » ·

٥ ـ مراعاتها ظاهرة ومقدرة :

مما تفردت به التاء ـ كذلك ـ أنها كما تكون ظاهرة فى الكلمة ، تكون مقدرة غير ظاهرة فيحكم بتأنيث الكلمة المقدرة فيها ، والذى جوز ذلك وضعها على العروض والانفكاك ، مما سهل حذفها وتقديرها ، ولا يقدر من العلامات غيرها ٠

هذا ٠٠ وقد حصر النحاة الأمور التى يستدل بها على تقدير التاء فى المؤنث الخالى منها فيما يلى :

أ ـ عود الضمير على الكلمة مؤنثا : كقوله سبحانه : « قل أفأنبئكم بشر من ذلكم النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير » (٣٥) وقوله عز وجل : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها » (٣٦) وقوله عز اسمه : « حتى تضع الحرب أوزارها » (٣٧) فالنار والسلم والحرب مؤنثات ، لأن الضمير عاد عليها مؤنثا ٠

ب ـ إثباتها فى التصغير : وذلك كقولهم فى تصغير

---

(٣٥) الحج : ٧٢ ٠
(٣٦) الأنفال : ٦١ ٠
(٣٧) محمد : ٤ ٠

« عين وأذن » ونحوهما : « عيينة وأذينة » ، وذلك لأن التصغير مما يرد الأشياء الى أصلها ..

وهذه العلامة خاصة بالكلمات الثـــلاثية كما مثلنا ـ ويلحق بها ما زاد على الثلاثة مما صغر تصغير ترخيم نحو قولهم فى « عناق وذراع » ونحوهما : « عنيقة وذريعة »(٣٨)

بل ورد كذلك ـ ردها فى غير الثـــلاثى من غير إرادة الترخيم ، وذلك قولهم فى تصغير « وراءِ وقدام » : « وريئـة وقديديمة » (٣٩) .

جـ ـ الإشارة إليه بمؤنث نحو قوله سبحانه : « هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون » (٤٠) وقوله عز وجل : « تلك الدار الآخـــرة نجعلهـــا للذين لا يريدون علـــوا فى الأرض ولا فسادا » (٤١) فكل من « جهنم والدار » مؤنث خال من التاء للإشارة إليهما بمؤنث .

د ـ وجود التاء فى الفعل أو شبهه المسندة إليه الكلمة أو ضميرها ، كقوله تبارك اسمه : « ولما فصلت العير » (٤٢)

---

(٣٨) الصبان على الأشمونى : ٤/٩٥ .
(٣٩) الرضى على الكافية : ٢/١٦١ .
(٤٠) الرحمن : ٤٣ .
(٤١) القصص : ٨٣
(٤٢) يوسف : ٩٣ .

وقوله سبحانه : « يطاف عليهم بكأس من معين بيضاء لذة للشاربين » (٤٣) وقوله عز اسـمه : « كلا إنها لظى نزاعة للشوى » (٤٤) وقوله تبارك وتعالى : « ولسليمان الريح عاصفة » (٤٥) فـ « الغير والكأس ، ولظى والريح » مؤنثات للحاق التاء بالأفعال والمشتقات المسندة إليها .

هـ ـ سقوط التاء من عدده من الثلاثة الى عشرة كقولهم : « ثلاث قسى » فالقوس مؤنث خال من التاء ، بدليل سقوطها من عدده ، حيث تسقط مع المؤنث وتثبت مع المذكر .

و ـ تأنيث خبره ونعته وحاله نحو قولهم : « الكتف المشوية أو مشوية لذيذة » .

ز ـ جمعه على مثال خاص بالمؤنث أو غالب فيه ، الأول كفواعل فى الصفات كطوالق وحوائض ، والثـانى يكون فيما هو على وزن « عناق وذراع وكراع ويمين » فجمعها على « أفعل » فى المؤنث ، وقد جاء فى المذكر قليلا نحو : « مكان وأمكن وجنين وأجنن وطحال وأطحل » (٤٦) .

---

(٤٣) الصافات : ٤٥ ، ٤٦ .
(٤٤) المعارج : ١٥ ، ١٦ .
(٤٥) الأنبيـاء : ٨١ .
(٤٦) الرضى على الكافية : ٢/١٦٢

معـــانى التـــــاء وأغراضهـــا

سبق أن ذكرنا أن التاء تفردت ـ دون غيرها من علامات التأنيث ـ بأنها تحمل العديد من المعانى ، ويؤتى بهـــا فى الكلام لأغراض عديدة ومتنوعة ، فلم تكن مقصورة على أن يفرق بها بين المذكر والمؤنث ، بل تجىء لأمور أخرى يمكن حصرها فيما يلى :

أولا ـ التاء الفارقة بين المذكر والمؤنث :

تلحق التاء الأسماء المشتقة كاسم الفاعل واسم المفعول والصفة المشبهة لتمييز المؤنث عن المذكر نحو « قائمـــــة ومضروبة وحسنة » وهذا قياس مطرد فى أكثر هذه الصفات إلا ما يستثنى من بعض أنواع الصفات التى سنشير إليها عما قليل .

هذا .. وقد تلحق التاء المذكر والمؤنث جميعا نحـــو : « رجل ربعة وامرأة ربعة » ليس بالطويل ولا بالقصير ـ وكذا « غلام يفعة ـ بالتحريك ـ وجارية يفعة » ـ أى شاب ـ كما يأتى الوصف خاليا من التاء يوصف به الذكور والإناث ، نحو : « غلام بالغ وجارية بالغ ، ورجل أيم ـ لا زوج له ـ وامرأة أيم ، ورجل عانس ـ أخر التزويج بعد ما أدرك ـ

وامرأة عانس ، ورجل سافر وامرأة سافر ، ورجل عاشــق وامرأة عاشق ، ورجل عقيم وامرأة عقيم » ومنه فى وصف غير الإنسان : « بعير ضامر وناقة ضامر ، وبعير ســاعل وناقة ســاعل »

كما تأتى الصفة مقترنة بالتاء ، وتكون من صفــات الذكور دون الإناث ، وذلك قولهم : « رجل بهمة » أى شجاع .

هذا فيما يتعلق بالصفات ، أما الأسماء بالنســبة الى لحاق التاء بها وعدمه فقد قسمها أهل اللغة قسمين (٤٧) :

١ - أن يكون الاسم المؤنث مخالفا لفظه لفظ ذكره . مصوغا للتأنيث ، فيصير تأنيثه معروفا لمخالفته لفظ ذكره مستغنى فيه عن العلامة كقولهم : « جدى - للذكر - وعناق - للأنثى - وحمل للذكر - وزخل - للأنثى من أولاد الضأن - وحمار وأتان » وربما مالوا الى الاستيثاق وإزالة الشــك عن السامع فأدخلوا الهاء فى المؤنث كقولهم : « غلام وجارية وتيس ونعجة ووعل وأروية - أنثى الوعل » وربما بنــوا الأنثى على لفظ الذكر فى هذا النوع فقالوا : « شيخ وشيخة ورجل ورجلة وغلام وغلامة » .

٢ - أن يكون الاسم الذى فيه علامة التأنيث واقعا على

---

(٤٧) المذكر والمؤنث الأنبارى : ١/٥٢ والمبرد : ١٣١ .

المذكر والمؤنث نحو : « نعامة وبقرة وجرادة » للذكر والأنثى .

وقد يكون واقعا على الذكر والأنثى ولا علامة للتأنيث فيه نحو : « عقرب وضبع » وقد يقال للذكر : « عقـــربان وضبعان » .

ما يستوى فيه المذكر والمؤنث من الصفات :

سبق أن ذكرنا أن الأصل فى التاء أن يفرق بهـــا بين المؤنث والمذكر من الصفات نحو : « قائم وقائمة » ، إلا أنه قد وردت صفات يستوى فيها المذكر والمؤنث ، فتكون مجردة من التاء للمؤنث والمذكر ، حصرها النحاة فى الأنواع الآتية :

١ ـ فعول بمعنى فاعل وهو الدال على الذى فعـــل الفعل ـ نحو : « صبور وشكور وحقود ونفور » فيقال : « رجل شكور ومرأة شكور » وشذ امرأة عدوة » .

وهذا بخلاف ما كان بمعنى المفعول ، فإنه تلحق التـاء المؤنث منه نحو : « أكولة وركوبة » بمعنى مأكولة ومركوبة ، بل إن المذكر من هذا الصنف قد تلحقه التاء أيضا ـ فيقال : « قطار ركوب وركوبة » (٤٨) .

---

(٤٨) النحو الوافى للاستاذ / عباس حسن : ٤/٥٠٣ .

على أن مجمع اللغة العربية بالقاهرة لم يقر هذا الحكم وأصدر ما يخالفه تحت عنوان « لحوق تاء التأنيث لفعول صفة بمعنى (فاعل) »

ونص الحكم المجمعي يشمل أمرين :

أ – يجوز أن تلحق تاء التأنيث صيغة : فعول » بمعنى « فاعل » لما ذكره سيبويه من أن ذلك جاء فى شيء منه ، وما ذكره ابن مالك فى « التسهيل » من أن امتناع التاء هو الغالب، وما ذكره السيوطى فى « الهمع » من أن الغالب ألا تلحق التاء هذه الصفات ، وما ذكره الرضى من قوله : « ومما لا يلحقه تاء التأنيث – غالبا – مع كونه صفة فيستوى فيه المذكر والمؤنث ، فعول » .

ويمكن الاستئناس فى إجازة دخول التاء فى « فعول » بأن صيغ المبالغة كاسم الفاعل، يمكن أن تتحول الى صفات مشبهة . وعلى ذلك فى حالة دلالتها على الصفة المشبهة يمكن أن نلمح المعنى الأصلى لها ، وهو المبالغة ، فتدخل عليها التاء جريا على قاعدة دخول التاء فى اسم الفاعل وفى صيغ المبالغة للتأنيث .

ب – وعلى هذا يجرى على تلك الصيغة – بعد جواز تأنيثها بالتاء – ما يجرى على غيرها من الصفات التى

يفرق بينها وبين مذكرها بالتاء ، فتجمع جمع تصحيح للمذكر والمؤنث (٤٩) .

والذى يبدو أن رجال « المجمع » قد تسرعوا فى إصدار هذا الحكم ، فإن ما ورد مقترنا بالتاء من هذا النوع ـ أعنى « فعول » بمعنى « فاعل » هو كلمة واحدة ـ كما ذكر سيبويه ـ حيث قال : « وقالوا عدو وعدوة ، شبهوه بصديق وصديقة ، كما وافقه حيث قالوا للجميع ـ للجمع ـ « عدو وصديق » ، فأجرى مجرى ضده » (٥٠) .

وقال السيوطى : « وإذا كان فعول فى تأويل فاعل ، كان مؤنثه بغير هاء ، نحو : امرأة صبور وشكور وغدور وغفور وكنود وكفور ، إلا حرفا نادرا ، قالوا : هى عدوة الله » (٥١)

على أن لفظة « عدوة » تحتمل أن تكون بمعنى « مفعول » أى وقعت عليها العداوة ، وعلى هذا فلا شذوذ فيها (٥٢) .

٢ ـ فعيل بمعنى مفعول ـ بشرط أن يعرف من الكلام أو غيره نوع المتصف بمعناه : أى بشرط ألا يستعمل استعمال الأسماء غير المشتقة ، وذلك نحو : رجل جريح وامرأة جريح»

---

(٤٩) المرجع السابق : ٤/٥٩٢ ، مقارن بالكتاب : ٣/٣٨٥ ، والهمع ٢/١٧ والرضى على الكافية : ٢/١٦٥ .

(٥٠) الكتاب : ٣/٦٣٨ .

(٥١) المزهر فى علوم اللغة وأنواعها : ٢/٢١٦ .

(٥٢) الصبان على الأشمونى : ٤/٩٦ .

فإذا استعمل استعمال الأسماء ، وجبت التـــاء مع المؤنث نحو : « نبيحة ونطيحـــة » ، وكذا إذا كان بمعنى « فاعل » نحو : « شريفة وكريمة ورحيمة »

ومن الجدير بالذكر أن تجرد هذا النوع من التـــاء ـ أعنى « فعيل » بمعنى « مفعول » هو الغالب الكثير ، فقد ورد قولهم : « صفة ذميمة وخصلة حميدة » كما حمل الذى بمعنى فاعل عليه فى التجرد نحو قوله سبحانه : « إن رحمة الله قريب من المحسنين » (٥٣) وقوله عز وجل : « قال من يحيى العظام وهى رميم » (٥٤) وهذا هو أحد الأوجه الكثيرة التى خرجت عليها أمثال هاتين الآيتين ، وقد نقل فيها السيوطى بحثا مطولا (٥٥) .

ومما جاء على غير القياس ـ أيضا ـ قولهـــم : « ريح خريق (٥٦) وناقة سديس (٥٧) وكتيبة خصيف » (٥٨) حيث إن « فعيل » هنا بمعنى « فاعل » والقياس الغالب اقترانه بالتـــاء .

٣ ـ مفعال ، نحو : مفتاح ومعلام ومفراح ومعطار ومعطاء

---

(٥٣) الأعراف : ٥٦ .
(٥٤) يس : ٧٨ .
(٥٥) الأشباه والنظائر : ١٣٦/٣ نقلا عن تذكرة ابن الصائغ .
(٥٦) الخريق : شديدة الهبوب .
(٥٧) سديس : دخلت فى الثامنة .
(٥٨) الخصيف : ما فيه سواد وبياض .

وغير ذلك مما قصد به المبالغة في الوصف ، فالمذكر والمؤنث فيه سواء ، يقال : « رجل معطاء وامرأة معطاء » ومذ : ميقان وميقانة ومطراب ومطرابة ومجذام (٥٩) ومجذامة ، ويمكن أن تكون التاء فيه لتأكيد المبالغة كما هي في نحـــــو : « علامة ونسابة » .

٤ ـ مفعيل ، نحو : « منطيق » للرجل البليغ والمرأة البليغة ، و « معطير » لكثير العطر وكثيرته . وشــــذ « مسكينة » بالتاء حملا على « فقيرة » ، ومنه في وصف غير الآدميين : « ناقة مئشير (٦٠) وفرس محضير (٦١) .

٥ ـ مفعل ، نحو : « مغشم » للمذكر والمؤنث بمعنى جرئ وشجاع لا ينثني عن إدراك ما يريده .

٦ ـ ما وصف به من المصادر نحو قولهم : « رجل عـــدل وامرأة عدل » فإنه مما يلزم الإفراد والتذكير فلا تلحقـــه العلامات ، فيوصف به المفرد بنوعيه والمثنى والجمع بلفظ واحد ، وذلك لأن المصادر أجناس ، تدل على القليل والكثير بلفظها ، فاستغنى عن تثنيته وجمعه ، إلا أن يغلب الوصف به فيصير من حيز الصفات لغلبة الوصف به (٦٢) .

---

(٥٩) رجل مجذام الركض في الحرب : سريع الركض فيها .
(٦٠) المئشير : النشطة المرحة .
(٦١) المحضير : من الحضر ـ بضم فسكون : ارتفاع الفـــرس في العـــدو .
(٦٢) ابن يعيش : ٣/٥٠

هذا .. وينبغى أن يوضع فى الاعتبار أن حذف التاء فى الأنواع السابقة مما يجب أن يتوقف على وجود القرينة ، حتى يظهر المراد من الكلام ، ويكون بمنأى عن اللبس والغموض . يقول ابن يعيش : « إن هذه الأسماء إذا جرت على موصوفاتها ، لم يأتوا فيها بالهاء ، وإذا لم يذكروا الموصوف أثبتوا الهاء خوف اللبس ، نحو : رأيت صبورة ومعطارة وقتيلة بنى فلان » (٦٣)

ما لا تلحقه التاء من صفات الإناث :

سبق أن أشرنا الى أن الأصل فى التاء ان تلحق الصفات للتمييز بين المذكر والمؤنث نحو : « قائم وقائمة » إلا أن هناك صفات تدل على معنى خاص بالأنثى يناسب طبيعتها ويلائم فطرتها ، قد جاءت مجردة من التاء نحو : « حائض ومرضع وحامل » وغيره مما هو من خصائص الأنثى ، وذلك إذا كان الوصف ليس مقيدا بحالة طارئة ، كوصف المرأة بأنها « مرضع » : أى أن طبيعتها التى خلقت معها هى الإرضاع . وكذا قولنا : « المرأة الحامل لا العاقر مرغوبة » : أى التى من هذا النوع .

أما إذا كانت الصفة طارئة ، والقصد منها الحدوث لا الثبوت ، فيجب الإتيان بالتاء ، ومنه قوله عز وجل — فى

---

(٦٣) ابن يعيش : ٥/١٠٢ .

وصف هول القيامة : « يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت » (٦٤) قال الزمخشري : (فإن قلت : لم قيل « مرضعة » دون « مرضع » ؟ قلت : المرضعة : التي هي في حال الإرضاع ، ملقمة ثديها الصبي ، والمرضع : التي شأنها أن ترضع ، وإن لم تباشر الارضاع في حال وصفها به . فقيل مرضعة ، ليدل على أن ذلك الهول إذا فوجئت به هذه ، وقد ألقمت الرضيع ثديها ، نزعته عن فيه لما يلحقها من الدهشة) (٦٥).

وقال ابن الأنباري (٦٦) : (... فإذا بني الدائم على المستقبل ، قيل : « هند حائضة وجمل طالقة » على معنى تحيض وتطلق . أنشدنا أبو العباس عن سلمة عن الفراء للأعشى :

أيا جارتي بيني فإنك طالقه
كذاك أمور الناس غاد وطارقه) (٦٧)

---

(٦٤) الحج : ٢ .

(٦٥) الكشاف : ٣/٢٤ .

(٦٦) المذكر والمؤنث : ١/١٣٥ .

(٦٧) البيت من الطويل ، الغادي : الذي يأتي عدوة في الصباح والطارق : الذي يأتي ليلا . والشاهد في البيت مجيء « طالقة » بالتاء ، وإن كان وصفا على زنة « فاعل » خاصا بالنساء ، الا أنه أريد به الحدوث .

انظر في البيت المذكر والمؤنث للفراء : ٢٣ وللمبرد : ١٣٧ ، ولابن الأنباري ١/١٣٥ وهو من مطلع قصيدة قالها لزوجته الهمزانية لما طلقها كما في الديوان : ١٦٣ .

هذا . وقد أورد علماء اللغة من هذا الصنف جما غفيرا من الكلمات مما هو على وزن « فاعل أو مفعل » وغيرهما من ذلك قولهم : « امرأة معصر - إذا أدركت سن البلوغ - ومسلف(٦٨) وحاد (٦٩) ، وناهد ، وناشز وناشض وجامح » (٧٠) وهو لا يكاد يحصى ، وقد أورد منه ابن الأنبارى فى « المذكر والمؤنث » والسيوطى فى « المزهر » وغيرهما أنواعا عديدة (٧١) .

على أنه يجب أن يوضع فى الاعتبار الوقوف على المسموع دون غيره ، فاللفظة الواحدة قد ترد بالهاء مرة ، ومجردة منها أخرى . من ذلك قولهم : « امرأة قاعدة » - بالهاء - إذا أرادوا الجلوس ، ويقولون : « امرأة قاعد » للتى قعدت عن الحيض والولادة ، وكذا « حامل » للحبلى ، و « حاملة » لمن تحمل على ظهرها أو رأسها .

وحكى عن الأصمعى : « يقال : امرأة طاهر إذا أردت الطهر من الحيض فإذا أردت أنها نقية من العيوب والدنس، قلت : طاهرة » (٧٢) .

---

(٦٨) المسلف : هى التى بلغت خمسا وأربعين سنة ونحوها .
(٦٩) الحاد والمحد : التى تركت الزينة حزنا على زوجها .
(٧٠) الناشص والجامح : مثل الناشز وزنا ومعنى .
(٧١) المذكر والمؤنث لابن الأنبارى : ١/١٣٠ فما بعدها ، والمزهر : ٢٠٦/٢ فما بعدها .
(٧٢) المذكر والمؤنث لابن الأنبارى : ١/١٥٠ .

آراء النحاة فى هذا النوع :

اختلفت تعليلات النحاة لتجرد هذا النوع من الصفات الخاصة بالإناث ، وخلوه من علامة التانيث ، فالخليل يرى انه بمنزلة المنسوب فـ « حائض » بمعنى حائضى : أى ذات حيض ، على حد قولهم : « رجل دارع » : أى دارعى بمعنى صاحب درع (٧٣)

وسيبويه يرى أنه صفة لمذكر محذوف : أى شىء ، أو إنسان حائض وذهب الكوفيون الى أن سقوط التاء منه إنما كان لاختصاصه بالمؤنث ، فاستغنى عن علامة التأنيث ، إذ العلامة إنما يؤتى بها عند الاشتراك فى المعنى للفصل (٧٤)

وهذه التعليلات ـ كما هو ظاهر ـ لا تسلم من الضعف ، وذلك لعدم اطرادها وعمومها ، فالذى يرى أنها من قبيل النسب : أى ذات طلاق وحيض يعترض عليه بأنه كان ينبغى أن يجوز ذلك فى كل الصفات ، فنقول : « امرأة جالس وقائم » أى ذات جلوس وقيام .

ومن قال : إنه صفة لمذكر محذوف ، فمنتقض باتفاقهم

---

(٧٣) ابن يعيش : ٥/١٠٠ .
(٧٤) الرضى على الكافية : ٢/١٦٥ ، والانصاف : ٢/٧٥٨ المسألة : ١١١ .

على أنه تلحقه التاء إذا أريد به الحدوث ، فهذا يدل على عدم اطراد تلك العلة كما أنه كان ينبغى أن يقال : « هند قائم » على معنى : هند شخص قائم (٧٤)

وأما تعليل الكوفيين بأن التاء إنما يؤتى بها للفرق بين المذكر والمؤنث ، فلا حاجة إليها هنا ، فمردود بـ كذلك نحو : ضامر وعانس ، مما يوصف به المذكر والمؤنث ، كما يقتضى تجرد الوصف المذكور من التاء مع قصد الحدوث ، إذ لا فرق بين الحالتين : قصد الحدوث وعدمه

والأقرب إلى القبول - كما ذكر الرضى - أن يقال : إن الأغلب فى الفرق بين المذكر والمؤنث بالتاء هو الفعل بالاستقراء ، ثم حمل اسما الفاعل والمفعول عليه ، لمشابهتهما له ، ثم جاء مما هو على وزن الفاعل ما يقصد به الحدوث مرة كالفعل ، ومرة الإطلاق ، وقصدوا الفرق بين المعنيين ، فأنثوا بتاء التأنيث ما قصدوا فيه الحدوث الذى هو معنى الفعل كتأنيث الفعل ، لمشابهته له معنى ، بخلاف ما قصدوا فيه الإطلاق ، ليكون ذلك فرقا بين المعنيين .

ومما يؤيد ذلك التعليل ويقويه استعمال العرب لهذا النوع من الوصف ، حيث جاء بالتاء مرة ومجردا منها أخرى وذلك فى قول الفرزدق :

---

(٧٥) الرضى على الكافية ٢ / ١٦٥ ، ١٦٦ بتصرف .

رأيت ختون العام والعام قبله
كحائضة يزنى بها غير طاهر (٧٦)

فأدخل تاء التأنيث فى « حائضة » ، لأنه بناه على المستقبل ، وذكر « طاهرا » ، لأنه أخرجه على حقه ، ولم يبنه على المستقبل .

على أن مجمع اللغة العربية بالقاهرة جعل لحاق التاء وعدمه (٧٧) لهذا النوع من الصفات متساويين .

ومما هو جدير بالذكر - فى هذا الصدد - وجود نوع من الصفات يجرد من تاء التأنيث - غالبا - إذا وصف به الإناث هذا النوع يتمثل فيما كان الغالب فيه أن يكون من شأن الذكور وصفاتهم ، كالإمارة والوصية والوكالة والأذان والشهادة . قال ابن سيده : « ومما وصفوا به الأنثى ولم يدخلوا فيها علامة التأنيث ، وذلك لغلبته على المذكر قولهم : أمير بنى فلان امرأة ، وفلانة وصى بنى فلان ... ولو أفردت لجاز أن تقول : أميرة ووكيلة ووصية ... وربما أدخلو الهاء فأضافوا فقالوا : فلانة أميرة بنى فلان » (٧٨)

---

(٧٦) البيت من الطويل ، والختون : المصاهرة يريد أن المصاهرة فى العامين الماضيين - وكانا مجدبين - كامرأة حائض زنى بها ، لأن الرجل الهجين إذا كثر ماله صاهر الرجل الشريف ، فكانت الزوجة كالحائض التى يزنى بها . والشاهد فى البيت استعمال « حائضة » بالتاء و « طاهر » بغير التاء ، حيث أريد بالأول الحدوث وبالثانى الدوام ، المذكر والمؤنث للفراء : ٣ ، ولابن الأنبارى : ١٣٦ .

(٧٧) النحو الوافى : ٤/٥٠٤ .

(٧٨) المخصص : ١٧/٣٥ ، ٣٦ .

ومن ذلك ما ورد فى قوله عز وجل : « كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا » (٧٩) يقول الزمخشرى : « فإن قلت لم ذكر حسيبا ؟ قلت : لأنه بمنزلة الشهيد والقاضى والأمير ، لأن الغالب أن هذه الأمور يتولاها الرجال » (٨٠)

ومما ورد من الشواهد الشعرية المؤيدة لذلك قول عمرو ابن أحمر :

فليت أميرنا ـ وعزلت عنا مخضبة أناملها كعاب (٨١)

ومما جاء بالهاء قول عبد الله بن همام السلولى :

فلو جاءوا ببرة أو بهند لبايعنا أميرة مؤمنينا (٨٢)

وبناء على ما سبق ، نرى أنه ـ عند إسناد الألقاب العامية

---

(٧٩) الاسراء : ١٤ .
(٨٠) الكشاف : ٢/٣٥٤ ، والبحر المحيط : ٦/١٦ .
(٨١) البيت من الوافر والمعنى : فليت اميرنا امرأة كعاب ـ بفتح الكاف ـ مخضبة اناملها ، فالكعاب خبر ليت ، ومخضبة كان نعتا لها فلما قدم عليها صار حالا . والشاهد مجىء « اميرنا » بغير تاء صفة المؤنث . المذكر والمؤنث لابن الأنبــــارى : ١/١٤٢ ، والفراء : ٥ ، والمخصص : ٣٦/١٧ .
(٨٢) البيت من الوافر ، والشاهد فيه مجىء « أميرة مؤمنينا » بالتاء بالرغم مع أنه صفة تغلب على الذكور دون الاناث . قال الفراء : « وليس خطأ أن تقول : وصية ووكيلة ، اذا افردتهما واورتهما بذلك الوصف المذكر والمؤنث : ٥ وانظر فى البيت ابن الأنبــــارى : ١/١٤٣ ، واللســان : « أ م ر » .

الى النساء نحو : « أستاذ ، أستاذ مساعد » وكذا الألقـــاب العسكرية نحو : « ملازم ونقيب وعقيد » ـ يحسن أن تكون مجردة من التاء .

ثانيا ـ تاء العـــوض :

ونعنى بها ما جاءت للتعويض عن شيء حذف من الكلمة لعلة تصريفية أو لغير علة ، ثم جيء بالتاء تعويضا عن ذلك المحذوف ـ ويمكن حصر أنواعها فيما يلى :

أ ـ ما كانت عوضا عن حرف أصلى من حروف الكلمة ـ الفاء والعين واللام وتشمل الصور التالية :

١ ـ ما كانت عوضا عن الفاء ، وذلك فى المصادر التى على زنة « فعلة » من المثال الواوى نحو : « عدة وزنة ، وشية وجهة » والأصل : وعدة ووزنة ووشية ووجهة ، فحذفت الفاء وجيء بالتاء عوضا منها ، فحذفوا من الأول وعوضـــوا فى الآخر ، وهذا أحد أنواع التعويض ، وقد يكون التعويض مكان المعوض كما قالوا : « يا أبت » فالتـــاء عوض من ياء المتكلم . كما قد يكون التعويض فى الأول والمعوض آخـــرا نحو : « اسم وابن » حيث حذفوا من الآخر وعوضوا فى الأول، وهذا هو الفرق بين العوض والبدل ، فبدل الشيء لابد أن

يكون في موضعه ، والعوض يكون في غير مكان المعـوض منه (٨٣) .

وزاد الزمخشري فرقا آخر حيث قال : « معنى العوض أن يقع في الكلمة انتقاص فيتـــدارك بزيادة شيء ليس في أخواتها ، كما انتقص التثنية . والجمع السالم بقطع الحركة والتنوين عنهما ، فتدارك ذلك بزيادة النون » (٨٤)

وإذا كان من أصولهم المقررة وقواعدهم المتعارف عليها ، أن العوض والمعوض عنه لا يجتمعان ، فإنه مما يستشكل على ذلك قوله عز وجل : « ولكل وجهة هو موليها » (٨٥) حيث جمع بين الواو والتاء مما جعل الأنباري يقول : « والوجهة جاءت على غير القياس ، لأن القياس أن يقال جهة ... إلا أنهم استعملوها استعمال الأسماء على خلاف القياس » (٨٦)

على أن من العلماء من ذهب الى أن المحـــذوف واوه ـ جهة ـ مصدر ، والثابت واوه اسم للمكان الذي يتوجه إليه ، وعلى هذا فلا شذوذ في واحد منهما ، ومنهم من ذهب الى أنهما جميعا مصدران ، وعليه فالمحذوف واوه قياس ، والثابت واوه شاذ . ومنهم من ذهب الى أنهما جميعا اسمان ، وعليه

---

(٨٣) الأشباه والنظائر في النحو للسيوطي : ١/١٢٠
(٨٤) المرجع السابق : ١/١٢٢ .
(٨٥) البقرة : ١٤٠ .
(٨٦) البيان في غريب اعراب القرآن : ١/١٢٧

يكون المحذوف الواو شاذا ، والثابت الواو قياسا . ومنهم من عكس : أى جعل المحذوف اسما ، والثابت مصدرا ، وعليه فكلاهما شاذ . والذي هون شذوذ « وجهة » على هذا أنه مصدر غير جار على فعله ، إذ المسموع « توجه » كتقدس — و « اتجه » — كاتصل — ولم يسمع « وجه يجه » فلما لم يوجد مضارع محذوف الفاء سهل عليهم إثباتها فى المصدر (٨٧) .

٢ — ما كانت عوضا عن عين الكلمة ، وذلك فى باب « إقامة واستقامة » على مذهب أبى الحسن الأخفش ، إذ أصلهما « إقوام واستقوام » فحذفت عين الكلمة وعوض عنها التاء ، وهما عند الخليل وسيبويه من باب حذف الحرف الزائد : أى ألف الإفعال والاستفعال (٨٨) .

٣ — ما كانت عوضا عن لام الكلمة ، وذلك نحو باب « سنة » وأخواتها من نحو : « مائة وفئة ورئة وعضة » فهذا ونحوه مما حذفت لامه ، وعوض عنها بالتاء . قال السيوطى : (« سنة » حذف لامها ، وجعل جمعها بالواو والنون عوضا من عود لامها ، فإذا جمعت على « سنوات » عادت اللام ، لأنه قياس جمعها ، وليس عوضا) (٨٩) .

---

(٨٧) شرح الشافية للرضى : ٣/٩٠ .
(٨٨) الخصائص : ٢/٣٠٧ .
(٨٩) الأشباه والنظائر : ١/١٢٦ .

ب ـ ما كانت عوضا عن حرف زائد ويتمثل في الصور التالية :

١ ـ ما جاءت عوضا عن حرف المد فى الجمع الأقصى فى نحو : « زنادقة وجحاجحة » فإنها عوض عن ياء « زناديق وجحاجيح » (٩٠) ·

٢ ـ ما جاءت عوضا من تاء « تفعيل » فى نحو « تسلية وتهنئة » ونحوهما ، وذلك فى مصادر « فعل » المهموز اللام والناقص ، وجاء فى غيرهما نحو : « تكرمة » (٩١) مصدر « كرم » ·

٣ ـ ما جاءت عوضا من ألف « فعــــــلال » فى نحو : « الهماجة والسرهفة » (٩٢) وأصلهما « هملاج وسرهاف » ومثله ما لحق بالرباعى من نحو : « الحوقلة والبيطرة ..... » كأنها عوض من ألف « حيقال وبيطار » (٩٣)

٤ ـ ما جاءت عوضا عن الألف ، وذلك كما نقول فى جمع « حبنطى وعفرنى » (٩٤) حبانط وعفارن ، فإذا عوضت من

---

(٩٠) الخصائص : ٢/٣٠٤ والجحجاح : السيد ·
(٩١) الرضى على الشافية : ١/١٦٤ ·
(٩٢) الهملجة : حسن سير الدابة فى سرعة · والسرهفة : حسن الغـــذاء ·
(٩٣) الخصائص : ٢/٣٠٤ ، ٣٠٥ ·
(٩٤) الحبنطى : الممتلء غيظا أو بطنة والعفرنى : الشديد ·

الألف ، فإن شئت تعوض الياء ، تقول : حبانيط وعفارين ، وإن شئت تعوض الهاء فتقول : حبانطة وعفارنة (٩٥) ، ومنه في تصغير « حبارى » حبيرة (٩٦) .

٥ ـ ما جاءت عوضا من ياء النسب في نحو : « أشاعرة وأشاعثة » جمع « اشعرى واشعثى » وذلك أنهم لما أرادوا أن يجمعوا المنسوب جمع تكسير ، وجب حذف ياءى النسب ، لأن ياء النسب والجمع لا يجتمعان ، فلا يقال في النسب الى « رجال » رجالى بل رجلى ، فحذف ياء النسب ثم جمع بالتاء فصار التاء كالبدل من الياء ـ كما ذكر الرضى (٩٧) .

٦ ـ ما جاءت عوضا عن ياء الإضافة في نحو : « يا أبت ويا أمت » (٩٨)

٧ ـ ما جاءت عوضا عن تضعيف العين ، وذلك في نحو : « غزاة ورماة » فإن الفراء يرى أن وزنهما « فعل » بتضعيف العين ـ كـ « نازل ونزل » والهاء فيه ـ أعنى في غزاة ورماة ـ عوض عما ذهب من التضعيف كالهاء في « إقامة واستقامة » عوض مما حذف (٩٩) .

---

(٩٥) الأشباه والنظائر : ١/١١٩ .

(٩٦) الحبارى ـ بضم أوله وتخفيف ثانيه ـ طائر يقع على الذكر والانثى والواحد والجمع .

(٩٧) الرضي على الكافية : ١/١٦٣ .

(٩٨) المرجع السابق : ١/١٦٤ .

(٩٩) الأشباه والنظائر : ١/٢١ ، والجمهور على أن وزنه « فعلة » ، وانه من الأوزان التى انفرد بها المعتل الذى هو على وزن فاعل لمذكر عاقل . وقال بعضهم : انه على وزن « فعلة » نحو « كامل وكملة » وان هذه الضمة للفرق بين المعتل الآخر والصحيح .

ثالثا — تاء النقــل :

ونعنى بها تلك التاء التي تلحق آخر الاسم فتنقله من حال الى حال ، وتشمل الصور التالية :

١ — تاء النقل من الوصفية الى الاسمية المحضــة نحو : « الزاوية » (١٠٠) للمزادة و« الخابية » للبئر الصغيرة ، وما أشبههما . وذكر منه الرضي التاء في نحو : « النطيحــة والذبيحة » حيث قال : « الثالث عشر : دخولها أمارة للنقل من الوصفية الى الاسمية ، وعلامة لكون الوصف — غالبا — غير محتاج الى الموصوف . والأولى أن التاء في « حلوبة وركوبة ورحولة » وكل فعولة بمعنى مفعول هكذا : لأنها لا يذكر معها الموصوف البتة ، كما قد يذكر مع فعول بمعنى فاعلة نحـو : « امرأة ضبور وشكور » ...) (١٠١) .

ولهذا جاءت « النطيحة » بالهاء في قوله عز وجــل : « والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة » (١٠٢) بالرغم من أنها « فعيلة » بمعنى مفعولة ، والأكثر فيها أن تجرد من التاء نحو : « امرأة قتيل وجريح » قال النحاس : « والبصريون

---

(١٠٠) الراوية : البعير أو البغل أو الحمار الذى يستقى عليه الماء ، والرجل المستقى ، والمزادة .

(١٠١) شرح الكافية : ٢/١٦٤ .

(١٠٢) المائدة : ٣ .

يقولون : جعلت اسما فحذفت منها الهاء كالذبيحة ، وقيل : هي بمعنى ناطحة »(١٠٣) .

ومما يلحق بهذا النوع - أعني النقل من الوصفية الى الاسمية - التاء في المصادر الصناعية في نحو : « وطنية وجنسية » ، فان الكلمة قبل دخول التاء تكون ملحقة بالمشتق بسبب ياء النسب ، ولذا يوصف بها فيقال : « رجل وطني » فلما لحقتها التاء ، نقلت الكلمة الى المعنى الخالص ، الحدث الخالي من الدلالة على الاشتقاق (١٠٤) .

٢ - تاء النقل من العجمة الى العربية ، ونعني بها تلك التاء الداخلة على الجمع الأقصى في نحو : « جواربة وكيالجة وموازجة » (١٠٥) دلالة على أن واحدها معرب ، فيقال : الهاء أمارة العجمة ، وذلك أن العجمي نقل الى العربية كما أن التأنيث ينقل عن التذكير (١٠٦) .

---

(١٠٣) اعراب القرآن للنحاس : ٢/٦ ، ٧ وقال سيبويه : « وتقول : شاه ذبيح كما تقول : ناقة كسير ، وتقول : هذه ذبيحة فلان وذبيحتك ، وذلك أنك لم ترد أن تخبر أنها قد ذبحت ، لا ترى أنك تقول ذلك وهي حية ، فانما هي بمنزلة ضحية وتقول : شاة رمي ، اذا أردت أن تخبر أنها قد رميت ، وقالوا : بئس الرمية الأرنب ، انما تريد بئس الشيء مما يرمى ، فهذه بمنزلة الذبيحة . وقالوا : نعجة نطيح ، ويقال : نطيحة ، شبهوها بسمين وسمينة » أ هـ . الكتاب : ٣/٦٤٧ ، ٦٤٨ .

(١٠٤) النحو الوافي : ٤/٥٨٦ .

(١٠٥) جواربة : جمع جورب لفافة الرجل معرب كورب ، وكيالجة : جمع كيلجة من المكاييل . وموازجة جمع موزج : الخف أو الجورب .

(١٠٦) الرضي على الكافية : ١٦٣ .

والمعرب ـ كما عرفه علماء اللغة ـ هو : « ما استعملته العرب من الألفاظ الموضوعة لمعان في غير لغتها » . قال الجوهري : « تعريب الاسم الأعجمي أن تتفوه به العرب على منهاجها ، تقول : عربته العرب ، وأعربته أيضا » (١٠٧)

على أنه يجب أن يعلم أن ما كان من المعرب من أسماء الأجناس نحو : « اللجام والإبريسم والباذق » (١٠٨) فإنه يجري عليه حكم العربي ، فيتصرف فيه بالجمع والتصغير واشتقاق الفعل منه نحو قولهم : « لجام ولجم » وفي تصغيره : « لجيم » وقالوا في فعله ومصدره : « ألجمه إلجاما » (١٠٩) .

أما ما كان منها أعلاما ، فإن له أحكاما خاصة به ، قال ثعلب : « الأسماء الأعجمية كإبراهيم ، لا تعرف العرب لها تثنية ولا جمعا ، فأما التثنية فتجيء على القياس مثل : ابراهيمان واسماعيلان ، فإذا جمعوا حذفوا فردوها الى أصل كلامهم ، فقالوا : أباره وأسامع » (١١٠) .

رابعا ـ التاء الفاصلة :

وهي الداخلة لفصل الآحاد المخلوقة من أجناسها نحو :

---

(١٠٧) المزهر : ١/٢٦٨ .

(١٠٨) اللجام فارسي معرب . والابريسم ـ بكسر الهمزة والراء وفتح السين ، أو بفتح الهمزة والراء ، أو بفتح الهمزة وكسر الراء ـ نوع من الديباج والباذق : ما طبخ من عصير العنب .

(١٠٩) المزهر : ١/٢٨٦ .

(١١٠) المرجع السابق : ١/٢٩٣ .

« نخل ونخلة ، وتمر وتمرة ٠٠٠ » ، كما جاءت للفعـــل بين الآحاد المصنوعة وأجناسها نحو : « سفين وسـفينة ولبن ولبنة وجر وجرة ، وقلنس وقلنسوة » (١١١) • ومنها التاء اللاحقة المصادر نحو : « ضرب وضربة وإخراج وإخراجة » فما لحقته التاء من هذه الأنواع ، فهو المفرد ، وما لم تلحقه فهو الجنس • وربما لحقت التاء الجنس وفارقت المفرد نحو : « كمء وكماة » وهو قليل كما تدخل للفرق بين الواحد والجمع فى الصفات نحو : « بغال وبغالة وبصرى وبصرية » وكذا نحو : « خارجة وســـابلة » فى قولنـــــا : « خرجت خارجة على الأمير » (١١٢) •

خامسا ـ تاء تأكيد التأنيث :

ونعنى بها ما كانت داخلة على كلمة مدلولهـــا مؤنث ، فيكون الغرض من التاء تأكيد ذلك التأنيث الحاصـــــل فى الكلمة ، وذلك يكون فى المفرد والجمع ، فأما المفرد ففى نحو : « ناقة ونعجة » وما أشبههما من كل لفظ يدل على مؤنث يخالف لفظ مذكره ، فالتاء فيه لتأكيد التأنيث ، ومنه فى الصفات « عجوزة » فإن عجوزا موضوع للمؤنث والتـــــاء فيـــه للتأكيد (١١٣) •

---

(١١١) القلنسوة : من أغطية الرأس • ومن جمعه : قلنس وأصله قلنسو فقلبت الواو ياء ، لأنه ليس فى الأسماء ما آخره واو قبلها ضمة ثم أعلت اعلال « قاض »

(١١٢) الرضى على الكافية : ١٦٣/٢ وابن يعيش : ٥٩/٥ •

(١١٣) الرضى : ١٦٤/٢ •

وأما الجمع - والمراد به جمع التكسير - فله صور عديدة ، نحو : « إغربة ، وغلمة ، وجمالة(١١٤) ، وبعولة (١١٥) وملائكة » ، وذلك لأن التكسير يحدث في الاسم تأنيثا (١١٦) ، ولذلك يؤنث فعله نحو قوله تعالى : « قالت الأعراب آمنا » ، فدخلت التاء لتأكيد ذلك التأنيث (١١٧) .

سادسا - تاء المبالغة :

تلحق التاء بعض الكلمات فتفيد المبالغة وذلك كقولهم : « رجل راوية » أى كثير الرواية ، ومنه قولهم : «ملولةوفروقة» لكثير السآمة والخوف ، ومنه ما لحقت « فعلة » - بفتح العين - للدلالة على الفاعل ، و « فعلة » - بسكون العين - للدلالة على المفعول فى نحو : « ضحكة ولعنة وسبة » - بفتح العين وسكونها - ومنه قوله تعالى : « ويل لكل همزة لمزة » (١١٨) .

---

(١١٤) الجمالة - بكسر الجيم مخفف الميم - يقال للإبل اذا كانت ذكورا لم يكن فيها انثى .

(١١٥) البعولة : جمع بعل أى الزوج ومثلها الهعال والبعول . قال ابن الأثير : الهاء فيها لتأنيث الجمع ... وقال سيبويه : ألحقوا الهاء لتأكيد التأنيث والأنثى بعل وبعلة مثل زوج وزوجة . اللسان : « ب ع ل » .

(١١٦) الحجرات : ١٤ .

(١١٧) ابن يعيش : ٩٨/٥ .

(١١٨) الهمزة : ١ ، قال الزمخشرى فى الكشاف ٢٣٢/٤ : وبناء فعلة يدل على أن ذلك عادة منه قد ضرى بها ... وقرىء ويل لكل همزة لمزة - بسكون الميم - وهو المسخرة الذى يأتى بالأوابد والأضاحيك فيضحك منه ويشتم .

فإذا كانت الكلمة تفيد المبالغة بأصل وضعها، ولحقتها التاء نحو : « مطرابة ومحذامة وعلامة ونسابة » ـ كانت التاء لتأكيد المبالغة · قال الرضى : « وكأن التاء فى هذا القسم للتأنيث ، والموصوف المحذوف جماعة إجراء للشىء الواحد مجرى جماعة من جنسه ، كما تقول : « أنت الرجل كل الرجل » (١١٩) ·

هذا ·· وقد حصر أهل اللغة أبنية المبالغة فى اثنى عشر بناء : فعال ـ بفتح الفاء والعين ـ كفساق ، وفعل ـ بضم الفاء وفتح العين ـ كغدر ، وفعال ـ بفتح الفاء وتشديد العين ـ كغدار ، وفعول كقدور ، ومفعيل كمعطير ، ومفعال كمعطار . وفعلة كهمزة ، وفعولة كملولة ، وفعالة كعلامة ، وفاعلة كراوية وفعالة بتشديد العين ـ كنتاقة ـ الكثير الكلام ـ ومفعالة كمجزامة · ذكره ابن خالويه فى شرح الفصيح (١٢٠) ·

هذه أشهر المعانى التى تفيدها التاء كما ذكرها النحاة ، وقد أضافوا أمورا أخرى ، كتكثير حروف الكلمة فى نحو : « قرية وبلدة وغرفة » ـ كما ذكر الأشمونى (١٢١) ـ وهو ما عبر عنه الرضى بقوله : « العاشر : دخولها لا لمعنى من المعانى، بل هو تأنيث لفظى « كما فى غرفة وظلمة ···» (١٢٢)

---

(١١٩) الرضى على الكافية : ١٦٣/٢ ·
(١٢٠) المزهر : ٢٤٣/٢ ·
(١٢١) شرح الأشمونى : ٩٧/٤ ·
(١٢٢) شرح الكافية : ١٦٤/٢ ·

ومما هو جدير بالذكر أن كل كلمة لحقتها تلك التاء ، وإن لم تكن للفرق بين المذكر والمؤنث ، فهى مؤنثة تأنيثـــا لفظيا ، مجازيا ، وتجرى عليها أحكامه .

خاتمـــــة

بعد هذه الجولة السريعة فى بعض كتب النحو واللغـة حول ما يتلعق بـ « تاء التأنيث » وأحكامها وخصائصهـا ، نستطيع أن نستخلص أهم النقاط التالية :

١ ـ أن لغتنا العربيـــة قد حظيت بنصيب موفور من الخصائص والمزايا جعلها جديرة بأن تكون لغة خاتم الرسـل والرسالات .

٢ ـ أن ظاهرة التأنيث والتذكير من ظواهر تلك اللغـة التى تتميز بها على كثير من اللغات ، ولذا كانت موضـــع عناية من الباحثين فى النحو واللغة فى القديم والحديث .

٣ ـ أن لكل أداة من أدوات تلك اللغة من الخصـــائص والأحكام ما يجعلها جديرة بالبحث والدراسة ، لما يترتب على ذلك من نتائج تبرز قيمة هذه اللغة وتحفظهـا من الانحراف والضياع .

٤ ـ أن تاء التانيث ـ وهى إحدى أدوات التأنيث فى اللغة العربية ـ ليست مقصورة على معنى التأنيث فحسب، بل تحمل العديد من المعانى والأغراض الأخرى .

٥ ـ أن بعض النحاة ـ كالعلامة الرضى ـ قد أسرفوا فى تعداد معانى التاء وأغراضها ، حتى أوصلوها الى ثلاثة عشر معنى ، وهو ما أجملته فى ستة معان بعد ضـــم بعض تلك المعانى الى بعض تجنبا للتكرار ومراعاة للدقة والاختصار .

والله ولى التوفيق

أهم مراجع البحث

١ - إتحاف فضلاء البشر فى القراءات الأربعـــة عشر أحمد بن محمد الدمياطى ط : حنفى ١٣٥٩ هـ .

٢ - الأشباه والنظائر فى النحو جلال الدين السيوطى ، ت : طه عبد الرؤوف - سعد ط : مكتبة الكليات الأزهـرية ١٣٩٠ هـ .

٣ - إعراب القرآن : أحمد بن محمد النحاس ، ت : زهير غازى ط : عالم الكتب ١٤٠٥ هـ .

٤ - الإنصاف فى مسائل الخلاف أبو البركات الأنبارى ت : الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد ط : دار الجيل بيروت ١٩٨٢ م .

- البحر المحيط أبو حيان الأندلسى ط : الرياض - السـعودية .

٦ - البيان فى غريب إعراب القرآن أبو البركات الأنبارى ط : الهيئة العامة للكتاب - القاهرة ١٤٠٠ هـ

٧ - حاشية الشيخ الخضرى على شرح ابن عقيل ط : الحلبى - القاهرة ١٣٥٩ هـ

٨ - حاشية محمد على الصبان على الأشـــمونى ط : مصطفى محمد .

٩ - الخصائص لابن جنى أبو الفتح عثمـــان بن جنى ت : الشيخ محمد على النجار ط - الهيئة العـــامة للكتاب القـــاهرة .

١٠ - سر صناعة الإعراب - أبو الفتح عثمان بن جنى ت : مصطفى السقا وآخرين ط : الحلبى .

١١ - شرح الأشمونى على ألفية ابن مالك ط : مصطفى محمـــد .

١٢ - شرح الشافية - رضى الدين الاستراباذى ط : دار الكتب العلمية بيروت .

١٣ - شرح الكافية - رضى الدين الاستراباذى ط : دار الكتب العلمية بيروت .

١٤ - شرح المفصل لابن يعيش ط : ادارة الطبـــــاعة المنيرية - القاهرة .

١٥ - الضرائر لابن عصفور الاشبيلى ط : دار الأندلس ١٤٠٢ هـ .

١٦ ــ الكتاب لسيبويه ت : عبد الســـــلام هارون ط : هيئة الكتاب ــ القاهرة ٠

١٧ ــ الكشاف للزمخشرى ط : دار المعرفة بيروت لبنان ٠

١٨ ــ لسان العرب لابن منظور ط : دار المعارف ٠

١٩ ــ المذكر والمؤنث لابن الأنبارى ت : محمد عبد الخالق عضيمة ط : مجمع البحوث الاسلامية ــ القاهرة ٠

٢٠ ــ المزهر فى علوم اللغة وأنواعها للسيوطى ت : محمد جاد المولى وآخرين ط : عيسى الحلبى ٠

٢١ ــ مغنى اللبيب لابن هشام ت : محمد محيى الدين عبد الحميد ط : مكتبة الكليات الأزهرية ٠

٢٢ ــ النحو الوافى للأستاذ عباس حسن ط : دار المعارف بمصر ٠

٢٣ ــ همع الهوامع للسيوطى ط : دار المعرفة بيروت لبنان

خطبة الوداع
من منظور عام
للخطبة الجاهلية والإسلامية

بحث مقدم من :

د / عبد الكريم أحمد عواد

تمهيـــــــــــــــد :

تحدث كثير من مؤرخى الأدب والمشتغلين به عن نشأة الفن الخطابى وكادوا يجمعون على أنه نشأ مع الإنسان ، وهو فن نثرى قديم ، وربما كان من أقدم الفنون الأدبية .

ومعلوم أن الإنسان لا يسير على وتيرة واحدة نراه هادئا تارة وثائرا تارة أخرى ، وفى كلتا الحالتين يدعوا إلى ما تنفعل به نفسه مستخدما القول فى إثارة عواطف المحيطين به ولا سيما إذا كان خطيبا لديه مكونات الخطابة ، وتوفرت فيه الموهبة .

« لأن الخطابة كسائر الأنواع الأدبية نشأت فى الفطرة يفيض بها وجدان الخطيب » (١)

والخطابة ضرورة من ضرورات الأمم والمجتمعات ، وليس ادل على ذلك من قول الجاحظ : « الخطابة شىء فى جميـــــع الأمم ، وبكل الأجيال إليه أعظم الحاجة » (٢)

---

(١) فن الخطابة وتطوره عند العرب لايليا حاوى ص ١٤ دار الثقافة بيروت لبنان بدون تاريخ .

(٢) البيان والتبيين للجاحظ تحقيق عبد السلام هارون ٣/١٢ ط ٤ مكتبة الخانجى القاهرة ١٠٧٥ م

وذلك لأنهم فى حاجة ماسة إليها فى كل أحوالهم مع اختلاف بواعثها ، فعندما تستبد بالناس الأهواء ويكثر النزاع فيهم تراهم يتخذون من السيف أو السلاح حكما تارة وتارة أخرى يلجأون الى الكلمة البليغة ، أو الخطب التى لها تاثير فى النفوس ، والمصحوبة بالدليل والحجج الدامغة ، ولا عجب فى هذا لأن طبيعة الانسان جبلت على الدفاع عن النفس وعن القوم ، وربما كانت الكلمة البليغة أقوى من السيف وأمضى أثرا منه فتغيرهن الحال ، وتبدل العدو صديقا ، والجفاء مودة، ومن ثم كانت الخطابة هى الأداة الأولى فى الدعوة الى اعتناق راى أو عقيدة فى سلم أو حرب ، فهى التى تربى النفوس فى السلم ، وهى التى تفود الى ساحات الوغى ، وتشعل نار الحماسة فى النفوس ، ومن ثم تستعذب الموت فى سبيل نيل المراد وتحقيق الغاية .

ولقد أحدث الإسلام ثورة هائلة فى حياة العرب المختلفة دينيا ، وسياسيا ، واقتصاديا ، واجتماعيا ، وكانت هذه الثورة تهدف الى تغيير معالم الحياة العربية والوصول ببنى الانسان الى طريق الهداية والدعوة الحقة وهى فىحاجة الى خطباء يقفون وراءها ويذودون عنها ، ويؤيدون مبادئها ، ويعملون جاهدين على نشرها واعتناقها ، وفى المقابل كان هناك تيار آخر يعمل على تقويض دعائم هذه الدعوة ، والحيلولة دون انتشارها وشيوعها عن طريق الخطابة أيضا .

وهذا إن دل على شىء فإنما يدل على أثر الإسلام فى فن الخطابة وكيف أخذ بيدها من أول الأمر وارتقى بها حتى

وصلت الى ذرا المجد، وإلى منزلة راقية وعالية ، ولعل أصدق دليل على علو مكانة الخطابة وأهميتها أن الله بعث الخطباء أنبياء ولم يبعثهم شعراء فاتخذوا الخطابة إحدى وسائلهم فى تبليغ دعواتهم ، وإقناع أقوامهم عن طريق إثارة المشاعر والأفكار وإقامة البراهين والحجج الدامغة ، ومن ثم دعا موسى ربه قائلا :

« واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى » (٣)

ونظرا لأهمية الخطابة فى مختلف الميادين جعل منها - صلى الله عليه وسلم - أداة لدعوته ، فكانت لسانها المعبر عن مبادئها ومحاسنها ، كما كانت تعمل على إقناع الناس بها متخذة من الحجة الدامغة والبراهين الساطعة دليلا قويا ، وبهذا أخذ فن الخطابة عند رسول الله المكان اللائق به بين فنون البيان الأخرى « فأقبل عليه كما أقبل على غيره ليوظفه فى تلك الوظيفة الدينية الجديدة ويخاطب كل جمع » (٤)

وكانت خطب المصطفى - صلى الله عليه وسلم - تصافح أسماعهم ، وتلامس شغاف قلوبهم وعقولهم ، ولا عجب « فقد

---

(٣) سورة طه الآيتان : ٢٧ ، ٢٨

(٤) تأملات فى البيان النبوى د/ابراهيم عوضين ص ٨٨ ط ٢ مطبعة السعادة ١٩٨١ م

هيأت الأقدار لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يكون المثل الأعلى للخطيب الممتاز » (٥)

ومن روائع خطبه - صلى الله عليه وسلم - « خطبة الوداع » وهى التى تمثل الدعوة الى التمسك بتعاليم الدين الحنيف ، والتحذير من البغى والعدوان والبعد عن سنن الجاهلية .

الى جانب بعض القضايا الاجتماعية الأخرى التى يقوم عليها المجتمع السليم ، فضلا عما فيها من الإبداع الخطابى الرائع لسيدنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومن ثم كان اختيارى لهذه الخطبة التى سأعيش معها تحليلا ودراسة .

وإنى لأستأذن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى أن أعيش مع جانب من إبداعه الخطابى فى هذه الخطبة كى أحظى بشرف الحديث عن بيانه - صلى الله عليه وسلم - وليكون لى من حلاوة منطقه نصيب فكلامه - صلى الله عليه وسلم -

« قد حف بالعصمة ، وشيد بالتأييد ، ويسر بالتوفيق ، وهو الكلام الذى ألقى الله عليه المحبة ، وغشاه بالقبول ،

---

(٥) البيان النبوى د/محمد رجب البيومى ١/٥٩ ط دار الفكر القاهرة ١٩٨٠ م

وجمع له بين المهابة والحلاوة ، وبين حسن الإفهـــام وقلة الكلام » (٦)

وأملى فى الله أن يعيننى على تجلية بعض خصائص هذه الخطبة من حيث منهجها وأفكارها وألفاظها مستعينا فى ذلك بتوفيق الله أولا وبما كتب فى هذا المجال ثانيا ٠

والله من وراء القصد وهو حسبنا ونعم الوكيل ٠

دكتور : عبد الكريم أحمد فراج

---

(٦) البيان والتبيين ١/١٧

النص :

« الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، أوصيكم (١) عباد الله بتقوى الله ، وأحثكم على طاعته ، وأستفتح بالذى هو خير ·

أما بعد : أيها الناس اسمعوا منى أبين لكم فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا فى موقفى هذا ·

أيها الناس إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم الى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد ، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها الى الذى ائتمنه عليها ، وإن ربا الجاهلية موضوع ، وإن أول ربا أبدأ به ربا عمى العباس بن عبد المطلب ، وإن دماء الجاهلية موضوعة ، وإن أول دم نبدأ به دم عامر بن ربيعة (٢) ابن الحارث بن عبد المطلب ، وإن مآثر الجاهلية موضوعة غير

---

(١) التعبير بـ « أوصيكم » دلالة على حب النبى للمسلمين لأن الوصية لا تكون الا من محب لمن أحب ، فضلا عما فى هذا التعبير من الاحساس بدنو الأجل ·

(٢) لأنه من عشيرته حتى يكون قدوة لغيره ·

السدانة (٣) والسقاية والعمد قود (٤) ، وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر ، وفيه مائة بعير فمن زاد فهو من أهل الجاهلية .

أيها الناس : إن الشيطان قد يئس أن يعبد فى أرضكم هذه ولكنه قد رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم .

أيها الناس : إنما النسىء (٥) زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله .

إن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السموات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم ثلاثة متواليات وواحد فرد ، ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذى بين جمادى وشعبان (٦) ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد .

---

(٣) خدمة الكعبة وكانت لبنى عبد الدار فى الجاهلية وقد اقرها الرسول لهم فى الاسلام .

(٤) قتل القاتل قصاصا .

(٥) تأخير حرمة الشهر الى ما بعده ان صادف حربا .

(٦) احترس ـ صلى الله عليه وسلم ـ بقوله « بين جمادى وشعبان » لأن ربيعة كانت تحرم شهر رمضان وتسميه « رجبا » السيرة النبوية لابن هشام ٤/١٨٥ تعليق طه سعد .

أيها الناس : إن لنسائكم عليكم حقا ولكم عليهن حق ، لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم غيركم ، ولا يدخلن أحدا تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم ، ولا يأتين بفاحشة مبينة ، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تعضلوهن (٧) وتهجــــروهن فى المضاجع ، وتضربوهن ضربا غير مبرح فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، وإنما النســـاء عندكم عوان (٨) لا يملكن لأنفسهن شيئا ، أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله فاتقوا الله فى النســـاء ، واستوصوا بالنساء خيرا ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد ٠

أيها الناس : إنما المؤمنون إخوة ، ولا يحل لامرىء مسلم مال أخيه إلا عن طيب نفس ، الا هل بلغت ؟ اللهم اشهد فلا ترجعن بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض فإنى تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعدى كتاب الله ، ألا هـــل بلغت ؟ اللهم اشهد ٠

أيها الناس : إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير ، وليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى ، اللهم بلغت اللهم اشهد ٠

قالوا نعم : قال فليبلغ الشاهد الغائب ٠ إ

---

(٧) العضل : الحبس والتضيق ٠
(٨) جمع عانية وهى الخادمة ٠

أيها الناس : إن الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ، فلا يجوز لوارث وصية ، ولا تجوز وصية فى أكثر من الثلث ، والولد للفراش وللعاهر الحجر ، من ادعى الى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل نه صرف (٩) ولا عدل (١٠) والسلام عليكم ورحمة الله » (١١)

مناسبة النص :

ألقى رسول الإنسانية الأول ومعلم البشرية الأعظم سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – هذه الخطبة يوم عرفة فى السنة العاشرة من الهجرة وسط الجموع المحتشدة على عرفات وقد كان حوله خلق كثير .

« فقد كان مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فى ذلك العام ما يزيد على عشرة آلاف صحابى كلهم خرجوا لينالوا الخير والبركة بالاقتداء والتأسى برسول الله – صلى الله عليه وسلم – فى حجه ونسكه » (١٢)

---

(٩) الصرف : التوبة .
(١٠) العدل : الفدية .
(١١) البيان والتبيين ٢/٣١ هارون والخطبة فى سيرة ابن هشام والطبرى مع اختلاف يسير فى الألفاظ .
(١٢) السيرة النبوية الخالدة د/محمد عبد المنعم خفاجى ص ٤١١ ط ١ .

بل قيل إنه اجتمع حوله عليه الصلاة والسلام - فى هذا اليوم المشهود « مائة ألف وأربعة وعشرون ، أو أربعة وأربعون ألفا من الناس فقام فيهم خطيبا وألقى هذه الخطبة الجامعة » (١٣)

وسميت بخطبة الوداع لأنها آخر خطبة خطبها - صلى الله عليه وسلم - فى آخر حجة حجها « فكانت حجة البلاغ وحجة الوداع وذلك أن رسول الله لم يحج بعدها » (١٤)

ولقد شعر رسول الله بأهمية هذه الخطبة وبجلال مناسبتها وأنها آخر خطبة له فى عرفة وبدا هذا واضحا فى قوله :

« فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا » (١٥)

ولقد صدق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى إحساسه وشعوره فقد وافته المنية سنة إحدى عشرة للهجرة فى ربيع الأول ·

---

(١٣) الرحيق المختوم للشيخ صفى الرحمن المباركفورى ص ٤٥٢ ط ٦ دار الريان ١٩٨٨ م

(١٤) السيرة النبوية لابن هشام ٤/١٨٧ تعليق طه عبد الرءوف مكتبة الكليات الأزهرية ١٩٧٨ ·

(١٥) السابق ٤/١٨٥

ومما يدل على عظمة الموقف وجلاله وأهمية تلك المناسبة أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - أمر أحد أصحابه (١٦) ان يردد بعض عبارات خطبته على أسماع الجمـــوع المحتشـــدة آنذاك .

ولعلنا نلاحظ أن المصطفى - صلى الله عليه وسلم - قد أبدى جليل الحكمة فى تلك الخطبة ولا غرو « فما ظنك بخطيب يجتمع أمامه حشد لم يجتمع مثله من قبل ، ويحس أن عليه لهذا الجمع عبء الإبلاغ ليخرج من التبعة أمام ربه ، وأى إبلاغ ذلك ليس الأمر إبلاغ مسألتين أو مسألة ولكنه ارساء حقوق الإنسان على وضع وطيد » (١٧)

موضـــوعهـــا :

قامت هذه الخطبة على أساس « الدعوة إلى التمســك بتعاليم الإسلام الرشيدة ، والتحذير من البغى والعدوان ، وسنن الجاهلية ، وكأنه - عليه الصلاة والسلام - يتبرأ من مخالفة هذا الدستور الإسلامى وإهمال تنفيذه ، ويلقى بالتبعة على المقصرين ، ويلمح إلى انه يقف بين أتباعه المـــوقف الأخير » (١٨)

---

(١٦) وهو ربيعة بن أمية بن خلف السابق ٤/١٨٦

(١٧) البيـــان النبـــوى ١/٦٩ .

(١٨) من طرائف الأدب العربى مقالات وبحوث ص ٤٤ د/عبد السلام سرحان ط ١٠ سنة ١٩٧١ م

المحتوى الفكرى للخطبة :

احتوت هذه الخطبة على أفكار كلية وأخرى جزئية فمن الأفكار الكلية الدعوة الى الإيمان بالله وحـــده لا شريك له والتمسك بكتابه وتبليغ رسالته ، وبيان أن الإســــــلام دين المساواة ولا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى .

وقد ضمت هذه الأفكار الكلية أفكارا جزئية منهـــــا مراعاة حقوق الإنسان وأداؤه للأمانة ، وإرساء القواعـــد والأسس التى تقوم عليها العلاقة بين الرجل وأهله ، واحترام حقوق الآخرين ، والبعد عن الربا وعدم التعامل به الى جانب أهمية النفس والمال والعرض فى الإسلام ، والسير على نظام الميراث الذى شرعه الشــــارع الحكيم ، والبعد عن وساوس الشيطان ونزغاته .

منهج الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى خطبـــة الـــوداع :

إن المتأمل فى منهج الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى الخطبة يرى أنه بدأها بمقدمة موجزة دقيقة مشوقة أثنى فيها على ربه ، وبين أنه مصدر الهداية ، وهذه المقدمة جاءت ممهدة لموضوع الخطبة ، ومتصلة بما بعدها ، ومن ثم كان لابد من العناية بها فى الخطبة لما لها من أثر فى نفوس المستمعين

« لأن براعة الاستهلال من أخص أسباب النجـــــاح فى الخطبة » (١٩)

والمقدمة فى الخطبة « تشبه المطلع للقصيدة والمدخل فى المسرحية والتمهيد الموسيقى للقطع الغنائية » (٢٠)

والناظر فى مقدمة الخطبةِ التى معنا يرى أنها مفضيه الى موضوعها ، فليس مضمون الخطبة وفكرتها إلا ما حوته المقدمة وهو الهداية والدعوة الى الدين القويم وعبادة الله الواحد الأحـد .

وبعد هذه المقدمة الموجزة يعرض المصطفى ـ صـلى الله عليه وسلم ـ أفكار خطبته التى كانت ـ مع إيجازها ـ شرحا واضحا وبيانا شافيا لما جاء فى القـــرآن الكريم الى جانب القضاء على المشاكل التى تهدد حياة الناس وسعادتهم فى دنياهم وأخراهم .

وأول هذه الأفكار الإيحاء بقرب نهـــايته ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهذا ناقوس يدق على رءوس الناس ـ وينذرهم باليقظة والانتباه وقد وضح هذا فى قوله : « لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا فى موقفى هذا »

---

(١٩) المثل السائر لابن الأثير ص ٦٤ البهية ١٣١٢ هـ

(٢٠) الخطابة فى صدر الاسلام د/محمد طاهر درويش ٢٣/١ دار المعـــارف ١٩٦٥ م

وهذا ما حدا بالرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يضع أكبر عدد ممكن من التشريعات السامية بين جنبات هـــذه الخطبة الختامية بهدف إصلاح أحوال الأمة وتبصيرهـــا بأمور دينها ، ووضع حد فاصل بين حياتين : حياة العـرب فى الجاهلية وحياتهم فى الإسلام ، فقد كان عرب الجاهلية متفرقين شيعا شيعاً وأحزابا ، يتقاتلون ويتنازعون طلبـــا للثأر ، ونهبا للأموال ، ولما جاء الإســـلام ضمهم تحت راية واحدة ولواء واحد ، ومنعهم من المنازعات والمشاحنات ، وأخذ بأيديهم الى جادة الصواب ، وقد وضح هذا ببيان الرسـول لموقف الشريعة من الدماء والأموال وما لهما من حرمة ومراعاة الإنسان لهذه الحرمة بالحفاظ عليها •

وينتقل الحديث بعد ذلك الى الأمانة وما لها من قيمة ، والربا وما له من خطورة على حياة الناس ، وقد حذر - صلى الله عليه وسلم - من الخيانة وعدم أداء الإنسان الأمانة لمن ائتمنه ، كما حذر من التعامل بالربا وبين مغبة ذلك وقد بدا هذا فى قوله - ﷺ - « فمن كانت عنده أمانة فليؤدها الى الذى ائتمنه عليها ، وإن ربا الجاهلية موضوع ، وإن أول ربا أبدأ به ربا عمى العباس » (٢١)

ويبدو من هذا أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - أعطى دليـــلا عمليا على وجوب الالتزام وتغيير المسلك الربوى الذى كان يسلكه الناس فى الجاهلية وإلزام الناس الحجة الفعلية

---

(٢١) حتى يكون قدوة بمن هو أقرب وأحب الناس اليه •

فى كل ما يدعو إليه ، وبهذا يعمق فكرة تحريم الربا عن طريق الإقناع القولى والفعلى لخطورة هذا الداء وخوفا من استمرائه فى النفوس ٠

وبعد هذا التحذير يبشر - صلى الله عليه وسلم - الناس ببشارة طيبة وهى كون الشيطان يئس أن يعبد فى الجزيرة العربية ولكن مع تحذيرهم نبههم الى المداخل والمنافذ التى يمكن أن يدخل منها الشيطان لابن آدم ، ولا غرو فالشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم فى العروق فينبغى علينا أن نضيق عليه مجاريه ٠

وقد أكد - صلى الله عليه وسلم - فكرته بإن واسمية الجملة فى قوله الذى جمع بين البشارة والتحذير :

« إن الشيطان قد يئس أن يعبد فى أرضكم هذه ولكنه قد رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم »

ولما كان الجاهليون يتصرفون فى الشهور ويغيرونهـــا حسب أهوائهم وما يتناسب معهم أخبر - صلى الله عليه وسلم - أن عام الوداع هو الفيصل فى هذه القضية حيث استعادت الشهور والأيام وضعها الحقيقى من حيث شـــهور الحل والأشهر الحرم وتسير مع واقع الحياة الصادقة ، ومن ثم حذر الرسول من التصرف فى الزمن وأشهر الحل والأشهر الحرم مرة أخرى ، وبين أن تغيير هذا النظام الإلهى زيادة

فى الكفر والضلال ، وقد بدا هذا واضحا فى قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

« أيها الناس إنما النسىء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله ، إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم،ثلاثة متواليات وواحد فرد،ذو القعدة وذو الحجةوالمحرم، ورجب الذى بين جمادى وشعبان ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد ٠

ويبدو من خلال هذه الفقرة الاحتراس الجميل الذى بدا من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى قوله : « ورجب الذى بين جمادى وشعبان » لأن العرب كانت تسمى رمضان « رجبا » ٠

ثم يتحدث الرسول بعد ذلك عن النساء وعن الاستعطاف الواجب نحوهن ، وقد جلى هذه الفكرة واختار لها ألفاظا رقيقة حانية تتناسب مع المعنى وأكد هذا بقوله : « إنما النساء عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئا »

ثم ينادى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على المسلمين بأنهم إخوة فى الدين وفى العقيدة فلا يحل لمسلم أن يأخذ مال أخيه المسلم إلا عن طيب خاطر فلا ظلم ولا نهب كما لا يحل له أن

يضربه أو يقاتله وقد وضح هذا فى قول الرسول :

« فلا ترجعن بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض »

ويوجههم الى الطريق الذى يبعد عنهم الزيغ والضلال ويكفل لهم السعادة فى الدنيا والآخرة وهو كتاب الله عز وجل ـ فيقـــول :

« فإنى تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعدى كتاب الله »

ويستمر ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فى توجيـــــه الناس حيث يدفعهم الى المساواة والى التـآخى والتواضع وعدم الصلف والغرور بقوله معللا لذلك :

« أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب أكرمكم عند الله أتقاكم » ثم يؤكد هذه الفكرة ويعمقها بقوله : « ليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى »

ثم يختتم ـ صلى الله عليه وسلم ـ خطبته بالفكرة التى بدأها بها ليؤكد أهمية الأعراض والأموال بقوله :

« أيها الناس : إن الله قد قسم لكل وارث نصيبه من

الميراث فلا يجوز لوارث وصية ، ولا تجوز وصية فى أكثر من الثلث والولد للفراش وللعاهر الحجر ، من ادعى الى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، ولا يقبل منه صرف ولا عدل والسلام عليكم ورحمة الله »

وهكذا تسير الخطبة واضحة المعانى سهلة الأسلوب متماسكة البناء ، عرضها جذاب يمتع الأسماع ويثلج الصدور بما فيه من ألفاظ رائعة ومعان جميلة أخاذة ولا غرو فى هذا فهى خطبة سيدنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أفصح الخلق على الإطلاق وليس « إحكام الأداء وروعة الفصاحة وعذوبة المنطق وسلاسة النظم إلا صفات كانت فيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ عند أسبابها الطبيعية » (٢٢)

ولا يفوتنا أن الرسول فى استغفاره وتوبته واستعاذته من الشرور وسيئات الأعمال إنما يعطينا القدوة من نفسه وهو أنه يستغفر ويتوب ، وهذه دعوة لاستغفار المؤمنين وتوبتهم الى ربهم وهم أولى بذلك من الرسول صلى الله عليه وسلم ـ وتعطى هذه الخطبة المثل الأعلى للحكام المسلمين وللزعماء وقادة الأمم والحكام كيف يكونون مع غيرهم من المحكومين ؟ وهى إعلان لحقوق الإنسان التى سبق بها الاسلام الأمم والحكومات المختلفة .

---

(٢٢) اعجاز القرآن والبلاغة النبوية مصطفى صادق الرافعى ص ٣٢٩ ط ٨ المكتبة التجارية بمصر ١٩٦٥ م

أهم ما يميز أســـلوب الخطبة :

مما لا شك فيه أن العناية بالأسلوب فى النص الأدبى تعلى من شأنه وتعطيه فرصة أكبر للبقـــــاء ومن ثم كانت صياغة الأسلوب غاية من غايات الأديب وبخاصة الخطيب لأن الأسلوب الذى يتصف بالدقة والإيحاء يزيد من التأثير فى نفوس السامعين ويخلب أفئدتهم ويستميل قلوبهم ·

والمراد بأسلوب الخطبة : الطريق الخاص الذى يسلكه الخطيب فى تأليف خطبته من حيث اختيار ألفاظه » (٢٣) · وتعبيراته وعرض أدلته وبراهينه معبرا عن أفكاره ومعانيه ومحللا على ملامح شخصيته الأدبية والشعورية بهـــــدف الإقناع عن طريق الحقائق وإثارة الشعور والوجدان ·

ومن هذا المنطلق كان لابد للخطبة من أسلوب يميزها عن غيرها من الفنون الأدبية الأخرى ·

وغاية الخطيب فى أسلوبه لفت أنظار السامعين وشـد انتباههم وجذب مشاعرهم وإقناعهم ولا يكون ذلك إلا بـ « أن يعرض آراءه فى أسلوب يجذب نفوس السامعين ويسترعى انتباههم ، ويهيج مشـاعرهم ويجعلهـم يعتنقـون آراءه ويستصوبون أفكاره » ·

---

(٢٣) انظر أسس النقد الأدبى عند العرب لأحمد بدوى ط ٢ مكتبة نهضة مصر بالفجالة ١٩٦٠ م

ولا يتأتى للخطيب تحقيق هذه الأهـــداف إلا إذا كان أسلوبه واضحا ، ولكى يكون كذلك لابد أن يكون « فى جميع ألفاظه ومعانيه جاريا على سجيته غير مستكره لطبيعته ، ولا يتكلف ما ليس فى وسعه » .

ومما يميز أسلوب خطبة الوداع بدؤها بالحمد والثناء وهذه سمة لم تكن معروفة لدى خطباء الجاهلية من قبـــل وصارت سنة التزمها الخطباء بعده - صلى الله عليه وسلم -

وبدا هذا واضحا فيما جاء عن الزهرى قال :

« كان صدر خطبة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ به من شرور أنفسنا ، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، ونشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ..» (٢٤)

والناظر فى مقدمة خطبته - صلى الله عليه وسلم - يرى أنه حمد الله وأثنى عليه وبين قدرته فى ملكوته ، وأن الهداية بيده - جل شأنه - وقد جعل - صلى الله عليه وسلم - من هذه المقدمة وصية جامعة حين قال : « أوصيكم بتقوى الله وأحثكم على طاعته » .

---

(٢٤) خطب المصطفى / محمد خليل الخطيب ص ٩ دار الاعتصام ١٩٧٧ م .

فقد جمعت هذه المقدمة الموجزة مقاصد الإسلام كلهـا ، وهل الإسلام إلا حمد واعتراف بالألوهية ، وطاعة مطلقة لله ، وسير على طريقته ومنهجه ؟

وبهذا استطاع - صلى الله عليه وسلم - أن يمهـد لخطبته باستثارة سامعيه وجذب انتباههم وهى مهمـة المقدمة فى كل خطبـة ناجحـة .

والمقدمة جاءت هنا مفتتحة بالحمد والثناء على الله بما هو أهله والشهادتين .

وتتجلى البلاغة النبوية فى أسلوب هذه الخطبـة فى الإبداع الخطابى ، وألفاظها دقيقة موحية واضحة الدلالة على معانيها ، ومن ثم نستطيع أن نقول بأن « أسلوبها هو الأسلوب السهل السائغ الممتع » (٢٥)

ومما لا يدع مجالا للشك أن أسلوب الخطبة قد فاق كل أسلوب ، وعلا كل كلام بشرى ، فقد استطاع عليه الصـلاة والسلام أن يوجز المبادىء الرئيسية للإسلام فى هذه الخطبة، وأن يعرض معانيها الجميلة بألفاظ سهلة وعبارات واضحة بعيدة عن التكلف والتصنع المقـوت ، ومن ثم خلص الى حبات القلوب وأصاب الهدف .

---

(٢٥) الحياة الأدبية فى عصر صدر الاسلام د/محمد خفـاجى ص ١٢٨ ط ١ دار الكتاب اللبنانى بيروت ١٩٧٣ م .

ويبدو أن توافر صفات الخطيب الممتاز فى سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - فى أجل معانيها كانت تعانق الأسلوب فى نقل أحاسيسه وتوضيح معانيه واستمالة سامعيه ، فقد كان عليه الصلاة والسلام جميل الطلعة بهى الصورة ، عظيم الفطنة ، سليم اللسان ، وحسبك من صفاته الخلقية قول ابن أبى باهلة وكان وصافا متحدثا عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فكان مما قال : « كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فخما مفخما يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر » (٢٦)

ولا شك أن لهذه الأوصاف أثرا واضحا يزيد من تعلق المستمعين بالخطيب لا سيما سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - الذى فاق كل البشر فى هذه الصفات الحسية كما فاقهم فى الصفات المعنوية ٠

« وبدهى أن الخطيب حين يتحدث إنما يظهر انفعاله فى وجهه فإذا رزق صباحة ووضاءة فقد ضاعف انفعاله من جماله وضاعف فى تأثر سامعيه » (٢٧)

وهكذا كان - صلى الله عليه وسلم - ولذلك اجتمعت للأسلوب فى خطب النبى كما بدا فى هذه الخطبة كمالات البلاغة البشرية ٠

---

(٢٦) محمد المثل الكامل لمحمد أحمد جاد المولى ص ٨ ط ٢ دار الكتب المصرية القاهرة ٠

(٢٧) البيان النبوى د/محمد رجب البيومى ٥٩/١ ٠

ولعل الجاحظ بنى على أسسها نظرته النقدية عندما قال متحدثا عن جماع البلاغة فى الخطابة :

« وزين ذلك كله وبهاؤه وحلاوته وسناؤه أن تكون الشمائل موزونة ، والألفاظ معدلة ، واللهجة نقية فإن جمع ذلك السن والسمت والجمال وطول الصمت فقد تم كل التمام، وكمل كل الكمال » (٢٨)

وقد اشتملت خطبة الوداع على الأساليب المتنوعة لتنتقل بالسامع من أسلوب الى أسلوب فيكون ذلك ضمانا لشد انتباهه ، فاشتملت على الأساليب الخبرية كقوله عليه الصلاة والسلام : « إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم » والإنشائية كقوله : « إسمعوا منى أبين لكم » وقوله : « فليبلغ الشاهد الغائب »

كما اشتملت على الأساليب البيانية كالتشبيه فى قوله عليه الصلاة والسلام : « إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم الى ان تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا ».

وهنا أراد — صلى الله عليه وسلم — أن يوضح المعنى ويثبت الفكرة فى أذهان الناس فشبه حرمة الدماء والأموال والأعراض بحرمة يوم النحر ، وحرمة شهر الحج ،وحرمة

---

(٢٨) البيان والتبيين هارون ٨٩/١

أم القرى لبيان مكانة حرمة هذه الأشياء . وبين « أن التشبيه منتزع من زمان ومكان المخاطبين فكان أدل وأقوى فى بيان الغرض المقصود وهو حرمة الدماء والأموال والأعراض »(٢٩)

والتنويع بين الأساليب - كما قلنا - وسيلة من وسائل الخطيب البارع التي يستعين بهـــا على توضيح أفكاره ، والتأثير فى سامعيه ولفت انظارهم .

والذى يبدو من هذه الخطبة أن الأساليب الحقيقية أكثر حظا من الأساليب المجازية كما فى قوله - صلى الله عليـه وســلم - :

« إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم ، فمن كانت عنـــده أمانة ... وإن مآثر الجاهلية موضوعة .... إن الشيطان قد يئس أن يعبد فى أرضكم هذه ... »

ولعل مرجع ذلك أن هذه الخطبة الجامعة عنيت بالمعانى الذهنية وتقرير الحقائق ومثل الشريعة العليا ، وكل هــذه المعانى تحيا فى النفوس وينفعل السامع لها بقوة التـــأثير المبـــاشر .

وجاءت ألفاظ هذه الخطبة ملائمة للموقف ومنسقة مع

---

(٢٩) صور من البلاغة المحمدية د/عبد الحميـــد العبيسى/١١٥ ط ١ سنة ١٣٩٣ هـ .

المناسبة ، واضحة الدلالة على معانيها ومقاصدها ، لا تحتاج الى شحذ ذهن وكد فكر لأنها دقيقة فى مواضعها ، بليغة الدلالة على أفكارها ومعانيها ، مناسبة كل التناسب لحال سامعيها ، ولا عجب فهى نتيجة لتأدب إلهى رفيع تسهل حتى تكون كأنفاس الصبح معطرة بشذى الورد كقوله - عليه الصلاة والسلام - : « إنما المؤمنون إخوة ولا يحل لامرىء مال أخيه إلا عن طيب نفس »

وتشتد حتى تراها صرخة منذر ترى فيها التهديد والوعيد والانفعال الشديد كما فى قوله - عليه الصلاة والسلام - :

« والولد للفراش وللعاهر الحجر ، من ادعى الى غير ابيه او تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » .

ولا غرو فـ « النبى خير ناطق من البشر ، وقد كان فى براعة منزعة وإيجاز كلمة وفصاحة لفظه وجزالة قوله وصحة معانيه ، وصدق توجيهاته بالمحل الأرفع والمكانة التى لا تجهل » (٣٠)

ولقد تميز أسلوب هذه الخطبة بتأثره بالقرآن الكريم تأثرا بينا فاحتوت على بعض الآيات وهذا من قبيل التضمين

---

(٣٠) الحياة الأدبية فى عصر صدر الاسلام : ١٢٤ د/محمد عبد المنعم خفاجى .

من القرآن الكريم المعين الفياض الذى رشف من رحيقــه الخطباء والبلغاء وعلى رأسهم سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - ومن هذا التضمين ما ورد فى قوله - صلى الله عليه وسلم - : « إنما النسىء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة فيحلوا ما حرم الله» كما ورد قوله تعالى : « إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم » وقوله أيضا : « إنما المؤمنون إخوة »

والنص الأول مأخوذ من قول الله تعالى - : « إنما النسىء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله زين لهـم سوء أعمالهم والله لا يهدى القوم الكافرين » (٣١)

والثانى مأخوذ من قوله تعالى - : « إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفســكم وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين » (٣٢)

والثالث مأخوذ من قوله - تعالى - : « إنما المؤمنــون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون »(٣٣)

---

(٣١) سورة التوبة آية : ٣٧
(٣٢) سورة التوبة آية : ٣٦
(٣٣) سورة الحجرات آية ١٠

ويتضح مما سبق أن هذا تضمين جزئى وهو أخذ بعض آية ووضعها فى النص وهو مفيد وحسن ٠

ولم يستحسن نقاد العرب خلو الخطبة من القرآن الكريم لقوة التأثير فى نفوس السامعين ، وليس أدل على ذلك من قول بعضهم : « هذا الفتى أخطب العرب لو كان فى خطبته شىء من القرآن » (٣٤)

ويقول ابن الأثير وهو يتحدث عن التضمين :

« فأما الحسن الذى يكتسب به الكلام طلاوة فهو أن يضمن الآيات والأخبار النبوية وذلك يرد على وجهين ، تضمين كلى والآخر جزئى ، فأما التضمين الكلى فهو أن تذكر الآية والخبر بجملتهما وأما التضمين الجزئى فهو أن ندرج بعض الآية والخبر ضمن كلام فيكون جزءا منه» (٣٥)

ويبدو مما سبق أن التأثير بالقرآن كان واضحا فى خطبة النبى - صلى الله عليه وسلم - وكان مفيدا بل الخطب النبوية كلها « بحيث تستطيع أن ترد كل موعظة الى ينابيع الضوء التى تفجرت منها » (٣٦) من حيث مبناها ومعناها فهى :

---

(٣٤) البيان والتبيين ٢/٦

(٣٥) المثل السائر لابن الأثير تقديم د/احمد الجوفى ، بدوى طبانة القسم الثالث ص ٢٠٠ ٠

(٣٦) العصر الاسلامى د/شوقى ضيف ـ ١١٧ دار المعارف دار نهضة مصر للطباعة والنشر ٠

: تحتذى أسلوب القرآن الكريم وطريقة تصـــويره ، وجمال تعبيره ، فتراها حلوة الألفاظ عذبة الكلمات سلسة العبارات ، ومتجاورة الفقرات : يتراوح فيها المبنى مع المعنى وتتلاحق فيها الأفكار متسقة متجانسة ، وتحق فيهـــا الاستعارات ، وتلطف الكنايات ، وتصدق التشبيهات »(٣٧)

ولم تخل خطبة الوداع من أساليب التفصيل والتحليل عندما تطلب المقـــام ذلك رغبة فى تعميق الفكرة وتوضـــيح المعنى ، ومن ذلك قول النبى - صلى الله عليه وسلم - : « إن لنســـائكم عليكم حقا ولكم عليهن حق ، لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم غيركم ، ولايدخلن أحدا تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم ولا يأتين بفاحشة ٠٠٠٠ »

فقد ذكر - صلى الله عليه وسلم - بيانا شافيا لهذين الحقين بين الرجل وزوجه وهذا كثير فى خطب النبى - صلى الله عليه وسلم -

ولقد حرص الرسول على ترسيخ فكرة التآلف والمساواة بين الناس وتوكيد هذه المعانى فى أذهان السامعين والقارئين فجاء بالأسلوب مؤكدا بقوله : « أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ٠٠ » ثم زاد هذا التوكيد بتكرير هذه الجمل فى قوله : « كلكم لآدم وآدم من تراب لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى ٠٠ »

يقول ابن الأثير : « واعلم أن المفيد من التكرير يأتى فى

---

(٣٧) الحياة الأدبية فى عصر صدر الاسلام : ١٢٩ .

الكلام تأكيدا له وتشييدا من أمره . وإنما يفعل ذلك للدلالة على العناية بالشىء الذى كررت فيه كلامك إما مبالغة فى مدحه أو فى ذمه أو غير ذلك » (٣٨)

ولقد حرص - صلى الله عليه وسلم - على تعميق المبادىء الإسلامية والتشريعات السامية التى احتوت عليها الخطبة فى أذهان السامعين وشد انتباههم بين الفقرة والفقرة عن طريق الاستفهام التوكيدى ويعقب ذلك بأن يشهد الله على ما يقول ، وقد بدا هذا فى قوله صلى الله عليه وسلم : « ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد »

ولم تخل خطبة الوداع من بعض المحسنات البديعية اللفظيه والمعنوية كالسجع والجناس والطباق والمقابلة ، وجاءت كلها غير متكلفة ولا مصنوعة ، ومن نماذج المحسنات قول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « إن لنسائكم عليكم حقا ، ولكم عليهن حق ، عليهن ألا يوطئن فرشكم غيركم ولا يدخلن أحداً تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم »

ويبدو من النص تقسيم الجمل والجناس وبعض المحسنات الأخرى كالسجع وغيره وقد جاءت كلها طبيعية غير متكلفة ، ولا غرو فالرسول - عليه الصلاة والسلام - أفصح العرب بلا منازع ، وأدبه ربه فأحسن تأديبه ومن ثم أخذ العرب عنه الفصاحة بجميع وجوهها ، فالرسول - عليه الصلاة والسلام - « لا يند فى لسانه لفظ ، ولا تغيب عنه لغة ، ولا تضطرب له عبارة ، ولا ينقطع له نظم ، ولا يشوبه تكلف»

---

(٣٨) المثل السائر القسم الثالث ص ٤ .

ولا يفوتنا أن ختام الخطبة بالسلام من الأشياء التى تميز بها أسلوبها عن غيرها ، وهذه سمة لم تكن معروفة لدى خطباء الجاهلية وإنما هى إسلامية خالصة .

أهم ما تميزت به خطبة الوداع :

بعد هذا العرض والتحليل لخطبة الوداع يمكن القول بأنها تمثل الخطبة الإسلامية شكلا ومضمونا ، وقد تميزت هذه الخطبة بعموميتها وشمولها لحقوق الانسان ومراعاة آدميته بما فيها من معان شاملة لكل معانى الانسانية التى تكفل للانسان الحرية والكرامة والحياة الآمنة المطمئنة .

وتعد هذه الخطبة آخر ما قاله رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى الناس يوم الحج الأكبر ، وفى هذا ضرورة إشعار المسلمين بأهميتها والتزامهم بما جاء فيها من مبادىء وتشريعات ، فضلا عن أنها تعد إشارة لجل ما دعا اليه رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - فهى بمثابة توصية منه فى موقفه الخاتم بضرورة الالتزام الذى سبقت الإشارة اليه ، وبمثابة الخاتمة لخطبه - صلى الله عليه وسلم - وخاتمة الشىء زبدته وخلاصته ، فهذه الخطبة جاءت ملخصة للكثير من المبادىء والتشريعات والحقوق الإنسانية المستقاة من القرآن الكريم تحقق للناس الخير فى الدنيا والآخرة ، ومن ثم كانت أفكارها صالحة لكل زمان ومكان لأنها تشريع إلهى وفيض نبوى .

يقول الدكتور الشكعة (٣٩) « لم تخل خطبة للرسول من حكمة أو موعظة أو تشريع ، وخطبه - صلى الله عليه وسلم - على كثرتها كانت حلقات ثمينة في سلسلة من الدرر متواكبة انتهت بخطبة حجة الوداع » .

والإسلام - فى جملته - كما يقول جمال الدين محمود(٤٠) « يهدف الى رسم إطار المنهاج الإلهى لحياة البشر فى كل زمان ومكان ، ولذلك غطى منهج العقيدة والأخلاق والتشريع بطريقة تجعله لا يقف أمام الاختلافات العارضة والمؤقتة بين بنى الانسان ، والتى لا صلة لها بفطرة الانسان » .

ولقد تميز الاسلام عن غيره من الأديان بأن رسالته عالمية جاءت الى الناس كافة من جميع الأجناس والألوان وفى كل العصور بخلاف الأديان الأخرى كانت رسالتها ترسل الى قوم بعينهم وفى زمن معين ، قال تعالى :

« وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا » (٤١)

كما تميز الاسلام أيضا بالبناء التشريعى لا سيما الجانب الذى ينظم علاقه الانسان بغيره من الأفراد ، وعلاقة الفرد بمجموع الناس فى المجتمع ، وعلاقة المجتمع ككل بأفراده ، وعلاقته بالمجتمعات الأخرى التى تجاوره أو تعاصره

---

(٣٩) الأدب فى موكب الحضارة الاسلامية د/مصطفى الشكعة كتاب النثر - ٦٩ ط ٢ دار الكتاب اللبنانى بيروت ١٩٧٤ م .

(٤٠) أصول المجتمع الاسلامى بقلم د/جمال الدين محمود - أمين عام المجلس الأعلى للشئون الاسلامية /١٠ العدد ٢٥٢ اكتوبر ١٩٨٣ م .

(٤١) سورة سبأ من الآية : ٢٨ .

وهذا منهج متكامل لأن القواعد العامة التى وردت فيه إلهية المصدر بحيث تسمو على الفكر الانسانى (٤٢)

ومن هذا المنهج ما احتوته خطبة الوداع من مبادىء وتشريعات وحقوق وواجبات تنظم علاقة الناس فيما بينهم ، وتكفل لهم الحياة الكريمة ، ومن هذه الحقوق : المحافظة على الدماء والأموال ، فقد حافظ الاسلام على النفس الانسانية وحرم قتلها إلا بالحق ، وصان حرمتها من الضياع وكرامتها من الإهدار ، وعمل على حقن الدماء بنص القرآن والسنة .

فمن القرآن قول الله ـ تعالى ـ مبينا واجب الانسان نحو صيانة هذه النفس والحفاظ عليها .

« من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا » (٤٣)

وفى هذا بيان بأن إهدار النفس الواحدة إهدار للجنس كله ، وفى الحفاظ عليها حفاظ على الجنس البشرى كله .

وقوله ـ تعالى ـ « ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما »(٤٤)

وحرم الاسلام قتل النفس إلا بالحق فشرع القصاص من

---

(٤٢) راجع مصدر رقم ١/٤٠.
(٤٣) المائدة آية رقم ٣٢.
(٤٤) النساء آية ٩٣.

القاتل فى القتل العمد حفاظا على حياة البشر فقال تعالى ـ « ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون »(٤٥)

وعن الذين يروعون النفوس الآمنة المطمئنة ويسلكون طريق السلب والنهب يقول الله تعالى مبينا جزاءهم ومنذرا إياهم بعاقبتهم الوخيمة لبعدهم عن تعاليم الاسلام : « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ، ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم » (٤٦)

ومن السنة ما روى عن عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضى الله عنهما ـ عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال :

« المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده .. » (٤٧)

وما روى عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « المسلم أخ المسلم ، لا يخونه ولايكذبه ، ولا يخذله ، كل المسلم على المسلم حرام عرضه وماله ودمه ، التقوى هاهنا بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم »(٤٨) رواه الترمذى وقال : حديث حسن .

---

(٤٥) البقـرة آية : ١٧٩
٤٦ ـ المائدة الآيتان : ٣٣ ٣٤
(٤٧) رياض الصالحين باب (تحريم الظلم والأمر برد المظالم)
(٤٨) المصدر السابق باب (تعظيم حرمات المسلمين وبيان حقوقهم)

ولقد كرم الاسلام نفس الانسان وصان حرمتها حية وميتة ، فقد روى مالك وابن ماجة وأبو داود أن النبي — صلى الله عليه وسلم — قال لمن أراد أن يكسر عظم ميت : « لا تكسره فإن كسرك إياه ميتا ككسرك إياه حيا » .

وروى البخاري ومسلم عن سهل بن حنيف وقيس بن سعد أنهما كانا قاعدين بالقادسية فمروا عليهما بجنازة فقاما فقيل لهما : إنها من أهل الأرض — أى من أهل الذمة فقالا : إن رسول الله مرت به جنازة فقام فقيل له : إنها جنازة يهودى فقال : « أوليست نفسا » ؟

فهذا تكريم من الرسول للنفس لمحض آدميتها بغض النظر عن جنسها ولونها وعقيدتها .

وقد طالب الإسلام بأداء الأمانات الى أهلها فقال تعالى : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها » (٤٩)

وقال — صلى الله عليه وسلم — : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، واذا أؤتمن خان »(٥٠)

كما طالب بتحقيق الحرية والكرامة والإخاء والعدل والمساواة بين الناس فحارب الاستعباد والعنصرية ، وكرم بنى آدم .

ومن مظاهر هذا التكريم قول الله تعالى : « ولقد كرمنا

---

(٤٩) النساء آية : ٥٨

(٥٠) متفق عليه — رياض الصالحين باب (الأمر باداء الأمانة)

بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » (٥١)

وأمره للملائكة بالسجود لآدم فى قوله : « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا .. » (٥٢)

« ولقد ركز الاسلام على حرية الانسان ذاته ، ولم يبدأ بالنظر الى الحرية بحسبانها موقفا إزاء الغير يراد وضع إطار له أو قاعدة تحكمه ، وهذا هو الفارق الجوهرى بين فكرة الاسلام فى الحرية وفكرة المناهج الوضعية » (٥٣) .

ولقد سوى الإسلام بين الناس فى الكيان الانسانى ، وفى الآدمية بغض النظر عن أجناسهم وألوانهم وثقافتهم وأعراقهم فقال تعالى : « ثم كان علقة فخلق فسوى ، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى » (٥٤)

كما سوى بين الرجل والمرأة فى التكليفات الشرعية فى الأوامر والنواهى ، والحساب والجزاء فقال تعالى : « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » (٥٥)

وقال ـ صلوات ربى وسلامه عليه : « الناس سواسية

(٥١) سورة الاسراء آية : ٧٠
(٥٢) الاسراء من الآية : ٦١ .
(٥٣) أصول المجتمع الاسلامى : ٨٢
(٥٤) سورة القيامة الآيتان : ٣٨ ، ٣٩ .
(٥٥) سورة النحل آية : ٩٧ .

كأسنان المشط ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، لا فضل لعـــربى على عجمى ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى » (٥٦)

ولقد حرص القرآن على ترسيخ مبدأ المساواة بين النـاس فى البشرية والانسانية فأكد بشرية الرسول ومثليتـــه فى قوله : « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى انما الهكم إله واحـد .. » (٥٧)

وذم العنصرية بقوله مخاطبا الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ : عندما زعم اليهود أن لهم ميزة تميزهم على غيرهم وهى أنلهم الدار الآخرة فانزل الله عز وجل على نبينا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ مبينا وموضحا أنه لا ميزة لأحد على أحد إلا بالعمل فقا لجل شأنه :

« قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون النـاس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ، ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين » (٥٨)

فالإسلام لم يميز بين فرد وفرد ولا بين جماعة وجماعة ، ولا بين أبيض وأسود وإنما جعل التقوى وحسن الصلة بالله دما المعيار العادل ، لا الجنس ولا اللون ولا الدم لأنها معايير لا تصلح للتفاضل بين الناس لكونها غير عادلة قال تعالى :

« يا أيها النـاس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلنـاكم

---

(٥٦) رواه الديلمى .
(٥٧) سورة الكهف من الآية : ١١٠
(٥٨) سورة البقرة الايتان : ٩٤ ، ٩٥

شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم »(٥٩) .

وليس هذا الأمر « بغريب على الاسلام بل هو بداية ومنطلق لكل ما حواه تشريعه من حقوق أوجبها للانسان على اختلاف الجنس واللون والدين والوضع الاجتماعى ، فقد تميز الاسلام منذ ان أشرقت رسالته بتنظيم يحفظ للآدمى الحرمة التي جعلها الله له ، والتى لا تمس إلا بحق وجعل لهذه الحرمة أثرا فى حقوق غير المسلمين ، وواجه الاسلام فى صراحة وعدل كل ما يحدث بين الانسان وغيره من اختلاف ونزاع بسبب عوامل الجنس ، أو الدين ، أو المصلحة وضمن للآدمى من المخالفين حرمة تتصل بكيان الانسان وآدميته » (٦٠).

وقد تبنت المنظمات الدولية حقوق الانسان ففى العاشر من ديسمبر ١٩٤٨ م أقرت الجمعية العامة للأمم المتحدة الإعلان العالمى لحقوق الانسان وأعلنته ، وأكدت شعوب الأمم المتحدة إيمانها بحقوقه الأساسية وبكرامة الفرد وقدره، وبما للرجال والنساء من حقوق متساوية ، من هذه الحقوق : الحرية والإخاء ، والتمتع بكافة الحريات ، والحقوق ، دون تمييز بسبب العنصر أو اللون ، أو الجنس ، أو اللغة ، والمساواة بين الناس فى القانون ، أو مراعاة كرامة الانسان بعدم التدخل فى شئونه الخاصة ، وتساوى الحقوق بين الزوجين .. الخ (٦١)

---

(٥٩) سورة الحجرات آية : ١٣

(٦٠) أصول المجتمع الاسلامى : ٦٤

(٦١) أنظر الاسلام وحقوق الانسان - دراسة مقارنة - د/القطب محمد قطب ٦٠٥ وما بعدها ط ٢ دار الفكر العربى ١٩٨٤ م .

والناظر فى هذه الحقوق التى اشتمل عليها هذا الاعلان يرى أن خطوطها العريضة التى قامت عليها لم تكن وليدة العصر الحديث وإنما استبق بها الاسلام المنظمات الدولية التى ترعى هذه الحقوق منذ أربعة عشر قرنا كما بدا فى خطبة الوداع سالفة الذكر والتى كشفت لنا عن تكريم الله للانسان.

« وما زالت المجتمعات الإنسانية تسعى لكى تدرك الآفاق العالية لهذا التكريم الآلهي ، وتسعى فى تحصيله ، ونجد تقدم كل أمة فى حضارتها مرتبطا أشد الارتباط بالكرامة الانسانية فى مجتمعاتها ، فأعظم المجتمعات حضارة هو المجتمع الذى ترتفع فيه آفاق الكرامة الانسانية لتشارف القمة الاسلامية بشريعتها واحكامها ، وقياس المجتمعات الانسانية فى هذا العصر بمقياس التقدم والرقى أو التخلف والضعف هو على أساس ما تقره القوانين للانسان من كرامة وليس الإعلان العالمى لحقوق الانسان سوى محاولة لكى تستشرف النظم الوضعية على اختلاف أنظمتها ومذاهبها النص القرآنى المحكم فى قوله تعالى :

« ولقد كرمنا بنى آدم ..» (٦٢)

(٦٢) اصول المجتمع الاسلامى ٧٤ ، ٧٥.

دراسة فنية للخطبتين الجاهلية والإسلامية :

ولما كانت خطبة الوداع تمثل الخطبة الإسلامية بكل معانيها رأينا أن نلقى الضوء على الخطبة فى العصرين الجاهلى والإسلامى من حيث البواعث والأغراض والسمات الفنية التى تجمع بينهما ، وما تميزت به الخطبة الاسلامية عن الجاهلية .

بواعث الخطابة الجاهلية :

اهتم الجاهليون بالخطابة التى كانوا يعبرون بها عما يجيش فى صدورهم من أفكار وآراء ، ويصورون ما يطوف بعقولهم فى شئون حياتهم المختلفة ، وكانت صفة من صفات سيد القوم وشريفهم الذى يدعو الى الحرب وأخذ الثأر تارة ، وإلى السلم وحقن الدماء تارة أخرى ، فلابد لهذا السيد أن يكون خطيبا مفوها فصيح اللسان ، يترجم عن الفكر ، ويؤثر فى القوم ويقنعهم ويستميلهم ، وقلما يصل إنسان الى مرتبة الشرف والسيادة لا تتوفر فيه هذه الصفة، ومن ثم كثرت بواعثها ودواعيها .

« فأذواقهم الأدبية وتأصل ملكات البلاغة فى نفوسهم ، وتملكهم زمام الفصاحة ، ثم كثرة الحروب والخلافات بينهم، ثم تفرقهم قبائل وأحياء مع أميتهم الغالبة عليهم والتى

ألجأتهم الى الاستعانة باللسان دون الكتابة ، ثم ضعف شأن الشعر ومكانته فى نفوس أشرافهم بتكسب الشعراء به، ثم سعة مجال الخطابة فيهم وكثرة أسبابها لديهم كل ذلك كان داعيا لذيوع الخطابة فيهم ، وانتشارها بينهم » (٦٣)

أبرز موضوعاتها وأغراضها :

كثرت أغراض الخطابة فى الجاهلية وتنوعت مناسباتها طبقا لكثرة المواقف الداعية اليها من حياة الناس وظروف المجتمع وعاداته وتقاليده ، من هذه الأغراض :

- المنافرات والمفاخرات بالأحساب والأنساب وشرف المحتد .

- التحريض على قتال الأعداء والدعوة لمحاربتهم لكثرة ما بينهم من حروب .

- اصلاح ذات البين والعمل على التوفيق بين المتخاصمين .

- المحافل والوفادة على الأمراء والملوك للتهنئة أو التعزية والمواساة .

- التوجيه والنصح والإرشاد .

(٦٣) الحياة الأدبية فى عصر الجاهلية وصدر الاسلام د/محمد خفاجى ، د/صلاح عبد التواب ٨٣ ط ١ دار الزهراء للطباعة والنشر

- خطب النكاح (الإصهار والزواج) •

- الوصية من الكبار .

وسنسوق نماذج لهذه الأغراض ونكتفى منها بالقـــدر المطلوب .

فمما يدل على المفاخرة (٦٤) والمنافرة (٦٥) ما حدث بين علقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل العامريين ، وهى أشـــهر المنـــافرات فى الجاهليـــة •

قيل لما أسن أبو براء عامر بن مالك تنازع فى الرياســة عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة بن عوف بن الأحوص ، فقال علقمة : كانت لجدى الأحوص وإنما صارت لعمك بسببه ، وقد قعد عمك عنها وأنا أســـترجعها ؛ فأنا أولى بهـــا منك . فشرى (٦٦) الشر بينهما ، وسارا الى المنافرة ، فقـــال علقمة إن شئت نافرتك ، فقال عامر قد شئت ، والله إنى لأكرم منك حسبا ، وأثبت منك نسبا ، وأطول منك قصبا (٦٧) .

---

(٦٤) المفاخرة : تفاخر القوم بعضهم على بعض بالحسب والشرف والأخلاق الكريمة ، والعز والثروة ، والكثرة والعدد •

(٦٥) المنافرة : المحاكمة فى المفاخرة ، وأصلها من قولهم : أينا أعز نفرا فهى التحاكم الى الاشراف من حكام العرب ليفصلوا بينهمـــا ، ويقضوا بالشرف لأحدهما

الحياة الأدبية فى عصرى الجاهلية وصدر الاسلام د/محمد خفاجى و د/صلاح عبد التواب : ٣١٠ ط ١ دار الزهراء للطباعة والنشر •

(٦٦) شرى : اســتطار •

(٦٧) قصبا : المراد طول القامة •

فقال علقمة : والله لأنا خير منك ليلا ونهارا ، فقال عامر : والله لأنا أنحر منك للقاح (٦٨) وخير منك فى الصباح ، وأطعم منك فى السنة الشياح (٦٩) ... الخ »

وعندما احتكما إلى هرم بن قطبة العزارى سوى بينهما وقال :

« يا بنى جعفر قد تحاكمتما عندى وانتما كربتى البعير الأدرم تقعان على الأرض معا ، وليس فيكما أحد إلا وفيه ما ليس فى صاحبه ، وكلاكما سيد كريم .. » (٧٠)

وبهذا استطاع هرم أن ينزع فتيل الشر بين الطرفين خشية النزاع بينهما .

ومما يدل على التحريض على قتال الأعداء والأخذ بالثأر خطبة « هانىء بن قبيصة الشيبانى » التى حث فيها قومه على الحرب في يوم ذى قار (٧١) وقد نجح فى مهمته وهى تقوية العزائم وحفذ الهمم وفيها يقول : « يا معشر بكر هالك معذور خير من ناج فرور ، إن الحذر لا ينجى من القدر ، وإن الصبر من أسباب الظفر ، المنية ولا الدنية ، استقبال الموت خير من استدباره ، الطعن فى ثغر النحور أكرم منه فى

---

(٦٨) اللقاح : الابل .

(٦٩) الشياح : القحط .

(٧٠) الأغانى للأصبهانى جـ ١٦ : ٢٨٤ وما بعدها مصور عن طبعة دار الكتب المؤسسة المصرية العامة للتاليف والنشر .

(٧١) اليوم الذى انتصر فيه العرب على الفرس .

الأعجاز والظهور ، يا آل بكر قاتلوا فما للمنايا بد ٠٠ » (٧٢)

ومما يدل على الإصلاح بين المتخاصمين وحقن الدماء خطبة مرثد الخير بن ينكف كى يمنع النزاع بين حيبى سبيع ابن الحارث وهيثم بن مثوب بن ذى رعين ، وقد شب بينهما نزاع من أجل الشرف والسيادة ، وقد استدعاهما مرثد وحالفه التوفيق فى جمع شمل الحيين وأصلح بينهما ٠

يقـــول مرثد : « إن التخبط وامتطاء الهجـــــاج (٧٣) ٠ واستحقاب اللجاج (٧٤) سيقفنكما على شفا هوة فى توردها بوار الأصيلة (٧٥) ، وانقطاع الوسيلة ، فتلافيا أمركما قبـــل انتكاث العهد ، وانحلال العقد ، وتشتت الألفة ، وتبـــاين السهمة (٧٦) ٠٠٠ وأنتما فى فسحة رافهة (٧٧)، فقد عرفتم أبناء من كان قبلكم من العرب ممن عصي النصيح ، وخالف الرشيد، وأصغى الى التقاطع ، ورأيتم ما آلت إليه عواقب ســــوء ســـــعيهم ٠٠٠ »

ثم ألقى كل من سبيع وميثم كلمة أكمل بعدها مرثد خطبته وختمها بختام يحث على السلم فقال : « لا تنشطوا عقـــــل

---

(٧٢) الأمالى للقالى جـ ١ : ١٦٩ دار الآفاق الجديدة بيروت

(٧٣) امتطى الرجل هجاجه : ركب رأسه وتمسك برأيه ٠

(٧٤) الملاجة : التمادى فى الخصومة ، واللجلجـــة والتلجلج : التردد فى الكلام ٠

(٧٥) التورد : الاشراف على الماء ، الأصيلة : الأصل ٠

(٧٦) الســـهمة : القـــرابة ٠

(٧٧) ناعمـــة ٠

(٧٨) ،كينـــة ٠

الشوارد ، وتلقحوا العون القواعد (٧٩) ولا تؤرثوا نيران الأحقاد ففيها المتلفة المستأصلة ... وأنيبوا الى السبيل الأرشد ، والمنهج الأقصد ، فإن الحرب تقبل بزبرج (٨٠) الغرور ، وتدبر بالويل والثبور .. » (٨١)

ومن الخطب التى تحمل روح التعزية والمواساة والدعوة الى الصبر خطبة المنبب بن عوف يعزى فيها سلامة ذا فائش ويواسيه فى ابن له كبا به الفرس فخر ميتا .

يقول المنبب وهو يعبر عن حزنه العميق :

« أيها الملك إن الدنيا تجود لتسلب ، وتعطى لتأخذ ، وتجمع لتشتت ، وتحلى لتمر ، وتزرع الأحزان فى القلوب بما تفجأ به من استرداد الموهوب ، وكل مصيبة تخطأتك جلل ما لم تدن به الأجل ، وتقطع الأمل ، وإن حادثا ألم بك فاستبد بملك وصفح عن أكثرك لمن أجل النعم عليك ، وقد تناهت إليك أنباء من رزىء قصير وأصيب فاغتفر .. » (٨٢)

ومما يدل على الوعظ والنصح الخطبة التى ألقاها قس ابن ساعدة الإيادى فى سوق عكاظ وكان واقفا على جمل أحمر يدعو الناس الى التوحيد والإيمان بالبعث والنشور ، وقد شاهده — صلى الله عليه وسلم — وهو يلقيها وأعلن رضاه عنها ، يقول قس :

---

(٧٩) (لا تلقحوا العون) مثل يضرب لعدم قيام الحرب واشعال نارها
(٨٠) الزبرج : السحاب الذى يسفوه الريح .
(٨١) الأمالى ١ : ٩٢ ، ٩٣
(٨٢) جمهرة خطب العرب ١/ ٣٠ البابى الحلبى

« أيها الناس اجتمعوا واسمعوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت ، ايات محكمات ، مطر ونبات ، وآباء وأمهات ، وذاهب وآت ، ضوء وظلام ، وبر واثام ... ونجوم تمور ، وبحور لا تغور ، وسقف مرفوع ، ومهاد موضوع ، وليل داج ، وسماء ذات أبراج ، مالى أرى الناس يموتون ولا يرجعون ، أرضوا فأقاموا أم حبسوا فناموا ، يا معشر إياد أين ثمود وعاد ؟ وأين الآباء والأجداد ؟ ... أقسم قس قسما بالله إن لله لدينا هو أرضى له من دينكم هذا ... » (٨٣)

ومن خطب النكاح والزواج خطبة أبى طالب فى زواج الرسول - صلى الله عليه وسلم - من السيدة خديجة - رضى الله عنها - وفيها يقول :

« الحمد لله الذى جعلنا من زرع ابراهيم ، وذرية اسماعيل وجعل لنا بلدا حراما ، وبيتا محجوجا ، وجعلنا الحكام على الناس ، ثم إن محمد بن عبد الله من لا يوازن به فتى من قريش إلا رجح عليه برا وفضلا ، وكرما وعقلا ، ومجدا ونبلا ، وإن كان فى المال قل : فإنما المال ظل زائل ، وعارية مسترجعة وله فى خديجة بنت خويلد رغبة ولها فيه مثل ذلك ، وما أحببتم من الصداق فعلى » (٨٤)

---

(٨٣) البيان والتبيين للجاحظ جـ ١ : ٣٠٨ وما بعدها ت. هارون
(٨٤) السيرة النبوية لابن هشام تعليق : طه سعد ١ : ١٧٤ .

من السمات الفنية فيها :

جاءت ألفاظ الخطابة الجاهلية سهلة منتقاة واضحة المعنى ـ فى الغالب ـ وقد اعتمد العرب فى هذا على ملكاتهم الصافية ، ومطرتهم التى تقوم على الحس والتذوق للفظ ، والبعد عن التعنت والتكلف ، تراهم يختارون ألفاظهم ، ويجودونها ويهتمون بها فتأتى مطابقة لمقتضى الحال من غير قواعد مرعية ، أو أسس مدروسة وموضوعة ، وليس هذا بغريب على أهل الفصاحة فى اللفظ ، والبلاغة فى القول ، فـ « تخير الألفاظ من شأن كل بليغ » (٨٥)

وخطبة قس بن ساعدة سابقة الذكر خير دليل على ذلك، ولا يعنى وضوح ألفاظ الخطابة الجاهلية خلوها من الغريب الذى هو فى حاجة لإماطة اللثام وكشف النقاب عنه ، فالناظر فى خطبة مرثد الخير السابقة يرى أن ألفاظها يسيطر عليها جو من الغرابة لأنها لا تتفق مع المقام ولا تطابق مقتضى الحال لأنها قيلت فى موقف صلح بين متنازعين ومثل هذا الموقف يحتاج الى ألفاظ حانية رقيقة تؤثر الألباب ، وتستل السخيمة من قلوبهم لا كما ذكر الخطيب من ألفاظ ذات نبرة جافة وقاسية ..

ونتج عن وضوح الألفاظ واختيارها وجريها على السجية وضوح الأساليب وسهولتها وبعدها عن الإغراب الى حد كبير

---

(٨٥) أمراء البيان لمحمد كرد على ١ : ١٥ لجنة التأليف والترجمة والنشر .

ممأا يعكس اهتمام الخطباء الجاهليين بخطبهم والعنــــاية بأساليبها ٠

وقد شاع السجع فى هذه الأساليب وكان الخطبـــاء يهدفون من وراء ذلك الى شد نفوس سامعيهم ، وجذب انتباههم وملامسة شغاف قلوبهم بما فى السجع من موســيقى رنانه وجرس أخاذ يخلب الألباب وتطرب له الآذان ٠

يقول صاحب الصناعتين مبينا قيمة السجع فى الخطب مع بعده عن التكلف والاستكراه : « واعلم ان الذى يلزمك فى تاليف الرسائل والخطب هو أن تجعلها مزدوجة فقط ، ولا يلزمك فيها السجع فإن جعلتها مسجوعة كان أحسن ما لم يكن فى سجعك استكراه وتنافر وتعقيد » (٨٦)

وقد بدا هذا السجع البعيد عن التكلف والإغراب واضحا فى خطبتى هانىء بن قبيصة ، وقس بن ساعدة ، وقد أصاب الخطيبان فيه المحز ٠ حيث جاء فى موضعة يخـــدم غرض الخطيب ، يقول بعض النقاد : « ومن أوصاف البلاغة أيضا السجع فى موضعه ، وعند سماح القريحة به » (٨٧)

أما سجع الكهان فقد غطته مسحة من الإلغاز والتعميـــة والتكلف الممقوت ، ومن ثم كرهه ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين قال : « أسجعا كسجع الكهان » (٨٨)

---

(٨٦) الصناعتين لأبى هلال العسكرى : ١١٩ ط ١ مطبعـــة محمـــود بك ١٣١٩ ٠

(٨٧) نقد النثر المنسوب لقدامة ١٠٧ ت د/طه حسين وآخرين ط ٢ مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر ١٨٣٨ م

(٨٨) اعجاز القرآن للباقلانى : ٢١ ط ١ مكتبة البابى الحلبى١٩٧٨م

قال الأزهرى : « إنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كره السجع فى الكلام والدعاء لمشاكلته كلام الكهنة وسجعهم فيما يتكهنون فأما فواصل الكلام المنظوم الذى لا يشاكل السجع فهو مباح فى الخطب والرسائل (٨٩)

ومن المحسنات التى شاعت فى أساليب خطباء هـــذا العصر الازدواج (٩٠) والموازنة (٩١) المواتية للطبع السليم بقصد الروعة فى الأداء ، والجمال فى الصياغة ، والتأثير فى نفوس السامعين ، وتجلية الفكرة ٠

ومن الخطب الدالة على هذا الشيوع خطبة عمرو بن معد يكرب الزبيدى أمام كسرى أنو شروان بالمدائن ، يقـــول عمـــرو :

« إنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه ، فبلاغ المنطـــق الصواب ، وملاك النجعة (٩٢) الارتياد ، وعفو الرأى خير من استكراه الفكرة ، وتوقف الخبرة خير من اعتساف الحيرة ، فاجتبذ طاعتنا بلفظك ، واكتظم بادرتنا بحلمك ، وألن لنـــا كنفك يسلس لك قيادنا ، فإنا أناس لم يوقس صفاتنا قراع

---

(٨٩) لسان العرب جـ ٣ مادة « سجع » طبع دار المعارف ١٩٤٤ م
(٩٠) هو أن يكون أواخر الجمل على وزن واحد ٠
(٩١) تساوى الجمل أو الجملتين فى عدد الكلام ٠
(٩٢) طلب الكلأ ٠

مناقير ، من أراد لنا قضما ، ولكن منعنا حمانا من كل من رام لنا هضما » (٩٣)

ولقد جاء الازدواج واضحا فى قوله : « وتوقف الخبرة خير من اعتساف الحيرة » والموازنة فى قوله : « فاجتنبذ طاعتنا بلفظك ، واكتظم بادرتنا بحلمك » فضلا عما فى النص من سجع وجناس .

وهكذا بدت مقدرة الخطيب الجاهلى فى البلاغة والبيان، وإحداث قيم صوتية لها أثرها فى النفوس ، وذلك لأن الجاهليين « عنوا بنثرهم كما عنوا بشعرهم ، فقد ذهبوا يحاولون تحقيق قيم صوتية وتصويرية مختلفة فيه تكفل له جمال الصياغة وروعة الأداء » (٩٤)

ومن سمات الخطبة الجاهلية أيضا إيجازها وقصرها لأن حياة العرب فى هذا العصر اقتضت أن تكون خطبهم قصيرة ـ فى الغالب ـ لأنهم فطروا على أداء المعنى بأوجز عبارة ـ وهذا بحكم فطرتهم ـ فضلا عن بساطة حياتهم وخلوها من التعقيدات والفلسفات ، والخطب لا تطول إلا مع الوفرة الثقافية ، والنقلة الحضارية، والنهضة الفكرية ،ومما

---

(٩٣) العقد الفريد لابن عبدربه ج ١ : ٢٨٦ ط ٣ ت/قميحة دار الكتب العلمية بيروت للبنان .

(اجتبذ : اجتذب واستمل ، لم يوقس : لم يخدش ، اكتظم : احتمل واصطبر) .

(٩٤) تاريخ الأدب العربى (العصر الجاهلى) د ./ شوقى ضيف : ٤٢٣ ط ١٠ دار المعارف ١٩٨٢

يوضح هذا الإيجاز خطبة هانىء بن قبيصة إذ لا مجـــال للتطويل فيها لأن الموقف موقف حرب وقتال .

ولا يفهم من غلبة الإيجاز على خطب الجاهليين خلوهـا من التطويل ، فنراهم يطيلون بعض الشىء فى خطب النكاح وإصلاح ذات البين كما سبق فى خطبة مرثد الخير .

يقول أبو هلال العكبرى : « إن الخطباء إذا خطبوا فى الصلح يوم العشائر أطالوا » (٩٥)

كما بدا فى خطبة هانىء بن قبيصة قصر الجمل والفقرات ــ فى الغالب ــ مع ضعف الارتباط بينها وبين أفكارها أحياناً ، ولعل هذا مرده الى عدم اكتمال النضج الفنى للخطابة ، فهى عبارة عن مجموعة من حكم شتى لا يربطها رابط فنى ولكن الخطيب اعتمد فيها على التأثير النفسى فحسب (٩٦)

وهناك بعض الخطب مع قصر جملها وفقراتها تجد رابطا قويا بينها كما فى خطبة اللبيب بن عوف سابقة الذكر وخطبـة مرثد الخير أيضا .

وقد تجمع الخطبة بين الطول والقصر ومع هذا يبـــدو عليها الارتباط بين الجمل والفقرات كما فى خطبة أبى طالب التى سبق ذكرها .

---

(٩٥) الصناعتين : ٢١٢ ت د/قميحة ط ١ سنة ١٩٨١ م

(٩٦) راجع أثر الاسلام فى الخطابة العربية ؟ د / ابراهيم عوضين : ٤٥ وما بعدها ــ طبع المجلس الأعلى للشئون الاســـلامية عدد ١١٨ ســـنة ١٩٧١ م

وقد تنوع أسلوب الخطابة فى هذا العصر بين الخبـــر والإنشاء وهذا ناتج عن القريحة الصافية ، والفطرة النقية ، وتغير انفعالات الخطيب ، فإذا ما تحكم فيها ولبس ثوب الحكيم المجرب جاء أسلوبه هادئا متزنا قائما على الروية ، وإذا انفلت منه الزمام وغلبت عليه هذه الانفعالات الحـــــدة والتوتر جاء أسلوبه متسما بالثورة والغليان ٠

ولعل الهدف من هذا التنويع تحريك الأذهان ، وتجديد نشاط السامعين ، ولفت أنظارهم ، وشد انتباههم ، وقد غلبت الأساليب الحقيقة على أساليب الخطابة فى هـــذا العصر وبخاصة فى خطب التعزية كما فى خطبة الملبب بن عـوف التى سبق ذكرها ومنها قوله : : « أيها الملك إن الدنيا تجــود لتسلب ، وتعطى لتأخذ ، وتجمع لتشتت ، وتحلى لتمر ، وتزرع الأحزان فى القلوب ٠٠٠ »

ومن استعمال الخطباء للأساليب الإنشائية ما ورد فى خطبة عمرو بن معد يكرب الزبيدى بين يدى كسرى وهـــو قوله : « فاجتبذ طاعتنا بلفظك ، واكتظم بادرتنا بحلمك ، وألن لنا كنفك يسلس لك قيادنا ٠٠٠ »

والمتصفح لخطب الجاهلية يرى شيوع الحكمة والمثـــل فى أساليب الخطباء ولعل ذلك راجع الى أن معظمهـــم كانوا حكماء ، وكان العربى فى حاجة الى ما يؤيد به فكرته ، ويدمغ به حجته ، ويقنع به مستمعيه ، ويستمل نفوسهم وقلوبهـــم فتصد الى « إيراد الحكم ليؤثر فى مستمعيه بدلا من أن يسلك

مسالك الجدل المنطقى والبرهنة العقلية » (٩٧) الى جانب أنها « تضفى على الكلام زينة فوق ما تؤديه من إصـــابة المعنى وحسن التشبيه » (٩٨)

وقد شاعت الأمثال فى البيئة الجاهلية لأنها بيئة فطرية غلبت عليها روح الأمية ، وأهلها كانوا فى حاجة الى خلاصـة التجارب كى يجعلوا منها نبراسا يسيروا على هداه فيمــا يتصل بشئون حياتهم ، وقد أشار ابن عبدربه الى قيمـــة الأمثال فى الكلام فقال : « ونحن قائلون بعون الله وتوفيقـه فى الأمثال التى هى وشى الكلام ، وجوهر اللفظ ، وحلى المعنى، والتى تخيرتها العرب وقدمتها العجم ، ونطق بها كل زمان ، وعلى كل لسان ، فهى أنقى من الشعر ، وأشرف من الخطابة ، لم يسر شىء مسيرها ، ولا عم عمومها حتى قيل أسير من مثل، وقال الشـــاعر :

ما أنت إلا مثل ســـــائر
يعرفه الجاهل والخابر » (٩٩)

وقال أبو عبيد : « الأمثال من حكمة العرب فى الجاهلية والإسلام ، وبه كانت تعارض كلامها فتبلغ بها ما حاولت من

---

(٩٧) الخطابة فى عصرها الذهبى د/إحســان النص ١٩ دار المعـــارف ١٩٦٣ م ٠

(٩٨) فى تاريخ الأدب الجاهلى د/ على الجندى ٢٦٠ ط ٢ دار المعـــارف ١٩٧٥ م ٠

(٩٩) العقد الفريد جـ ٣ : ٢ ت محمد سعيد العريان ط دار الفكر بيروت ٠

حاجاتها فى المنطق بكناية غير رتصريح فيجتمع لها بذلك ثلاث خلال : إيجاز اللفظ ، وإصابة المعنى وحسن التشبيه » (١٠٠)

وقد استفاد الجاهليون بأمثالهم فى شئون حياتهم وفى خطبهم وفى وقائعهم وأحداثهم .

ومن الخطب التى شاع فيها الحكمة والمثل خطبة أكثم بن صيفى - وهو من حكماء العرب وخطبائهم - التى ألقاها أمام كسرى منوها بما للعرب من عزة ومجد وسؤدد ، وفيها يقول :

« إن أفضل الأشياء أعاليها وأعلى الرجال ملوكهم ، وأفضل الملوك أعمها نفعا ، وخير الأزمنة أخصبها ، وأفضل الخطباء أصدقها ، الصدق منجاة ، والكذب مهواة ، والشر لجاجة ، والحزم مركب صعب ، والعجز مركب وطىء ، آفة الرأى الهوى والعجز مفتاح الفقر ... شر البلاد بلاد لا أمير بها ، شر الملوك من خافه البرىء .. خير الأعوان من لم يراء بالنصيحة ... يكفيك من الزاد ما بلغك المحل ، الصمت حكم وقليل فاعله ، البلاغة الإيجاز » (١٠١)

وبالنظر فى هذه الخطبة يمكن القول بأنها جاءت فى صورة الحكمة ، وبرزت فى ثوب المثل ، كل جملة منها يمكنها الاستقلال عن الأخرى دون تأثر الفكرة أو المعنى وإن كانت

---

(١٠٠) المزهر للسيوطى ١ : ٤٨٦ ت محمد أحمد جاد المولى وآخرين ط عيسى البابى الحلبى وشركاه .

(١٠١) جمهرة خطب العرب ١ : ٥٦ ط ٢ طبع مصطفى البابى الحلبى ١٩٦٢ .

تنطوى كلها تحت الإطار العام للنص وهو النصح والتوجيه والارشاد ، وهو الرابط العام الذى يربطها حيث « لم تكن - أى الخطابة - قد نضجت فى ذلك العصر من حيث ترتيب أفكارها وتسلسلها ، وارتباط بعضها ببعض ».(١٠٢)

ونعن عدم ترابط الأفكار وتسلسلها مرده الى عدم وحدة الموضوع أو توحيد الفكرة الأساسية فى الخطبة الجاهلية . أو الى « كثرة الأمثال التى تشيع فى خطبهم والتى لا يمكن الربط بينها » (١٠٣)

وقد تأتى الخطبة كلها حكما وأمثالا كخطبة هانىء بن قبيصة (١٠٤) وتناثر الحكمة والمثل فى خطب الجاهليين تعبير عن شيوعهما ، وكان الخطيب يهدف من ذلك الى الإقناع والتأثير والذيوع والشهرة .

وقد شاع الاستشهاد بالشعر فى خطب الجاهليين لأنهم كانوا يجمعون بين موهبة الخطابة والشعر للاقناع والتأثير وترسيخ الفكرة التى يهدف اليها الخطيب ، لأن الشعر « يضفى على الكلام جمالا وروعة » (١٠٥)

وقد بدا هذا فى خطبة مرثد الخير التى يدعو فيها قومه

---

(١٠٢) الخطابة فى عصرها الذهبى : ١٨.

(١٠٣) أنظر الشعر الجاهلى د/محمد خفاجى ١٦٨، دار الكتاب اللبنانى ببيروت ١٩٧٣

(١٠٤) أنظر الشعر الجاهلى : ١٦٧

(١٠٥) فى تاريخ الأدب الجاهلى د/على الجندى ٢٧٣ ط ٢ دار المعارف ١٩٧٥ م

للصلح ، وفى ختامها يقول شعرا ليؤكد فكرته ، يقول مرثد :

« وأنيبوا الى السبيل الأرشد ، والمنهج الأقصد ، فإن الحرب تقبل بزبرج الغرور ، وتدبر بالويل والثبور ثم انشد شعرا فقال :

ألا هل أتى الأقوام بذلى نصيحة
حبوت بها منى سبيعا وميثما

وقلت اعلموا أن التدابر غاورت
عواقبه للذل والقتل جرهما

فلا تقدحا زند العقوق وأبقيا
على العزة القعساء أن تتهدما

ولا تجنيا حربا تجر عليكما
عواقبها يوما من الشر أشأما

فإن جناة الحرب للحين عرضة
تفوقهم منها الزعاف المقشما » (١٠٦)

والناظر فى خطب الجاهليين يرى عدم اهتمام الخطباء بالمقدمات والخواتيم لأنه لا يعنيهم ترتيب أو تنسيق وإنما يسيروا فى خطبتهم طبقا لما تمليه عليه فطرتهم (١٠٧) .

---

(١٠٦) الأمالى للقالى ١ : ٩٢ دار الآفاق الجديدة بيروت .
تفوقهم : تسقيهم ، الفواق : (ما بين الحلبتين) الزعاف : السم - المقشم : المخلوط .

(١٠٧) راجع اثر الاسلام فى الخطابة العربية ١ د/ابراهيم عوضين : ٥٩

ولا يفوتنا أن نبين أن الأفكار الجاهلية كانت تتردد بين العمق والبساطة ، ولعل هذا مرده الى البيئة الجاهلية نفسها التى تقوم على البساطة والبعد عن الفلسفات والتعقيدات « ولضآلة نصيب الجاهليين من الثقافة الفكرية » (١٠٨)

ومع هذا كان الخطيب الجاهلى يعمل على تعميق فكرته بكل وسيلة ممكنة عن طريق التمثيل بالشعر تارة كما سبق فى خطبة مرثد الخير ، أو عن طريق تكرير الفكرة كما فى خطبة هانىء بن قبيصة التى يقول فيها « يا معشر بكر هالك معذور خير من ناج فرور ، إن الحذر لا ينجى من القدر ، وإن الصبر من أسباب الظفر »

ولقد حرص الخطيب فى هذه الخطبة على تكرير فكرته وغرضه فيها وهو الدعوة الى الشجاعة وخوض الحروب والمعارك .

وإذا كان الخطيب الجاهلى لا يهتم بوضع مقدمات وخواتيم تنتهى عندها الخطبة ، ولا بترتيب أفكاره وتنسيقها فإنه مع هذا كان يأتى بالسحر الحلال كما قال ابن الأثير :

« فإن البدوى البادى راعى الإبل ما كان يمر بشىء من ذلك يفهمه ، ولا يخطر ببباله ومع هذا فإنى يأتى بالسحر الحلال إن قال شعرا او تكلم نثرا » (١٠٩)

وعلى الجملة فإن أفكار الخطابة الجاهلية كانت تمتاز

---

(١٠٨) الخطابة فى عصرها الذهبى : ١٨
(١٠٩) المثل السائر جـ ٢ : ٣ ط ٢ دار نهضة مصر للطبع والنشر

« بقربها ووضوحها وبعدها عن التفلسف إذ كان خطباؤهم يستمدونها من بيئتهم الفطرية ، ومن شئون حياتهم الخالية من التعقيدات » (١١٠) وخطبهم خير شاهد على هذا .

وقبل أن ننهى حديثنا عن خصائص الخطبة الجاهلية ينبغى أن نشير الى استخدام العرب الجاهليين للمجاز فى خطبهم لأنهم أدركوه بفطرتهم وتذوقوه بحسهم ، واحسوا ماله من أثر واضح فى الصورة التعبيرية ، وماله من دور فعال فى الإقناع والتأثير والاستمالة ، زمن ثم بدت الصور والأخيلة فى خطبهم ، ولا عجب « فإن المجاز فى كثير من الكلام أبلغ من الحقيقة وأحسن موقعا فى القلوب والأسماع » (١١١)

والخطبة الجاهلية جمعت بين الحقيقة والمجاز بأجناسه المختلفة ولا شك ان ذلك أكسب المعانى نبلا وفضلا ، وفخمها فى نفوس السامعين (١١٢)

وقد ساعدهم على هذا الجمع مواهبهم الخطابية المتمثلة « فى ملكاتهم البيانية ، وما فطروا عليه من خلابة ولسن ، وبيان وفصاحة وحضور بديهة » (١١٣)

---

(١١٠) الأدب فى عصر النبوة والراشدين د/صلاح الهادى : ١٦٥ ط ٢ سنة ١٩٨٠ م .

(١١١) العمدة لابن رشيق ١ : ٢٦٦ ت محمد محيى الدين ط ٤ د. الجيل بيروت ١٩٧٢ م

(١١٢) طالع دلائل الاعجاز لعبد القاهر الجرجانى : ٥٧ مطبعة السعادة .

(١١٣) تاريخ الأدب العربى (العصر الجاهلى) د/شوقى ضيف : ٤١٠ ط ١٠ دار المعارف ١٩٨٢

وحرص الخطباء على « أن يعجبوا السامعين لا ليقنعوهم فحسب بل ليثيروا فيهم لذة فنية ، ومتى وجدت هذه الفكرة فقد وجد الجمال الفنى » (١١٤)

وقد غلبت الأساليب الحقيقية على الخطابة الجاهلية لاهتمامها بالمعانى الذهنية وتقرير الحقائق عن طريق التأثير المباشر ، وكان المجاز وسيلة من وسائل الزيادة فى الإقناع والتأثير ، ومن ثم كان التصوير قليلا فى خطب الجاهليين وبخاصة خطب الوعظ التى تقوم على التأمل والروية حيث اعتمد الخطباء على اختيار الألفاظ وسوق الأدلة الوفيرة ، وإيقاعات الجمل فى التأثير والإقناع كما فى خطبة قس بن ساعدة .

وكانت الاستعارة والتشبيه والكناية أكثر ألوان التصوير شيوعا فى خطب الجاهليين وكلها توضح الفكرة وتزيد من التأثير فى النفوس ، كما أن الكناية أبلغ من الإفصاح (١١٥)

ومن النماذج الدالة على هذا خطبة حاجب بن زرارة التى يقول فيها :

« إن العرب أمة قد غلظت أكبادها ، واستحصدت مرتها ومنعت درتها ... وهى لك مسترسلة ما لاينتها سامحة ما

---

(١١٤) من حديث الشعر والنثر د/طه حسين مجلد ٥ : ٥٧٩ بيروت
(١١٥) انظر دلائل الإعجاز : ٥٦

سامحتها ، وهى العلقم مرارة ، والصاب غضاضة ، والعسل حـــلاوة ... » (١١٦)

وهنا استخدم الخطيب الكنـــاية كما فى قـــوله : « واستحصدت مرتها » وهى كناية عن القوة والمنعـــــة ، والتشبيه كما فى قوله : « هى العلقم مرارة والعسل حلاوة » ولا شك أن الكناية هنا أبلغ من التصريح ، كما كان للتشبيه أثره البين فى توضيح الفكرة للتأثير فى النفوس .

وقد يؤثر الخطيب المجاز ويفضله على غيره بقصـــد الاقناع والتأثير والامتاع الفنى لإدراكه « أن المجاز يكسب الكلام وضوحا وسموا وجاذبيـــة لا يكســـبها إياه شىء آخر » (١١٧)

وقد بدا هذا فى خطبة مرثد الخير ومنها قوله :

« إن التخبط وامتطاء الهجاج واستحقاب اللجـــاج سيقفكما على شفا هوة فى توردها بوار الأصيلة ، وانقطـاع الوسيلة ، فتلافيا أمركما قبل انتكاث العهد ، وانحلال العقد وتباين السهمة وأنتما فى فسحة رافهة ، وقدم واطدة ... »

واضح من النص أن مرثد آثر المجاز والتصـــوير على الحقيقة فى التعبير عن فكرته ومعانيه كى يوضحها ويؤكدها

---

(١١٦) جمهرة خطب العرب ٢٢/١ البابى الحلبى ١٩٢٣ م
استحصدت : استحكمت — المرة : طاقة الحبل — الدرة : اللبن ، الصاب : شجر مر — غضاضة : احتمال المكروه .
(١١٧) النقد الأدبى الحديث د/غنيمى هلال دار نهضـــة مصر للطابع والنشر ١٩٧٣ م

كما في التعبير بـ « التخبط ، امتطاء الهجاج ، استحقاب اللجاج » وكلها تعبيرات خيالية قصد بها الخطيب تعميق فكرته ، واستمالة نفوس سامعيه وإقناعهم • وقد حذرهم من خوض الحرب ، وبين لهم مغبة ذلك ، وجسد لهم الخطر الناجم عنها حيث جعلهم كالواقفين على شفا حفرة بعيدة بقوله : « سيقفكما على شفا هوة » وفي التعبير بقوله : « في توردها بوار الأصيلة » يقصد الخطيب ان مجرد التفكير في خوض الحرب كفيل بقطع أواصر المحبة والألفة بين الحيين المتنازعين ، وإذا كان هذا الخطر ناجم عن التفكير في خوض المعارك فما بالنا بخوضها واستعار لهيبها ، لا شك أن الأمر سيكون أدهى وأمر من ذلك •

ولولا استعانة الخطيب في أسلوبه بالتعبير الاستعاري والكنائي لما أمكنه أن يؤثر في نفوس سامعيه ، ويوصل فكرته اليهم ويقنعهم بها •

وقد يجتمع المجاز مع البديع في عبارة واحدة كما في خطبة هانيء بن قبيصة من هذا قوله : « الطعن في ثغر النحور اكرم منه في الأعجاز والظهور »

وهنا جاءت الكناية معبرة عن الإقدام والشجاعة في خوض الحرب ومصاحبة للبديع المتمثل في الموازنة والمقابلة والجناس فهي آخر الجملتين •

وفي الجملة فإن الخطيب الجاهلي « كان يتمثل المعنى الكريم والصياغة السلسة واللفظ المختار الذي يؤثر في السامع ويغوص الى أعماق النفس مستخدما السجع حينا

والمزاوجة حينا آخر ، متسربلا بالحكمـــة عامدا الى ضرب الأمثال » (١١٨)

وبعد هذا العرض للخطابة الجاهلية نريد أن نلقى الضوء على الخطبة الإســـلامية .

بواعثهـــا :

كان الموروث من الخطابة الجاهلية ضيق الأفق محدود المعالم والمظاهر ، ولما جاء الإسلام « تهيأ للخطابة فى ظله من نباهة الشأن ، وارتفاع الذكر ، وعلو المكانة ما لم يتهيأ لهـا من قبل ، كانت أداة الدعوة واللسان الناطق بمحاسنهـــا ، تشرح للناس أسرارها ، وتبين مزاياها ، وتوضح خفاياها ، وتحبب الناس فيها ، وتدلهم على الهدى والحق والرشــد والصلاح ، وتجادل خصومها ، وتفنـــد آراء المخـــالفين لهـــا » (١١٩)

فضلا عن كراهة الإسلام للشعر الذى يقوم على الحمية الجاهلية والمفاخرات والمنافرات بالأحساب والأنساب .

ولقد بدأ رسول الله دعوته بالخطابة ، واعتمد عليهـــا منذ أن قام بأمر ربه يدعو عشيرته الأقربين الى عبـادة الله الواحد الأحد قال تعالى : « وأنذر عشيرتك الأقربين »

---

(١١٨) الأدب فى موكب الحضارة الاسلامية د/الشكعة : ٥٢ كتاب النثر ط ٢ دار الكتاب اللبنانى بيروت ١٠٧٤ م

(١١٩) الحياة الأدبية فى عصرى الجاهلية الصدر الاسلام : ٥٥ ط ١ دار الزهراء للطباعة .

وكان ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يذهب الى أحيـــاء العرب يعرض عليهم الدعوة الى الدين الجديد ، كما كان يلقى الناس فى المحافل والمجامع العامة كالحج ـ مثلا ـ ويقول لهم قولوا لا إله إلا الله تفلحوا .

وبعد ذلك اتجه الى المدينة لدعوة الناس الى الله على بصيرة ، مبينا لهم محاسن ومحامد هذا الدين عن طـــريق ألفاظه العذبة ، ولسانه السمح ، كما كان يخطب فى وفـــود العرب التى تجىء له شارحا لهم قواعد الدين الجـــديد ، ومفصلا لهم شرائعه ، ومبينا لهم آدابه وأحكامه قال تعالى : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم .. » (١٢٠)

و « لم يترك ـ صلى الله عليه وسلم ـ مناسبة أو فرصة يجتمع فيهـــا النـــاس إلا انتهزهـا لبيـــان أمر من أمور الإســـلام » (★)

ولا يخفى أن الاسلام أطلق ألسنة الخطباء من عقالهـــا حيث صار ذلك اللون الأدبى أرحب ميدانا ، وأوسع مجـالا مما كان عليه فى الجاهلية ، وأخذت الخطابة تقوى شـيئا فشيئا وتنهض بأعباء الدعوة ، ونشر مبادىء الاسلام وتعاليمه

وبهذا يمكن القول بأن ظهور الاسلام كان إيذانا بتطور ذلك اللون الخطابى الذى كان يعتمد فيه رسول الله ـ صلى

---

(١٢٠) ســـورة النحـــل من الآية : ٤٤

(★) تأملات فى البيـــان النبوى د/ ابراهيم عوضين ص ٨٩ ط ٢ سنة ١٩٨١ م .

الله عليه وسلم ـ فى دعوته الى ربه على الحكمة والموعظة الحسنة ، قال تعالى : « أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ... »

وإذا كان للخطابة دورها الفعال فى الإسلام حيث إنها أذاعت دعوته ونشرت مبادئه وتعاليمه لأنها « أقدر على شرح الحقائق ومناقشة المسائل ، فهى طريق الإقناع بالحجج العقلية ، والبراهين المنطقية ، والمؤثرات الوجدانية » (١٢١)

فإن للإسلام اثره على الخطابة لأنه نهض بها وأعلى قدرها وثبت دعائمها ، ونفخ فيها من روحه ، وكساها دن جلال دعوته وكثرت بواعثها ، وتعددت موضوعاتها ، وتأثرت بالقرآن الكريم وببيان نبيه العظيم .

وهكذا كانت الدعوة الى الاسلام وتبصير الناس بتعاليمه باعثا قويا من بواعث الخطابة أيضا ، ومن النماذج الدالة على هذا خطبة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى بداية دعوته ونشر رسالته ، وفيها يقول داعيا القرشيين الى التوحيد والإيمان ومحذرا لهم من الشرك والطغيان بعد أن حمد الله وأثنى عليه : « إن الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم ، ولو غررت الناس جميعا ما غررتكم ، والله الذى لا إله إلا هو انى لرسول الله إليكم خاصة ، وإلى الناس كافة ، والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون ،

---

(١٢١) الخطابة فى صدر الاسلام د/محمد طاهر درويش ١/١٠٢ دار المعارف ١٩٦٥ م .

ولتجزون بالإحسان إحسانا ، وبالسوء سوءا ، وإنها لجنة أبدا أو لنار أبدا » (١٢٢)

وهكذا عبر - صلوات الله عليه - عن أفكار هذه الخطبة ومعانيها بأسلوب موجز بليغ ، بدا فيه ترابط هذه الافكار وتماسكها فى نسق بديع يدفع الى الإقناع .

يقول الدكتور الشكعة منوها بقيمة هذه الخطبة :

« إنها نمط جديد من القول بلاغة وفصاحة ، وإيمانا وبساطة ، وصدقا وعمقا لم يألفه العرب من قبل ، وتفصيل واضح بسيط ، نافذ بحقائق قد غفل الناس عن وجودها وهي ماثلة أمامهم كل يوم : « والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون » مع مقدمة بليغة لا يخطىء المرء صدقها وحسنها - إن الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم » (١٢٣)

ومن النماذج أيضا خطبته - صلى الله عليه وسلم - التى بصر فيها الناس بأمور الآخرة من موت وثواب وعقاب وجنة ونار يقول الرسول - صلى الله عليه وسلم - :

« أيها الناس إن لكم معالم فانتهوا الى معالمكم ، وإن لكم نهاية فانتهوا الى نهايتكم فإن العبد بين مخافتين أجل قد مضى لا يدرى ما الله فاعل فيه ، وأجل قد بقى لا يدرى

---

(١٢٢) جمهرة خطب العرب ١ : ٥

(١٢٣) الأدب فى موكب الحضارة الاسلامية : ٦٥ .

ما الله قاض فيه ، فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ، ومن دنياه لآخرته ، ومن الشبيبة قبل الكبر ، ومن الحياة قبل الممات ، فوالذى نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب ، ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار » (١٢٤)

ولقد كان مجيء الوفود الى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – باعثا قويا من بواعث الخطابة أيضا فى هذا العصر، من هذه الوفود وفد بنى تميم الذى أعلن للرسول أنه ما جاء إلا للتبارى بالكلمة ·

ولقد روت كتب السيرة أنهم دخلوا المسجد ونادوا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من وراء الحجرات أن اخرج إلينا يا محمد « فآذى ذلك رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من صياحهم فخرج إليهم فقالوا : يا محمد جئناك نفاخرك فأذن لشاعرنا وخطيبنا ، قال : قد أذنت لخطيبكم فليقل » (١٢٥)

ولا يخفى أن تقديم الرسول للخطيب على الشاعر دلالة على سمو مكانة الخطابة والخطباء فى هذا العصر ·

يقول عطارد بن حاجب بن زرارة خطيب وفد بنى تميم والذى تولى الخطابة أمام رسول الله :

« الحمد لله الذى له علينا الفضل وهو أهله الذى جعلنا

---

(١٢٤) إعجاز القرآن للباقلانى : ٤١ ط ١ مكتبة الحلبى ١٩٧٨ م ·

(١٢٥) السيرة النبوية لابن هشام ٤ : ١٥٢ تعليق طه عبد الرءوف

ملوكا ، ووهب لنا أموالا عظاما نفعل فيها المعروف ، وجعلنا أعز أهل الشرف وأكثره عددا وأيسره عدة ، فمن مثلنا فى الناس ؟ ألسنا برءوسهم وأولى فضلهم ؟ فمن يفاخرنا فليعدد مثل ما عددنا ، وإنا لو نشاء لأكثرنا الكلام ، ولكنا نحيا من الإكثار فيما أعطانا وإنا نعرف بذلك ، أقول هذا لأن تأتونا بمثل قولنا ، وأمر أفضل من أمرنا ثم جلس (١٢٦)

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لثابت بن قيس ثم فأجب الرجل فى خطبته فقام ثابت خطيبا فقال :

« الحمد لله الذى السموات والأرض من خلقه ، قضى فيهن أمره ، وسع كرسيه علمه ، ولم يك شىء قط إلا من فضله ، ثم كان من قدرته ان جعلنا ملوكا ، واصطفى من خير خلقه رسولا ، أكرمهم نسبا ، وأصدقهم حديثا ، وأفضلهم حسبا فنزل عليه كتابه وائتمنه على خلقه ، فكان خيرة الله من العالمين ، ثم دعا الناس الى الإيمان فآمن برسول الله المهاجرون من قومه وذوى رحمه ، أكرم الناس حسبا وأحسنهم وجوها ، وخير الناس فعالا ، ثم كان أول الخلق استجابة لله حين دعاه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ نحن ، نحن انصار الله ووزراء رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ نقاتل الناس حتى يؤمنوا بالله ، فمن آمن بالله ورسوله منع منا ماله ودمه ، ومن كفر جاهدناه فى الله أبدا ، وكان قتله علينا يسيرا ، أقول قولى هذا وأستغفر الله للمؤمنين والمؤمنات والسلام عليكم ... » (١٢٧)

---

(١٢٦) السابق ٤ : ١٥٣
(١٢٧) السيرة النبوية ٤/ ١٥٤

اغراضها وموضوعاتها :

مع إشراقة شمس الإسلام وبزوغ فجـــره الســـــاطع وصلت الخطابة الى منزلة ســـــامية من الرقى والازدهار ، وتنوعت اغراضها وموضوعاتها ، واتسعت مجالاتها ، وقامت مع هذا بدورها خير قيـــــام ، وكانت تواكب العصر وكل المستجدات فيه ، من هذه الأغراض وفى المقدمة منها :

ـ دعوة الناس الى الإيمان بالله ورسوله وملائكتـــه وكتبه ورسله واليوم الآخر ، والقـــدر خيره وشره بدلا من المفاخرات والمنافرات التى كانت تهدف إليها الخطبـــــة الجاهليـــة ·

ـ الحث على الجهاد والاستشهاد فى سبيل الله ، وإثارة العقيدة والإيمان فى النفوس حتى تقبل على الحرب بعزيمة صادقة وهمة متفانية « بدلا من الخطب التى كانت تدعوا فى الجاهلية الى السلب والنهب والأخذ بالثأر والتحريض على الغـــارة » (١٢٨)

ـ شرح آداب الدين وفضائله ، وتبيان أسراره ومزاياه، ولفت أنظار الناس وشد انتباههم الى ما يكفل لهم السعادة فى الدنيا والآخرة ·

ـ التعبير عما يجيش فى النفوس م نالدفاع عن رأى ،

---

(١٢٨) الأدب العربى بين الجاهلية والاسلام د/عبد الحميـــد المسلوت : ٣٦٥ مطبعة السعادة ١٩٦٧ م .

أو شرح لمنهج ، أو تمسك بمبدأ مما استلزمته الخـــــلافة الجـــديدة (١٢٩)

ومن الخطب الإسلامية الدالة على الحث على الجهـــاد والاستشهاد فى سبيل الله ، وإثارة الإيمان والعقيـــدة فى النفوس كى تقبل عليه بنفس راضية خطبة أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - الذى يحفذ فيها همم الناس الى التوســع فى فتح البلدان وفتح بلاد الشام خاصة ، يقول الصـــديق بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله :

« ألا إن لكل أمر جوامع فمن بلغها فهى حسبه ، ومن عمل لله كفاه الله ، عليكم بالجد والقصد فإن القصد أبلغ ، ألا إنه لا دين لأحد لا إيمان له ، ولا أجر لمن لا حسبة له ، ولا عمل لمن لا نية له ، ألا وإن فى كتاب الله من الثواب على الجهاد فى سبيل الله كما ينبغى للمسلم أن يحب أن يخص به هى التجارة التى دل الله عليها ، ونجى بها من الخزى ، والحق بها الكرامة فى الدنيا والآخرة » (١٣٠)

ومن الخطب الدالة على شرح آداب الدين وتعليم أحكامه وبيان فضائله خطبته - صلى الله عليه وسلم - التى يعلم فيها الناس كيفية الصلاة ويوضحها لهم .

فقد روى أبو موسى الأشعرى - رضى الله عنه - أن رسول

---

(١٢٩) انظر الحياة الأدبية فى عصرى الجاهلية وصدر الاسلام : ٥٨

(١٣٠) جمهرة خطب العرب ١ : ١٨٩ ط ٢ مصطفى البـــابى الحلبى وأولاده ١٩٦٢ م .

الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خطبنا فعلمنا ، وبين لنـــــا سننا وعلمنا صلاتنا فقال : « إذا صليتم فأقيموا صفوفكم ، ثم ليؤمكم أحدكم ، فإذا كبر فكبروا ، وإذا قرأ (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) فقولوا (آمين) يحبكم الله ، وإذا كبر وركع فكبروا واركعوا فإن الإمام يركع قبلـــــكم ، ويرفع قبلكم ... » (١٣١)

ولما بويع أبو بكر الصديق بالخلافة خطب فى الناس مبينا لهم مبادئه ومنهجه الذى سيسير عليه فى خلافته يقول أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

« أيها الناس إنى قد وليت عليكم ولست بخيركم فإن رأيتمونى على حق فأعينونى ، وإن رأيتمونى على باطـــل فسددونى ، أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فإذا عصيته فلا طاعة لى عليكم الا إن أقواكم عندى الضعيف حتى آخذ الحق له ، وأضعفكم عندى القوى حتى آخذ الحق منه ، أقـــول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم » (١٣٢)

من السمات الفنية فيهـــا :

لقد غير الإسلام حياة الأمة العربية من ناحية معتقداتها وأنظمتها وعاداتها وتقاليدها ، وقامت هذه الحياة على أساس

---

(١٣١) سنن ابى داود جـ ١ : ٢٢٣ ط ١

(١٣٢) العقد الفريد : جـ ٤ : ٥٩ ت احمد امين وزميليه ط ٢ مطبعة لجنة التأليف والترجمة ١٩٦٢ م .

الإيمان بالله والسير على منهجه ، وقد أحدث هذا دويا هائلا فى الخطابة فازدهرت وتغير كثير من ملامحها ومعالمها .

ولم يقتصر تأثير الاسلام على حد الأطار الخارجى للأمة العربية بل « تجاوزه الي الميدان الفكرى الخالص » (١٣٣)

ومن هنا « اهتم المسلمون بتعديل منهج الخطبة بمـــا يتلاءم مع وظيفتها الخطيرة التى وظفوها فيها » (١٣٤)

وقد انتقل هذا اللون الأدبى من العصر الجـــاهلى الى العصر الاسلامى ليزداد نشاطا حتى استحال الى لون آخـر فى الشكل والمضمون ، نظرا لاستجابة الخطابة لدعـــــوة الإسلام ، وتأثرها بأسلوب القرآن ، وبجوامع كلمة ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى آتاه الله الحكمة وفصل الخطاب(★)

وإذا كانت الخطابة فى الجاهلية قد بلغت شأوا من الرقى إلا أنها لم تصل الى مستوى الخطابة فى صدر الاســـلام الذى بلغت قدرا كبيرا من الرقى والازدهار عندما شرفت الدنيا ببعثة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأشرقت شمس الاسلام ، عند ذلك وصلت الخطابة الى درجة عالية من النمـو والنضج الفنى .

---

(١٣٣) صور ملهمة من واقع المجتمع العربى د/حسن عون : ١٢٩ دار المعـــارف ١٩٦٧ م

(١٣٤) الأدب العربى بين البادية والحضر د/ابراهيم عوضين : ٣٧٦

(★) طالع الأدب الاسلامى فى عصره الأول د/ صـــلاح عبدالتواب ص ٣٢ ط ١ دار الطباعة المحمدية ١٩٨١ .

ولا عجب « فقد داجتمع للخطابة العربية بمجيء الاسلام كل أسباب النمو والترقى » (★) .

و«كانت» الدعوة الاسلامية بقرآنها وبما صاحبها من تبشير بالدين ، وحث على الجهاد ، والخروج للفتوح وما لحقها من تنازع على الخلافة ، وارتداد بعض القبائل - عاملا مؤثرا في ازدهار الخطابة في هذا العهد ، يضف الى ذلك نوع النظام الذى ساد الدولة الاسلامية فى مراحلها الأولى ، وما كان بطبعه من ديموقراطية وشورى تتيح للمسلمين أن يتناقشوا ويعارضوا ويعبروا عن رايهم فى كثير من الصراحة والاطمئنان » (★) .

ومن مظاهر هذا النمو والازدهار اختيار ألفاظها وسهولتها ، ومناسبتها لمقتضيات الأحوال ، وتجويد أساليبها التى تأثرت بالقرآن الكريم ، واتساع معانيها وجدتها ، وعمق أفكارها وترابطها وتسلسلها ووضوحها وسمو هدفها .

كما « كان لرعاية أحوال المخاطبين اعتبار كبير ، وقد راعوا حال المتكلم نفسه ، وظروف البيئة الزمانية والمكانية وغيرها من الملابسات فيما ينشئه الخطيب من قول » (١٣٥)

(★) الأدب العربى بين البادية والحضر : ٢٨٢ ط ١ مطبعة السعادة ١٩٨١ .

(★) من أدب الدعوة الاسلامية لعباس الجرارى : ١١٧ ط ٢ دار الثقافة - الدار البيضاء .

(١٣٥) الخطابة فى صدر الاسلام د/محمد طاهر درويش : ١/٤٦٢

ولقد جاءت معايير البلاغة ومقاييسها مطابقة لما كانت عليه الخطابة الاسلامية من ملاءمة الألفاظ للمعانى ومطابقتها لأحوال السامعين ، وهذا ما أشار إليه الجاحظ بقوله :

« ينبغى للمتكلم أن يعرف أقدار المعانى ويوازن بينها وبين أقدار الحالات فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما » (١٣٦)

فتأتى الألفاظ سهلة رقيقة تخلب الألباب ، وتستل غضب النفوس كما فى خطبة الصديق فى مجتمع السقيفة وقد حرص فيها على جمع الشمل ، منها : « فنحن المهاجرون وأنتم الأنصار ، إخواننا فى الدين ، وشركاؤنا فى الفىء ، وأنصارنا على العدو ، آويتم وواسيتم فجزاكم الله خيرا ، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء ، لا تدين العرب إلا لهذا الحى من قريش ... » (١٣٧)

وتأتى ثائرة كما فى خطبة الإمام على ـ كرم الله وجهه ـ يستنفر بها أتباعه لقتال أهل الشام ومنها قوله :

« أف لكم قد سئمت عتابكم ، أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخـــرة » (١٣٨)

« ومتى شاكل ـ أبقاك الله ـ ذلك اللفظ معناه ، وأعرب عن فحواه ، وكان لتلك الحال وفقا ، ولذلك القدر لفقا ، وخرج

---

(١٣٦) البيان والتبيين ت هارون ١/١٣٨

(١٣٧) العقد الفريد جـ ٤ ـ ٥٨ ، ٥٩

(١٣٨) نهج البلاغة ١/١٣٦ ش الشيخ محمد عبده دار البلاغة بيروت ١٩٨٥ م .

من سماجة الاستكراه ، وسلم من فساد التكلف ، كان قمينا بحسن الموقع ، وبانتفاع المستمع ، وأجدر أن يمنع جانبه دن تناول الطاعنين » (١٣٩)

ولا تختلف ألفاظ الخطابة الجاهلية عن الخطابة الأسلامية كثيرا من حيث اختيارها ووضوحها اللهم إلا ما اكسبه الاسلام معنى جديدا كالصلاة والزكاة والحج ، ولقد بلغت الخطبة درجة فنية عالية على يد الامام على — كرم الله وجهه — الذى كان « يميل كثيرا الى التحبير والتأنق فى صوغ العبارة وتزيينها » (١٤٠)

وقد بدا هذا فى خطبته التى يحث فيها قومه على الجهاد فيقول بعد أن حمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبى — صلى الله عليه وسلم —

« أما بعد فإن الجهاد باب من أبواب الجنة فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل وشمله البلاء ، وألزمه الصغار ، وسيم الخسف ، ومنع النصف ، ألا وإنى قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلا ونهارا وسرا وإعلانا ، وقلت لكم أغزوهم قبل أن يغزوكم ، فوالله ما غزى قوم قط فى عقر دارهم إلا ذلوا ، فتواكلتم وتخاذلتم ، وثقل عليكم قولى ، واتخذتموه وراءكم

---

(١٣٩) البيان والتبيين ٢/٧ ، ٨ هارون .
(١٤٠) الأدب فى عصر النبوة والراشدين د/صلاح الهادى : ١٩٢ ط ٢ سنة ١٩٨٠ م .

ظهريا حتى شنت عليكم الغارات ٠٠٠ يغار عليكم ولا تغيرون وتغزون ولا تغزون ، ويعصى الله وترضون ٠٠ » (١٤١)

وهذه الخطبة تنطق بجمال الصياغة وحسن الأداء حتى اكتسبت « بتلك الحلة البيانية التى تشرق فيها اللفظة إشراقا » (١٤٢)

وقد سلك فيها الخطيب عدة مسالك للإقناع والتأثير فتارة يسوق الحجة القوية كقوله : ألا وإنى قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ٠٠٠ حتى شنت عليكم الغارات »

وتارة عن طريق التقابل كقوله : « ليلا ونهارا وسرا وإعلانا »

وأخرى عن طريق التصوير كقوله وهو يتحدث عن الجهاد :

« فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل »

وهذا التصوير يوضح الأثر السىء الناجم عن التخاذل عن الجهاد فى سبيل الله وهو الالتفاف بثوب الذل ٠

ولا يعنى وضوح ألفاظ الخطابة فى العصرين خلوها من

---

(١٤١) البيان والتبيين جـ ٢ : ٢٥ ، ٢٦ دار الكتب العلمية بيروت لبنان

(١٤٢) فن الخطابة وتطوره عند العرب لايليا حاوى : ١٣٤ دار الثقافة بيروت ٠

الغريب فقد وجد فيها الغريب لكنه كما قال أحد النقاد المحدثين :

« إنه غريب بالنسبة لنا اليوم ولكنه لم يكن غريبا بالنسبة إليهم » (١٤٣)

وكما اهتم الخطباء بألفاظهم اهتمو اباساليبهم وتعبيراتهم فجودوها ونقحوها حتى جاءت واضحة جلية بعيدة عن التعقيد لأن الخطيب آنذاك كان « فى جميع ألفاظه ومعانيه جاريا على سجيته غير مستكره لطبيعته ، ولا متكلف ما ليس فى وسعه » (١٤٤)

ومن الخطب الدالة على هذا خطبة الصديق سابقة الذكر والتى قالها لما بويع بالخلافة ورسم فيها منهجة وطريقته فى الحكم .

ولعل أهم ما يميز أسلوب الخطبة فى صدر الاسلام وما بعده التأثر بالقرآن الكريم والبيان النبوى الشريف لإنباسه ثوبا من الروعة والجمال والجلال ، وحسن الصياغة وروعة الأداء ، وقد أدرك الخطباء والنقاد أن « أسلوب القرآن نمط فريد من البلاغة والروعة وسمو الروح وجلالها ، ومن إشراق البيان ، وجمال الديباجة ، وعبقرية التصوير والتعبير » (١٤٥)

---

(١٤٣) اسس النقد الأدبى عند العرب د/احمد بدوى : ٦٤٧ ط ٢ مكتبة نهضة مصر ١٩٦٠ م

(١٤٤) نقد النثر : ١٠٥ ت د/طه حسين والعبادى ط ٢ ط لجنة التاليف والنشر ١٩٣٨ م

(١٤٥) الحياة الادبية فى عصرى الجاهلية وصدر الاسلام : ٢٥١

بل « اكتسب الشعراء والخطباء والكتاب من أســـاليب القرآن وطرائقه فى التعبير ، ومناهجه فى سوق الآراءوصياغة الحجج ما جعلهم يحتذون حذوه ، ويتبعون نهجه » (١٤٦)

ولا يخفى أن الإسلام أخذ بيد الخطابة حتى ارتقت شكلا ومضمونا فتأثرت بالقرآن الكريم وبالحديث الشريف ، وقد ظهر هذا « فى عذوبة ألفاظها ، ومتانة أسلوبها ، وقـــــوة تأثيرها ، واقتباسها من القرآن » (١٤٧)

يقول الجاحظ منوها بقيمة اللفـــــظ الحسن وأثره فى النفوس « فإن المعنى إذا اكتسى لفظا حسنا ، وأعاره البليغ مخرجا سهلا ومنحه المتكلم دلا متعشقا ، صار فى قلبك أحلى ولصدرك أملا » (١٤٨)

ومن الخطب الدالة على التأثر بالقرآن خطبة الصديق ـ رضى الله عنه ـ والتى يقول فيها : (إن الله بعث محمـــدا رسولا إلى خلقه ، وشهيدا على أمته ، ليعبدوا الله ويوحدوه ، وهم يعبدون من دونه آلهة شتى ، ويزعمون أنها لهم عنــده شافعة ، ولهم نافعة ، وإنما هى حجر منحـــــوت ، وخشب منجور » ثم قرأ « ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا

---

(١٤٦) الســـــابق : ٢٥٦

(١٤٧) تاريخ الأدب العربى لأحمد الزيات : ١٩٢ دار الثقافة ـ بيروت ١٩٧٨ م .

(١٤٨) البيان والتبيين ١ : ٢٥٤ هارون

(١٤٩) سورة يونس اية : ١٨

ينفعهم ، ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله » (١٤٩) وقالوا « ما نعبدهم إلا ليقربونا الى الله زلفى ») (١٥٠) .

ومما لا شك فيه أن للقرآن الكريم أثره فى التعبير والفكرة والإقناع .

ومن الخطب أيضا التى وضح فيها التأثر بالقرآن الكريم خطبة الوداع ، وقد سبقت الإشارة الى ذلك (١٥١) .

وكان الخطباء والنقاد « يستحسنون أن يكون فى الخطب يوم الحفل ، وفى الكلام يوم الجمع آى من القرآن فإن ذلك مما يورث الكلام البهاء والوقار والرقة وحسن الموقع»(١٥٢)

وكما تأثر الخطباء فى أساليبهم بالقرآن الكريم تأثروا بالبيان النبوى الشريف فجاءت لفاظهم سهلة واضحة . وعباراتهم متماسكة بعيدة عن التكلف والتصنع ومحسناتهم كذلك ، كما جاءت معانيهم رائقة مستقاة من البيان النبوى الشريف ، وكان لهذا أثره فى النفوس التى سرعان ما استجابت لسحر بيانه ـ صلى الله عليه وسلم ـ واقتنعت به ولا غرو فهو « نبى يعتمد على الصدق الملجم والإقناع المفحم » (١٥٣)

وكلامه ـ صلى الله عليه وسلم ـ « نسق بيانى جديد

---

(١٥٠) الزمر آية : ٣
(١٥١) جمهرة خطب العرب ٦٢/١
(١٥٢) البيان والتبيين ١ :: ٦٥ دار الكتب العلمية بيروت لبنان
(١٥٣) البيان النبوى د/رجب البيومى ٩٣/١ ط دار الفكر ١٠٨٠ م

على الأدب العربى إذ لم يسبق - صلى الله عليه وسلم - أحد إليه ، ولا عرف مثاله لأحد قبله حتى قال له الصديق مرة : لقد طفت على العرب وسمعت فصحاءهم فما سمعت أفصح منك فمن أدبك ؟ قال : أدبنى ربى فأحسن تأديبى » (١٥٤) .

ومن الخطب التى تأثرت ببيانه - صلى الله عليه وسلم - خطبة عبد الله بن مسعود - رضى الله عنهما - حيث يقول :

« أصدق الحديث كتاب الله ، وأوثق العرى كلمة التقوى ، وخير الملل ملة إبراهيم - صلى الله عليه وسلم - وأحسن السنن سنة محمد - صلى الله عليه وسلم - وشر الامور محدثاتها ، وخير الأمور عزائمها ، ثم قال : « الخمر جماع الآثام ، والنساء حبالة الشيطان والشباب شعبة من الجنون » (١٥٥)

والمتصفح للنص يرى فى حديث ابن مسعود - رضى الله عنهما - عن التقوى تأثرا بقول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى إحدى خطبه : « أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة » (١٥٦)

وفى التحذير من النساء تأثرا بما ورد فى حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « فاتقوا الدنيا واتقوا

---

(١٥٤) الأدب العربى بين البادية والحضر : ٣٦١
(١٥٥) البيان والتبيين ٢ : ٥٦ ، ٥٧
(١٥٦) اتحاف الأنام بخطب رسول الاسلام ج محمد خليل الخطيب : ١١٦ دار النصر للطباعة الاسلامية ١٩٨٣ م

النساء فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت فى النساء »(١٥٧)

وفى التحذير من البدع تأثرا بقول رسول الله - صلى الله عليه وسلم -

« وإياكم ومحدثات الأمور » (١٥٨)

وهكذا كانت الخطابة الإسلامية تعتمد على الحقائق والمعارف الاسلامية حيث اتخذت منها محورا للدعوة ، ومادة فى الأداء تستشهد من القران الكريم ، ومن التعاليم الاسلامية (★) ٠

ومما تميزت به الخطبة الاسلامية وشاع فيها بدؤها بالحمد والثناء على الله بما هو أهله ، وختمها بالسلام كما فى خطبته - صلى الله عليه وسلم التى بدأها بقوله : « إن الحمد لله أحمده وأستعينه » وختمها بقوله : « وتحابوا بروح الله بينكم والسلام عليكم ورحمة الله » (١٥٩)

وخطبته - صلى الله عليه وسلم - فى أول جمعة صلاها بالمدينة وفيها يدعو الناس الى تقوى الله وخشيته وطاعته وطاعة رسوله وامتثال أوامره واجتناب نواهيه ، وأنهاها بما يتفق مع المقام ، وقد أطال فيها - صلى الله عليه وسلم -

---

(١٥٧) السابق : ١١٩ ٠

(١٥٨) السابق : ١١٦ ٠

(★) طالع الأدب العربى فى صدر الاسلام ١ د/عبد السلام عبد الحفيظ ص ٣٠ سنة ١٩٨٤ ٠

(١٥٩) اعجاز القرآن للباقلانى / ٤١ ط ١ البابى الحلبى ١٠٧٨ م

وهذا تعبير عن بلاغته التى تأتى مطابقة لمقتضى الحال ، لأن هذه الخطبة قيلت فى أول جمعه لمجتمع جديد فى حاجة إلى رسم الطريق وتحديد المعــالم ، ووضــع النقــاط على الحروف (١٦٠)

ونظرا لطول هذه الخطبة سنأخذ جانبا منها للتــحليل فقط .

يقول – صلوات الله عليه – :

« الحمد لله أحمده وأستعينه وأستغفره وأســتهديه وأومن به ولا أكفره ، وأعادى من يكفره ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، أرسله بالهدى والنور والموعظة على فترة من الرسل ، وقلة من العلم، وضلالة من الناس ، وانقطاع من الزمان ، ودنو من الساعة، وقرب الأجل ، من يطع الله ورسوله رشد ، ومن يعصهما فقد غوى وفرط ، وضل ضلالا بعيدا ، وأوصيكم بتقوى الله فإن خير ما أوصى به المسلم المسلم أن يحضه على الآخرة ، وأن يأمره بتقوى الله ، فاحذروا ما حذركم الله من نفسه ، ولا أفضل من ذلك نصيحة ... الله أكبر ولا قوة إلا بالله العلى العظيم » (١٦١)

يقول ابن قتيبة : « تتبعت خطب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فوجدت أكثرها الحمد لله نحمده ونستعينه،

---

(١٦٠) راجع البيان النبوى : ٦٧
(١٦١) جمهرة خطب العرب ١/١٤٨ ، ١٤٩ .

ونؤمن به ونتوكل عليه ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له » (١٦٢)

وقد بدا هذا فى خطبة الوداع سالفة الذكر ، كما ختمها عليه الصلاة والسلام بـ « السلام »

ويندر أن تأتى خطبة خالية من هذا الاستهلال كما فى خطب القتال ، وخطبة سيدنا عثمان بن عفان التى ألقاها عندما نقم عليه الناس فوقف خطيبا واستهل خطبته بقوله : « إن لكل شيء آفة ، وإن لكل نعمة عاهة ، فى هذا الدين عيابون ظنانون ، يظهرون لكم ما تحبون ، ويسرون لكم ما تكرهون» ثم ختمها بقوله : « فمالى لا أفعل فى الحق ما أشاء ؟ إذن فلم كنت إماما » (١٦٣)

وسار السلف والخلف على سنة رسول الله فى الافتتاح والختام فى خطبهم ، وقد شاع هذا الأمر فى الخطب الاسلامية حتى أطلقوا على الخطبة (١٦٤) التى لم تبدأ بالتحميد وتفتتح بالتمجيد بأنها « بتراء » فى الغالب ، والخطبة التى لم توشح بالقرآن ، وتزين بالصلاة على النبى العدنان بأنها « شوهاء » (١٦٥)

ومما اختصت به الخطبة الإسلامية أيضا : قوة عاطفتها

---

(١٦٢) عيون الأخبار ٢/٢٣١ طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب١٩٧٣م
(١٦٣) اعجاز القرآن للباقلانى : ٤٤
(١٦٤ ، ١٦٥) البيان والتبيين ٢/٦٢ ت هارون

انبعاثا من قوة العقيدة وانتصارها ، ولشدة عاطفته ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان كما يحدثنا سدينا جابر بن عبد الله « كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا خطب احمرت عيناه ، وعلا صوته ، واشتد غضبه حتى كأنه منذر جيش يقول : صبحكم ومساكم ، ويقول : بعثت أنا والساعة كهاتين ويقرن بين إصبعيه السبابة والوسطى ويقول : أما بعد فإن خير الحديث كتاب الله ، وخير الهدى هدى محمد ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضـــلالة ثم يقول : أنا أولى بكل مؤمن من نفسه ، من ترك مالا فلأهله ، ومن ترك دينا أو ضياعا فإلى وعلى » (١٦٦)

ونظرا لشدة عاطفته ـ صلى الله عليه وسلم ـ كانت خطبه قوية التأثير فى النفوس بالنسبة لأصحابه مما نتج عنه التهاب عواطفهم بحرارته ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

وهناك بعض السمات العامة التى يمكن الجمع فيها بين الخطبة الجاهلية والخطبة الاسلامية مع التفاوت فيهـــا ، من هذه السمات : الاستشهاد بالشعر : لقد اقتدى خطبـاء صدر الاسلام برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى خطبه وأسلوبه ومنهجه ، ومن ثم خلت خطبهم من الشعر وبخاصة الجاهلى لأنه « يحمل بين أطوائه كل المعانى التى حرمهـــا الاسلام وأزرى بها ، فقد كرهه الاسلام وبغضه » (١٦٧)

وإذا كان الخطيب الجاهلى اعتمد على الشعر والمثـــل

---

(١٦٦) البيـــان النبوى : ٦٠

(١٦٧) الحياة الأدبية فى عصرى الجاهلية وصدر الاسلام : ٢٧١

والحكمة فى توضيح فكرته وتجليتها لسامعيه وإقناعهم بها فإن الخطيب الاسلامى وجد فى القرآن كل مطلب فاستغنى به عن الشعر ومن ثم شاع الاستشهاد بالشعر فى خطب الجاهليين وقل فى خطب الإسلاميين وبخاصة فى عصر صدر الاسلام ، ولقد سايرت هذه القلة الاسلام ، وسارت فى ركابه وتخلقت بأخلاقه ، وقصد بها الخطيب توضيح الفكرة ، وتعميق المعنى ، ونقل مشاعره وأحاسيسه إلى سامعيه كى ينفعلوا بفكرته المرادة أو المبتغاة .

يقول أبو بكر الصديق (١٦٨) مبينا فضل الأنصار على المهاجرين تطييبا لخاطرهم :

« يا معشر الأنصار إن شئتم أن تقولوا إنا آويناكم فى ظلالنا ، وشاطرناكم فى أموالنا ، ونصرناكم بأنفسنا ، وإن لكم من الفضل ما لا يحصيه العدد وإن طال به الأمد ، فنحن وأنتم كما قال طفيل الغنوى :

جزى الله عنا جعفرا حين أزلقت
بنا نعلنا فى الواطئين فزلت

أبوا أن يملونا ولو أن أمنا
تلاقى الذى يلقون منا لملت

هم أسكنونا فى ظلال بيوتهم
ظلال بيوت أدفأت وأظلت

---

(١٦٨) جمهرة خطب العرب ١ : ٧٤

ولقد تنوعت الجمل الخطابية فى عصر صدر الاسلام طولا وقصرا ولم يغلب عليها القصر كما كان فى الجاهلية ، ولما تأثر الخطباء وبخاصة الخلفاء الراشدون بالقرآن الكريم وببيان الرسول - صلى الله عليه وسلم - « تسرب هذا البيان إلى اجزاء نفوسهم ، وأخذ بمجامع قلوبهم » (١٦٩) ومن ثم انعكس هذا على جملهم وتعبيراتهم وأساليبهم فجاءت محكمة الربط ، وتنوعت جملهم بين الطول والقصر ، وقد بدا هذا فى خطبة الإمام على سالفة الذكر التى بحث فيها قومه على الجهاد .

كما تنوعت الخطبة بين الطول والقصر حيث كان الخطباء يجعلون لكل مقام مقالا ، ولكل حال مقتضاها ، فمتى اقتضى الموقف الإيجاز كان الايجاز أبلغ ، ومتى اقتضى الاطناب والتطويل كان الإطناب أبلغ ، وحينئذ يكون الايجاز فى موضعه كالإطناب فى موضعه ، وإذا كان إيجاز الخطبة وقصرها هو الغالب فى العصر الجاهلى فإننا نرى هذا إلى حد ما فى خطب عصر صدر الاسلام لتأثر الخطباء فيه برسول الله - صلى الله عليه وسلم - واقتدائهم بأسلوبه الخطابى الذى غلب عليه الايجاز ، والبلاغة الإيجاز ، ومن لم يستطع الإيجاز فليس ببليغ (١٧٠)

ومن الخطب الدالة على هذا خطبته - صلى الله عليه

---

(١٦٩) تاريخ الأدب العربى (العصر الاسلامى) د / شوقى ضيف : ١٢١ ط ٩ دار المعارف

(١٧٠) انظر نقد النثر لقدامة : ٩٦ ت د/طه حسين وعبد الحميد العبادى ط ٣ لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٨ م

وسلم - فى توجيه الناس وإرشادهم بأمور الدين والدنيا فى دقة وإيجاز :

« إن لكم معالم فانتهوا الى معالمكم ، وإن لكم نهـاية فانتهوا الى نهايتكم ، فإن العبد بين مخافتين أجل قد مضى لا يدرى ما الله فاعل فيه ، وأجل باق لا يدرى ما الله قاض فيه ، فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ، ومن دنياه لآخرته ، ومن الشبيبة قبل الكبر ، ومن الحياة قبل الممات ، فوالذي نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب ، ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار » (١٧١)

وكذلك خطبة الفاروق عمر - رضي الله عنه - التى آثر فيها الإيجاز وفيها يقول : « إنما مثل العرب مثل جمل انف أتبع قائده ، فلينظر قائده حيث يقوده ، وأما أنا فورب الكعبة لأحملنهم على الطريق » (١٧٢)

ومن الخطب الطوال خطبته - صلى الله عليه وسلم - فى أول جمعة صلاها بالمدينة ، وخطبة الوداع التى لخص فيها قواعد الشرع الحكيم وقد سبق ذكرهما .

وقد خطب - صلى الله عليه وسلم - ذات مرة من لدن العصر حتى لم يبق من الشمس إلا صفرة على أطراف السعف فقد روى عن أبى سعيد الخدرى قال :

« صلى بنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - صلاة

---

(١٧١) جمهرة خطب العرب ١ : ١٥٢
(١٧٢) السـابق ١ : ٢١١

العصر بنهار ، ثم قام خطيبا فلم يدع شيئا يكون إلى قيام الساعة إلا أخبرنا به ، حفظه من حفظه ، ونسيه من نسيه . وكان فيما قال : ان الدنيا حلوة خضرة ، و ن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء ، وكان فيما قال : ألا لا يمنعن رجلا هيبه الناس أن يقول بحق إذا علمه ، قال فبكى أبو سعيد فقال قد — والله — رأينا أشياء فهبنا فكان فيما قال : ألا إنه ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة بقدر غدرته ، ولا غدرة أعظم من غدرة إمام عامة ، يركز لواؤه عند إسته ، فكان فيما حفظنا يومئذ : ألا إن بنى آدم خلقوا على طبقات شتى ، فمنهم من يولد مؤمنا ، ويحيا مؤمنا ويموت مؤمنا ، ومنهم من يولد كافرا ويحيا كافرا ويموت مؤمنا — ثم قال أبو سعيد الخدرى — وجعلنا نلتفت إلى الشمس هل بقى منها شيء ؟ فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ألا إنه لم يبق من الدنيا فيما مضى منها إلا كما بقى من يومكم هذا فيما مضى منه » (١٧٣)

يقول الأديب مصطفى صادق الرافعى معلقا على هذا الموقف ببيان مدى طول هذه الخطبة التى جنحت إلى الإسهاب والتطويل :

« وهذه مدة لا تقدر فى عرفنا بأقل من ساعتين ، وحسبك بكلام من البلاغة النبوية يستوفيهما ، بيد أن الإقلال كان الأعم الأغلب حتى ورد أنه كان يأمر بقصر الخطبة ، فروى

---

(١٧٣) سنن الترمذى — أبو عيسى محمد بن عيسى تحقيق احمد شاكر جـ ٤ : ٤٨٣ وما بعدها ط ٢ ط مصطفى البابى الحلبى وأولاده ١٣٩٨هـ

أبو الحسن المدائني قال : تكلم عمار بن ياسر يوما فأوجــــز فقيل له لو زودتنا فقال أمرنا رسول الله ـ صلى الله عليــه وسلم ـ بإطالة الصلاة وقصر الخطبة ، وقد ورد في الحديث « نحن معاشر الانبياء فينا بكاء » أي قلة في الكلام (١٧٤) .

ويقول صاحب زاد المعاد مبينا خضـــوع خطب النبي للظروف ومقتضيات الأحوال : « كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ يخطب في كل وقت بما تقتضيه حاجة السامعين ومصلحتهم ، وكان يقصر خطبته أحيانا ويطيلها أحيانا بحسب حاجـــة الناس ، وكانت خطبته العارضة اطول من خطبته الراتبة ، وكان يخطب النساء على حدة في الأعياد ويحـــرضهن على الصدقة ... » (١٧٥)

ومطابقة الكلام لمقتضى الحال من البلاغة حيث يقـــول علماء البلاغة : « إن بلاغة الكلام هي مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته » (١٧٦).

وبهذا يتضح لنا أن الخطبة الإسلامية كانت تأتي مطابقة لمقتضى الحال فتطول وتقصر حسب الحاجة وعليــــه « فلا يستعمل الإيجاز في موضع الاطالة ليقصر عن بلوغ الارادة ، ولا الاطالة في موضع الايجاز فتجاوز مقدار الحاجة » (١٧٧)

---

(١٧٤) تاريخ اداب العرب للرافعي جـ ٢ : ٢٠٢ نشر دار الكتاب العربي بيروت لبنان ١٩٧٤ م ، ومن يطالع نسيم الرياض في شرح شفا القاضي عياض للشيخ الخفاجي ٤٠٨ جـ ١ ط الأزهرية يجد هذا الحديث .

(١٧٥) زاد المعاد جـ ١ : ٤٨ ط المطبعة المصرية ومكتبتها .

(١٧٦) الايضاح للقزويني جـ ١ : ٨٠ ط دار الكتاب اللبناني بيروت

(١٧٧) العبارة وتأليفها أ د/محمد الســعدي فرهود : ١٨٠ ط زهران ١٩٧٢ م

ولقـــد شاعت وســـائل الاقناع فى أسلوب خطب صدر الاسلام ، فتنوع بين الخبر والإنشاء بقصد الاستمالةوالتأثير والوصول الى المعنى المراد بعيدا عن التكلف المقوت، والتصنع المذموم .

وهذا التنويع طبقا لعاطفة الخطيب وانفعالاته ، فإذا ما هدأت عاطفته وثورته فاضت القريحة بأساليب خبرية ، وإذا ما ثارت ثائرته جادت قريحته بأساليب إنشائية .

يقول بعض النقاد مبينا قيمة التنويع فى الأساليب بين الخبرية والإنشائية : « ومما يحقق للخطيب التأثير ، وينفخ فى أســـلوبه حيـــاة متجـــددة أن يراوح بين الخبر والإنشـــاء » (١٧٨)

والناظر فى خطبة الوداع يرى النوعين معا ، كما يرى هذا فى خطبة الإمام على (١٧٩) كرم الله وجهه ومنها قوله وهـــو خبـــرى :

« أما بعد فإن الجهاد باب من أبواب الجنة فمن تركه رغبة عنه ألبسه ثوب الذل ، وشمله البلاء » وقوله : «هذا أخو غامد قد وردت خيلة الأنبارى،وقتل حسان ــ أو ابن حسان ــ البكرى، وازال خيلكم عن مسالحها ، وقتل منكم رجالا صالحين »

---

(١٧٨) فن الخطابة د/أحمد الحوفى ١٧٨ ط ٥ دار نهضـــــة مصر للطبع والنشر .
(١٧٩) البيان والتبيين ٢ : ٢٥ ، ٢٦ دار الكتب العلميـــــة بيروت لبنـــان .

وقد تعددت طرق الأساليب الإنشائية في هذه الخطبة فمن النداء قوله : « يا اشباه الرجال ولا رجال ، ويا أحــلام الأطفال وعقول ربات الحجال » ومن التعجب والاستفهام الذي أريد به الإنكار قوله : « لله ابوهم : وهل أحد منهم اشد لها مراسا مني ... » ؟

ومما لا شك فيه أن للأسلوب الإنشائي دوره الفعال في جذب انتباه السامعين ، والعمل على مشاركتهم للخطيب فيما يقصد إليه .

كما تنوع الأسلوب بين الترسل واحتوائه على بعض المحسنات غير المتكلفة مثل السجع والازدواج أو الموازنة . وكلها محسنات لا تذهب بالمعنى ، ولا تطغى على الفكرة وإنما الهدف منها التأثير على السامعين والقـــارئين عن طريق الإيقاع الناجم عنها « لما فيه من الجمال وماله من حسن الموقع الذى يشبه وقع القافية في الشعر » (١٨٠)

وقد غلب أسلوب الترسل على أساليب الخطابة في عصر صدر الإسلام وذلك لتأثر الخطباء بالقرآن الكريم الذي أغناهم عن وسائل الإيقاع الأخرى في التأثير كالســجع ــ مثلا ــ ولعل السر في قلة استخدام السجع وشيوع الترســـــل في أساليب خطباء هذا العصر « يرجع بعضه الى اســــتخدام الجاهليين له في أغراض لا يحبها الإسلام ولا يقرها ، وبعضه

---

(١٨٠) الخطابة في صدر الاسلام د/محمد طاهر درويش ١ : ٤٦٠

إلى أن القرآن والاسلام والحضارة قد ردتهم الى نوع من التهذيب حببت إليهم طبيعة التفكير والتعبير » (١٨١)

« والإرسال هو أرقى مراحل النثر الأدبى » (١٨٢)

وقد ارتقت الخطابة فى هذا العصر أسلوبا وفكرة وأداء وكان لهذا دور فى التأثير على النفوس وإقناعها بالغــرض « وحين يرتقى النثر ويتجه الى مخاطبة العقل ، ويعتمد على الجدل والبراهين ، وحيث تتجه عناية الخطيب الى المعنى والصورة ويجعلهما غايته تقل العناية بالإيقاع الموسيقى ، والازدواج اللفظى » (١٨٣)

ومن الخطب التى شاع فيها الترسل خطبة الصـــديق ـ رضى الله عنه ـ وفيها واسى المسلمين بعد لحـــوق النبى بالرفيق الأعلى ، يقول الصديق :

« أيها الناس من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت ، وإن الله قد تقدم إليكم فى أمره فلا تدعوه جزعا ، وإن الله قد اختار لنبيــه ما عنده على ما عندكم ، وقبضه الى ثوابه ، وخلف فيـــكم كتابه وسنة نبيه » (١٨٤) .

---

(١٨١) الخطابة فى عصر صدر الاسلام : ١ : ٤٥٧
(١٨٢) الخطابة فى عصرها الذهبى : ١٧
(١٨٣) الســـابق : ١٧
(١٨٤) السيرة النبوية لابن هشام ٤/٢٢٤

ومع هذا الترسل فإننا نرى فى الخطبة حسن التقسيم والموسيقى الجميلة .

أما من ناحية المحسنات الأخرى كالسجع والازدواج ونحوهما فإن لم تكن بنفس الدرجة التى كانت عليها فى الجاهلية من حيث الشيوع والانتشار بل خف استعمالها ، ولكن مع هذا وردت فى كلام النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد ذكر صاحب الصناعتين أن السجع الخالى من التكلف الصاغ حسب الفطرة كان يأتى أحيانا فى كلام النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحين أنكر على الكهان سجعهم لما فيه من التكلف المقوت ، والتشدق المذموم ، فالرسول إذن انكر السجع لتكلفه أما ما برئ منه فلم ينه عنه .

« ولو كرهه ـ عليه الصلاة والسلام ـ لكونه سجعا لقال : أسجعا ؟ ثم سكت وكيف يذمه ويكرهه ، وإذا سلم من التكلف وبرئ من التعسف لم يكن فى جميع صنوف الكلام أحسن منه »

وقد روى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خطبة قس بن ساعدة مع عدم خلوها من السجع وأعلن رضاه عنها .

وساق أبو هلال نموذجا يدل على ورود السجع فى كلامه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : « من ذلك ما حدثنا به يوسف الإمام بواسط قال : حدثنا محمد بن خالد بن عبدالله ... بن زرارة بن أوفى عن عبد الله بن سلام قال : لما قدم

النبى - صلى الله عليه وسلم - المدينة انجفل الناس قبله ، فقيل قدم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فجئت في الناس لأنظر إليه ، فلما تبينت وجهه عرفت أنه ليس بوجه كذاب ، فكان أول شيء تكلم به أن قال : أيها الناس افشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام ، وكان - صلى الله عليه وسلم - ربما غير الكلمة عن وجهها للموازنة بين الألفاظ ، واتباع الكلمة أخواتها كقوله - صلى الله عليه وسلم - أعيذه من الهامة والسامة ، وكل عين لامة وإنما أراد ملمة ، وقوله - عليه الصلاة والسلام - إرجعن مأزورات غير مأجورات وإنما أراد موزورات من الوزر فقال مأزورات لمكان مأجورات قصدا للتوازن وصحة التسجيع .

فكل هذا يؤذن بفضيلة التسجيع على شرط البراءة من التكلف ، والخلو من التعسف » (١٨٥)

كما ساق أيضا نموذجا يدل على وجود الازدواج فى كلامه - صلى الله عليه وسلم - وقد خاطب الأنصار مفضلا إياهم على غيرهم فقال : « إنكم لتكثرون عند الفزع ، وتقلون عند الطمع » وقوله - عليه الصلاة والسلام - « رحم الله من قال خيرا فغنم ، أو سكت فسلم » (١٨٦)

والناظر فى إحدى خطب الإمام على - كرم الله وجهه -

---

(١٨٥) الصناعتين : ٢٨٦ ت محمد قميحة ط ٢ سنة ١٩٨٤ دار الكتب العلمية بيروت .
(١٨٦) السابق : ٢٨٨ ، ٢٨٩

يرى السجع والازدواج معا يقول الامام على : « واعلموا عباد الله أنه لم يخلقكم عبثا ، ولم يرسلكم هملا ، علم مبلغ نعمه عليكم ، وأحصى إحسانه إليكم ، فاستفتحوه واستنجحـــوه واطلبوه إليه واستمنحوه ... » (١٨٧)

وجاءت المحسنات هنا جارية على الفطرة وموانية للطبع السليم ، وهذا ناشىء من التأثر بالقرآن وبالبيان النبـــوى الشريف الذى سلم من التكلف والإغراب ، وقد بدا هذا فى خطبه - صلى الله عليه وسلم - والإيقاع الناشىء عن استخدام هذه المحسنات يكون له أثره الفعال على نفوس النـــــاس ومشاعرهم حيث « يســـــــتعين به الخطيب على إثارة الانفعالات » (١٨٨)

واستحسن النقاد العرب قديما وحديثا مجىء الســـجع والازدواج فى أساليب الخطابة بعيدا عن التكلف والتعقيـــد فقال أبو هلال العسكرى : « واعلم أن الذى يلزمك فى تأليف الرسائل والخطب هو أن تجعلها مزدوجة فقط ولا يلزمك فيها السجع ، فإن جعلتها مســـجوعة كان أحسن ما لم يكن فى سجعك استكراه وتنافر وتعقيد » (١٨٩) .

ولم يكثر استخدام الحكم والأمثال فى خطباء هذا العصر كما كان فى الجاهلية ولعل هذا مرده الى تأثرهم بالقـــرآن الكريم المعجز المقنع ، والبيان النبوى الصادق المفحم يرشفون

---

(١٨٧) نهج البلاغة شرح الشيخ محمد عبده ٢ : ٤٤٧

(١٨٨) النقد الأدبي الحديث د/غنيمى هلال : ٦٥ دار نهضة مصر للطبع والنشر ١٩٧٣ م .

(١٨٩) الصناعتين : ١١٩ ط ١ مطبعة محمود بك ١٣١٩ هـ

من رحيقهما ، وينهلون من معينهما الثرار « لأن الخطباء انبهروا بحكم القرآن ومواعظه كما راعتهم أمثاله فاستمعوا إليها وأخذوا منها ، ومن حكم الرسول وأقواله » (١٩٠)

ووجدوا فيهما الغناء عن الحكم والأمثال بما فيهما من بيان رائع وفكر راق ، وحجج دامغة ، وبراهين ساطعة تفند حجج الخصوم وتبطلها .

فأفادوا منهما وبخاصة القرآن الكريم فى الأسلوب ودقة التعبير ، وروعة الأداء ، وجمال التصوير ، وشدة الإقناع والتأثير « وما ذلك إلا لفتنتهم بأسلوبه ، وإحكام نظمه ، فإنك تجد العبارة بل اللفظة حين تأتى فى سياق كاتب أو خطيب أو شاعر تضىء كأنها الشهاب الساطع » (١٩١) .

وورد استخدام الحكم والأمثال فى خطابة هذا العصر « فى خطب الإمام على بخاصة حيث احتلت الحكم والأمثال مكانا بارزا فيها » (١٩٢) ومنها قوله : « أما بعد فإن معصية الناصح الشفيق العالم المجرب تورث الحسرة ، وتعقب الندامه ، وقد كنت أمرتكم فى هذه الحكومة أمرى ، ونخلت لكم مخزون رايى لو كان يطاع لقصير أمر فأبيتم على إباء المخالفين الجفاة ، والمنابذين العصاة حتى ارتاب الناصح بنصحه ، وضن الزند بقدحه ... » (١٩٣)

---

(١٩٠) الخطابة فى عصر صدر الاسلام ١ : ٤٥٣
(١٩١) تاريخ الأدب العربى (العصر الاسلامى) د / شوقى ضيف : ٣٤ ط ٩ دار المعارف .
(١٩٢) الأدب فى عصر النبوة والراشدين : ٢٠١ ط ٢ سنة ١٩٨٠م
(١٩٣) نهج البلاغة : ١٨٣ .

ولعلك تلاحظ الحكمة فى النص والمثل فى قوله : « لو كان يطاع لقصير أمر » (١٩٤)

وعلى الجملة فإن أسلوب الخطابة فى هذا العصر كما قيل :

« هو الأسلوب الفطرى الذى يساوق الطبع ، ويوائم السليقة ولا يعتسف فى لفظ أو فكر أو خيال ، فهو لين هادئ، أو ثائر عاصف على حسب المقتضيات ، ووفقا للأحوال ، مع وضوح اللفظ ، وسهولة الأسلوب ، والانسجام التام فى بناء الكلمات ، وترك السجع المرذول ، وهجر الوحشى ، والبعد عن التكلف ، والإيجاز فى موضع الايجاز والاطناب فيما يستدعى الإطناب والاكثار » (١٩٥)

والمطالع لخطب عصر صدر الاسلام يرى أنها تختلف عن خطب الجاهليين التى كانت تتسم بعدم العمق أحيانا ، وضيق الأفق وتحديد الأغراض والمعالم ، أما الخطبة فى عصر صدر الاسلام فكانت أوسع مجالا ، وأرحب ميدانا ، وتنوعا فى الأغراض والموضوعات وذلك لاختلاف الدواعى والأسباب والمؤثرات فى العصرين ، ففى عصر صدر الاسلام اصطبغت الخطابة بالصبغة الاسلامية ، وأضفى عليها الاسلام ثوبا

---

(١٩٤) هذا مثل ضربه الامام على — كرم الله وجهه — لتصوير حاله مع قومه بحال « قصير » مع سيده الذى عصى امره حينما اشار عليه بأن لا يتزوج « الزباء » ملكة الجزيرة لكنه خالف أمر « قصير » وتزوج بالملكة فقتلته بعد زواجهما فقال « قصير » : « لايطاع لقصير امرا »
انظر الحياة الأدبية فى عصرى الجاهلية وصدر الاسلام : ٢٨
(١٩٥) السابق : ٥٩

من الجلال والعمق والتقدير ، واستمدت معانيها من روحـــه وتعاليمه » وهي في كل ذلك تستمد من القـــرآن وخطـابة الرسول وأحاديثه ، تستمد المعاني وتستمد الأساليب ذات البهاء والرونق » (١٩٦)

و « قد نمت الخطابة الاســـــلامية وتطورت فاكتسبت سـمات وخصائص ميزتها عن الخطبة الجاهلية » (١٩٧) وقد ظهر هذا في رقي الأفكار وعمقها وترابطها ٠

وقد وحد الاسلام بين الخطباء في توجهاتهم ، وطريقة عرضهم لأفكارهم ومعانيهم ولا عجب فقد « جعلهم جميعـــا يدينون بدين واحد ، ويعتقدون عقيدة واحـــــدة ، ومن ثم فتفكيرهم يسير في مخطط واحد لا يختلف في موضوعه أو أساسه من شخص الى آخر ولكنه يعتمد على أسس ثابتـة واحـــدة » (١٩٨)

ومن ثم جاءت أفكارهم واضحة قوية متلاحمة النسيج ، تشتمل على العديد من المعاني والأغراض حيث « تناولت أمور الدين والملة فشرحت العقائد وبينت معالم الشريعة والأحكام المنظمة للحياة الشخصية ، والمعاملات بين الناس ، وعـلاقة المحكومين بالاحكام ، والحلال والحرام وغير ذلك مما يستدعيه نشر الدعوة والرد على الخصوم ، والوعظ والإرشاد » (١٩٩)

---

(١٩٦) تاريخ الأدب العربي (العصر الاسلامي) ١٢٩
(١٩٧) الأدب العربي بين البادية والحضر : ٣٨٣
(١٩٨) الســـابق : ٣٥٠
(١٩٩) الخطابة في صدر الاسلام ١ : ٤٤٣ .

ففى مستهل هذا العصر كانت معانى الخطابة تدور فى محيط الدعوة الى الاسلام وتوحيد الله ، وشرح عقيدة الإيمان به ، وإقناع الناس بالأمور الأخروية وعلى رأسها الحساب والبعث •

وكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ « يخطب فى نفس معانى القرآن المكية متحدثا عن رسالته ، وداعيا الى وحدانية الله مبينا انه يهيمن على الناس فى أعمالهم ، وانه سيبعثهم يوم القيامة ليجزى بالإحسان إحسانا وبالسوء سوءا (٢٠٠)

من هذا خطبة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى قريش حين أمر أن يصدع بالدعوة ، ونادى فيهم قائلا : يا معشر قريش فاجتمع الناس حوله من كل حدب وصوب يصغون إليه • فقال : « إن الرائد لا يكذب اهله ••• » وقد سبق ذكر هذه الخطبة •

وكانت معانى خطب هذا العصر دينية بلغت شأوا كبيرا فى بلوغ الغاية وإصابة الهدف ، ونصاعة الحجة ، والصدق فى تبليغ المراد ، لأن الاسلام نفخ فيها من روحه ، وقد وضح هذا فى خطبة أبى بكر الصديق التى تأثر فيها بالقرآن وعمل على رأب الصدع بين المهاجرين والأنصار فى مجتمع السقيفة ، وفيها يقول :

« أيها الناس نحن المهاجرون أول الناس إسلاما ••• » وقد سبق ذكر هذه الخطبة •

---

(٢٠٠) تاريخ الأدب العربى (العصر الاسلامى) : ١١٥

ولعل ما يميز الخطابة فى عصر صدر الاسلام وحـــدة الموضوع وعمق الأفكار وترابطها ، والتأثير بالوسائل التى تميل القلب وتشوق الفؤاد ، ولا عجب فقد لقيت الخطابة فى ظل الاسلام كل تقدم ورقى وازدهار ، وقد ظهر هذا فى كثير من خطب هذا العصر وبخاصـــة خطب الإمام على ـ كرم الله وجهه ـ ومنها خطبته التى يحث فيها الناس على تقوى الله وخشيته وطاعته وحمده والثناء عليه ، وتسابقهم الى فعـل الخير ، يقول الإمام على :

« أوصيكم أيها الناس بتقوى الله وكثرة حمده على آلائه إليكم ونعمائه عليكم ، وبلائه لديكم ، فكم خصكم بنعمه ، وتداركم برحمته ، أعورتم له (٢٠١) فسترتكم ، وتعرضتم لأخذه فأمهلكم ، وأوصيكم بذكر الموت وإقلال الغفلة عنه ، وكيف غفلتم عما ليس يغفلكم ، وطمعكم فيمن ليس يمهلكم ؟ فكفى واعظا بموتى ، عاينتموهم ، حملوا الى قبورهم غيـــر راكبين ، وأنزلوا فيها غير نازلين ... فابقوا ـ رحمكم الله ـ ركبين ، وأنزلوا فيها غير نازلين .. فسابقوا ـ رحمكم الله ـ الى منازلكم التى أمرتم أن تعمروها والتى رغبتم فيهـــا ودعيتم إليها ... » (٢٠٢)

والمتصفح للموضوعات والأغراض فى الخطابة الجاهلية يمكنه القول بأن الإسلام تناول بعضا منها بالتطور والتهذيب بحيث تتمشى مع روح الإسلام وتعاليمه السمحة ، من هذه

---

(٢٠١) اى ظهرت عوراتكم وعيوبكم
(٢٠٢) نهج البلاغة ش الشيخ محمد عبده : ٣٨٥ وما بعـــدها ط الرحمـــانية .

الموضوعات والأفكار : الفخر بمحاسن القوم وهو المعروف في الجاهلية بالمفاخرات والمنافرات ، وقد بدا هذا في خطبة عطارد بن حاجب بن زرارة خطيب وفد بني تميم عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقيام قيس بن الشماس خطيب الرسول بالرد عليه بأمر منه - صلى الله عليه وسلم - وقد سبق ذكر هذا .

بيد أن تناول خطيب بني تميم وطريقة عرضه للفكرة تختلف عن عرض قيس لها ، فخطبة بني تميم يبدو عليها مسحة من الجفوة والشدة والصلف والغرور فضلا عن نسبة الفضل إليهم دون الله عز وجل وهذا فخر مذموم يبرأ منه الاسلام ، أما رد قيس فقد بدا فيه الاعتراف بنعمة الله ونسبة الفضل إليه على أنه صاحب النعمة وله اليد الطولى في كل شيء ، فافتخر قيس بظهور النبي محمد من بينهم ، ومؤازرتهم ومناصرتهم له ، ووقوفه بجانبه صفا واحدا ، وهذا فخر محمود ، كما بدا هذا الفخر في خطبة الصديق في سقيفة بني ساعدة حيث ذكر مناقب المهاجرين وفضلهم على إخوانهم الأنصار ، لكنه فخر في إطار الدين ، استمد فيه الصديق خطوطه ومعانيه من روح الاسلام الحنيف .

ومن المعاني والأفكار التي أصابها التطور والتهذيب في الاسلام التحريض على الحرب والقتال والأخذ بالثار كما كان في الجاهلية ، وبمجيء الاسلام تلاشت هذه النزعة وصار بدلا منها الدعوة الى الجهاد والاستشهاد في سبيل الله وبيان ثواب ذلك ، وخطب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وغيرها من الخطب الاسلامية مليئة بهذه الفكرة .

من هذا خطبة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى غزوة بدر التى يقول فيها « أما بعد فإنى احثكم على ما حثكم الله عليه ، وأنهاكم عما نهاكم عنه ، فإن الله عظيم شـــأنه يأمر بالخير ويحب الصدق ، ويعطى الخير أهله على منازلهم عنده، وإنكم قد اصبحتم بمنزل من منازل الحق لا يقبل الله فيه من احد إلا ما ابتغى به وجهه وإن الصبر فى مواطن البأس مما يفرج الله به الهم ، وينجى به من الغم ، وتدرك به النجـــاة فى الآخرة ... وأبلوا ربكم فى هذه المواطن أمرا تستوجبوا به الذى وعدكم به من رحمته ومغفرته ، فإن وعده حق ، وقوله صدق ، وعقابه شديد ... » (٢٠٣)

وأيضا خطبة الفاروق عمر — رضى الله عنه — التى يحث فيها الناس على الجهاد فى سبيل الله وفتح البلدان ، وقد تأثر فيها بالقرآن الكريم .

يقول الفاروق : « إن الحجـــــاز ليس لكم بدار إلا على النجعة ، ولا يقوى عليه أهله إلا بذلك ، أين الطراء (٢٠٤) المهاجرون عن موعود الله ؟ سيروا فى الأرض التى وعدكم الله فى الكتاب أن يورثكموها فإنه قال : « ليظهره على الدين كله » والله مظهر دينه ومعز ناصره ... »

ولما أمر أبا عبيدة على الناس قال له : « إســـــمع من أصحاب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وأشركهم فى

---

(٢٠٣) الحياة الأدبية فى عصرى الجاهلية وصدر الاسلام: ٢٦٧ ، ٢٦٨

(٢٠٤) الطراء ج طارىء من طرأ عليهم كمنع : اتاهم من مكان أو خرج عليهم منه فجأة .

الأمر ، ولا تجتهد مسرعا حتى تتبين فإنها الحرب والحرب لا يصاحبها إلا الرجل المكيث (٢٠٥) الذى يعرف الفرصة ٠٠٠ » (٢٠٦)

وإذا كان من الخطب الجاهلية ما دعا الى عبادة الله وتوحيده كما فى خطبة قس بن ساعدة فإن الخطبة الاسلامية تناولت هذا المعنى وكان شغلها الشاغل وبخاصة فى المراحل الأولى من الاسلام ، فقد خطب - صلى الله عليه وسلم - فى جمع من قريش يحذرهم من الشرك والطغيان وفيها يقول : « إن الرائد لا يكذب اهله ، والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم ٠٠،٠٠ » وقد سبق ذكرها .

كما تناولت الخطبة الاسلامية بعض معانى خطب الجاهليين واضفت عليها روح الاسلام - بتضمينها بعض آيات القرآن الكريم - كالدعوة الى السلم وحقن الدماء ، وخطب النكاح ، والصلح بين الناس ، وتوجيه النصح لهم . وتوصيتهم بتقوى الله ، وتبصيرهم بأمور الدين كما فى خطبة الصديق - رضى الله عنه - فيقول بعد أن حمد الله واثنى عليه :

« اوصيكم بتقوى الله وأن تثنوا عليه بما هو أهله ، وأن تخلطوا الرغبة بالرهبة ، وتجمعوا الإلحاف بالمسألة ، فإن الله آثنى على زكريا وعلى أهل بيته فقال : « إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا

---

(٢٠٥) المكيث : المتمكن الهادىء
(٢٠٦) جمهرة خطب العرب : ٢٢٢ ، ٢٢٣ ط ٢ الحلبى ١٩٦٢ م

خاشعين » (٢٠٧) ثم اعلموا عباد الله أن الله قد ارتهن بحقه أنفسكم ، وأخذ على ذلك مواثيقكم ، وعوضكم بالقليل الفانى الكثير الباقى ، وهذا كتاب الله فيكم لا تفنى عجائبه، ولا يطفأ نوره ، فثقوا بقوله ، وانتصحوا كتابه ، واستبصروا به ليوم الظلمة ، فإنه خلقكم لعبادته ... » (٢٠٨)

وإذا كان العرب فى الجاهلية عرفوا خطب الوعظ والإرشاد فإن الاسلام جاء بنوع منظم فى هذا الصدد يقول بعض الأدباء :

« ولكن الواقع أن العرب فى جاهليتهم كانوا يعرفون شيئا من هذا التبيل يتضمن بعض المواعظ التى تدخل فى نطاق الدين ، ومع ذلك فإن الاسلام جاء بنوع منظم ومنسق من الخطب لم يكن معروفا من قبل ألا وهو خطبة الجمعة والعيدين » (٢٠٩)

وبهذا أصبحت الخطابة شعيرة من شعائر الاسلام وتمثل جزءا من عبادته بعد أن كانت أداة من أدوات الدعوة وأدى هذا الى رسوخ أقدامها واتساع مجالها ونهوضها .

و « لعل أهم ما يميز الخطابة الاسلامية عن الخطابة الجاهلية طغيان الروح الاسلامى عليها فكرا وموضوعا ، فهى

---

(٢٠٧) سورة الأنبياء من الآية : ٩٠

(٢٠٨) العقد الفريد ٤ : ٦١ ، ٦٢ ت احمد أمين وزميليه .

(٢٠٩) من ادب الدعوة الاسلامية : ١٢٠ عباس الجرارى ط ٢ دار الثقافة الدار البيضاء .

فى مختلف الوانها متأثرة بمثل الاسلام وقيمه . ثم إنها غدت فى هذا العصر متناسقة البناء ، مترابطة الأجزاء ، واضحة الهدف والغاية » (٢١٠)

ولقد احتوت أساليب خطباء هـذا العصر على بعض الصور والأخيلة التى قصد بها الإمتاع الفنى والاقناع والتاثير ، وتأثر هؤلاء الخطباء فى هذا الصدد بأساليب القرآن الكريم ومن ثم تأثروا بأساليبه التصويرية والتخييلية حيث « إن التصوير هو الأداة المفضلة فى أسلوب القرآن الكريم ... » (٢١١)

ومع هذا قلت الصور والأخيلة فى أساليب الخطباء للاعتماد على الصدق فى الدعوة ، والاقناع بالبراهين والحجج الساطعة ، ومن ثم كثرت الأساليب الحقيقية التقريرية التى تحدث دويا فى النفوس بطريق مباشر كما فى خطبة الرسول - صلى الله عليه وسلم - والتى قدم لها بقوله :

« أرأيتم لو أخبرتكم ان خيلا بالوادى تريد ان تغير عليكم أكنتم مصدقى ؟ قالوا نعم ما جربنا عليك كذبا » ، ثم يبدأ خطبته بعد ذلك ويقول : « إن الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم ، ولو غررت الناس جميعا ما غررتكم . والله الذى لا إله إلا هو انى لرسول

---

(٢١٠) السـابق : ١٣٣

(٢١١) التصوير الفنى فى القرآن الكريم للشيخ سيد قطب : ٣٥ دار المعارف ط ٨ سنة ١٩٧٥ م

الله اليكم خاصة والى الناس كافة ، والله لتموتن كمـــا تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ..... »

ومن خلال النص يبدو ان الرسول عليه الصلاة والسلام اثر التعبير الحقيقي على الخيال والتصوير ، فلم يوجـد سوى صورتين تشبيهيتين وهما (لتموتن كما تنـامون ، ولتبعثن كما تستيقظون)

يقول الدكتور : محمد رجب البيومى معلقا على هـذه الخطبة ومشيرا الى إقناع الرسول لمن حوله ، وكيف خلب قلوبهم ؟

« أرأيت الى الإقناع اللازم يأخذ به محمدا العقول ؟ لقد سألهم عن صدقه فاعترفوا به ، ثم أقسم لهم بما يثبت هذا الصدق ويؤكده حتى إذا أعلن رسالته إليهم خاصة والى الناس كافة لم يترك الأمر دون تذليل فهنالك حساب وبعث وجزاء ، ولئن كانوا ينامون فالموت كالنوم حقيقة واقعة ، ولئن كانوا يستيقظون فالبعث كاليقظة حقيقة أخرى ، ووراء البعث جزاء وحساب ، وإنها لجنة وإنها لنار » (٢١٢)

ولا يخفي أن التصوير له اثره الفعال فى نقل مشـاعر الخطيب وبث أفكاره الى سامعيه فى قوة وصدق ، ومن ثم لجأ اليه عدد من الخطباء الذين تاثروا بما جاء فى القرآن الكريم « من عبقرية التصوير والتعبير » (٢١٣) وأدركوا ان

---

(٢١٢) البيـان النبـوى ١ : ٦٤

(٢١٣) الحياة الأدبية فى عصرى الجاهلية وصدر الأسلام : ٢٥

« المجاز فى كثير من الكلام أبلغ من الحقيقة وأحسن موقعا فى القلوب » (٢١٤)

ومن الخطب التى تجمع بين الحقيقة والخيال والتصوير للإقناع والتأثير خطبة سيدنا عثمان بن عفان - رضى الله عنهما - ومنها قوله : « فمهلا لا تقتلونى فإنه لا يحل إلا قتل ثلاثة : رجل زنى بعد إحصانه ، أو كفر بعد إيمانه ، او قتل نفسا بغير حق ، فإنكم إذا قتلتمونى وضعتم السيف على رقابكم » (٢١٥)

ومن أساليب التصوير التعبير الكنائى فى قوله : « لا يحل »

ومن الأساليب التصوير التعبير الكنائى فى قوله : « فإنكم إذا قتلتمونى وضعتم السيف على رقابكم » وهو كناية عن قتلهم وعدم إفلاتهم من هذا السيف

وتأثر الخطباء بالبيان النبوى الشريف وبما فيه من تصوير وتخييل لأن « للتصوير فى البيان النبوى مكانة أى مكانة ، اعتمد صاحبه فى توضيحه وإفصاحه على الأخيلة العربية التى التقطتها مخيلته من البيئات العربية المختلفة ، واختزنتها على مدى سنى النشأة والتكوين ، فأما كان دور

---

(٢١٤) العمدة ١ : ٢٦٦ ت محمد محيى الدين ط ٤ دار الجيل بيروت ١٩٧٢ م

(٢١٥) اعجاز القرآن للباقلانى : ٤١ ط مكتبة الحلبى ١٩٧٨ م

البعثة كانت هى المرد الذى استغله بفطرته الخالصة وثقافته القرآنية الجديدة ليغذى به بيانه فى اقتدار » (٢١٦)

ومن الصور البلاغية التى كثر استخدامها فى أساليب الخطباء الاستعارة كما فى خطبة الصديق - رضى الله عنه - وهو يتحدث عن القرآن ، ويبين مكانته فى سعادة الناس : « وهذا كتاب الله فيكم لا تفنى عجائبه ، ولا يطفأ نوره ، فثقوا به ، وانتصحوا كتابه ... » (٢١٧)

وفى هذا النص أراد ابو بكر الصديق - رضى الله عنه - أن يبين مكانة القرآن فى النفوس وأثره فى صلاح الأمم والجماعات عن طريق التعبير الاستعارى فى الحرف (فى) فى قوله « فيكم » تجسيما للفكرة وتوضيحا لها ، ونقلها للسامعين وإثارة مشاعرهم وإقناعهم بها ، وأريد به التمكين والاحتواء ، كما جعل للقرآن نورا لا ينطفىء ، وهذا تجسيم للمعنويات أو نقل المعقول الى المحسوس أريد به التمسك بكتاب الله عز وجل ، والالتزام بما فيه واتباع هديه ، الى جانب أنه جعل من القرآن شخصا ناصحا أمينا ينتفع الناس بنصحه وتوجيهاته كما فى قوله : « وانتصحوا كتابه » .

واستخدم الصديق - رضى الله عنه - هذا الأسلوب التصويرى لأن التصوير « ينقل النفس من المعقول الى

---

(٢١٦) تاملات فى البيان النبوى : ١٤٢
(٢١٧) جمهرة خطب العرب ٧٣/١

المحســوس فتأنس به وترتاح له ، وذلك لأن أنس النفس موقوف على أن تخرجها من خفى الى جلى » (٢١٨)

والتشبيه من الصور التى ورد استخدامها فى أســاليب خطباء هذا العصر وقد سبق بيان هذا فى خطبة الوداع ٠

ومما تميزت به الخطابة فى هذا العصر كثرة استخدام التصوير أو المجاز المصــاحب للبديع فى عبــارة واحـدة بهدف توضيح الفكرة ، وإقناع السامعين وإثارة مشــاعرهم ووجدانهم ، من ذلك ما جاء فى خطبة الإمام على ــ كرم الله وجهه ــ التى يقول فيها :

« فيا عجبا والله يميت القلب ويجلب الهم اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم ، وتفرقكم عن حقكم » (٢١٩)

يتضح من النص مجىء الخيال مع البديع فى تعبيــر واحد ، فنجد الخيال هنا مصحوبا بنغم موسيقى ناتج عن الازدواج فى قوله : « يميت القلب ويجلب الهم » وهو كناية عن الألم والمرارة ، وناتج ايضا عن المقابلة والجنــاس فى قوله : « اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم وتفرقكم عن حقكم » وبين مما سبق أن الصور والمحسنات البديعية التى وردت

---

(٢١٨) التشبيه والتمثيل د/يوسف البيومى ٢٠٠ مطبعــة عابدين ١٩٧٣ م

(٢١٩) البيــان والتبيين ٢/٥٣ ، ٥٥

فى خطب هذا العصر كانت بعيـــدة عن التكلف والتصنع المبغوض وبخاصة خطب الإمام على فقد « كان أول من عالج الفنون الأدبية معالجة فنية ، فخرج عن سنة الإبلاغ ومحض الأداء الى صياغة التعبير وفن الأداء ، فاستقام له أســلوب مطبوع مصنوع »

وهكذا بدا أثر الإسلام واضحا فى خطب هذا العصر بما أضفاه عليها من روحه ، وأمدها من معينه ، وتأثرها بقرآنه ، وببيان نبيه - صلى الله عليه وسلم - فعذبت ألفاظهـــا وعمقت معانيها ، ورق خيالها ، وارتقت شكلا ومضمونا ، وأداء وتصويرا بعد أن غلبت عليها الجاهلية من ذى قبل .

والله من وراء القصد وهو الهادى الى سواء الســـبيل والموفق لما فيه صلاحنا فى ديننا ودنيانا .

مواقف الشعوب
إزاء صراع الخارجين
مع الدولة

د / انس هارون عبد المجيد

أولا : المحاور الرئيسية لمناقشة مواقف الشعوب

★ المحور العقائدى .
★ المحور العسكري
★ المحور الاجتماعى
★ المحور المكانى أو الجغرافى

ثانيا : الأسباب التى أدت لتبنى الشعوب لهذه المواقف

١ ـ المخلفات الاجتماعية للصراع
٢ ـ المعاناة الاقتصادية :
(أ) سياسة التجويع .
(ب) المكوس والإتاوات .
(جـ) الحرب الاقتصادية .

أولا : المحاور الرئيسية لمناقشة مواقف الشعوب :

- ★ المحـــور العقائدى ٠
- ★ المحـــور العسكرى ٠
- ★ المحـــور الاجتماعي ٠
- ★ المحور المكانى او الجغرافى ٠

انصبت دراسات أغلب الباحثين الذين تعرضوا لصراع الدولة مع الخارجين فى بحوثهم فى البحث عن صور المساجلات والمواجهات العسكرية والسياسية وأسباب النصر والهزيمة والمواقف العقائدية والسياسية لطرفى الصراع ٠ فى الوقت الذى خلت فيه أغلب هذه الدراسات من التعرض لقضـــــية الشعوب ومواقفها ٠

على اننا يمكننا أن نتعرض لمجموعة من الأســـئلة فى إطار تلك القضية من أهمها : هل كانت شعوب العـــــالم الاسلامى فى تلك الفترة لها مواقف إزاء ذلك الصراع الذى يدور بين ظهرانيهم ؟ ولمن كان تأييدهم ؟ وهـــل كان ذلك التأييد على مستوى واحد لكل الحركات أم لبعضها دون البعض الآخر ؟ وهل توجه تأييد الشعوب للدولة فى بعض الأحيان ؟

ومن هذا المنطلق تكونت فكرة هذ الدراسة والتى حصرت أهم مواقف الشعوب إزاء صراع الخارجين مع الدولة فى أربعة محاور رئيسية : عقائدى وفكرى واجتماعى ومكانى أو جغـــرافى ٠

وانتهت هذه الدراسة بذكر أهم الأســـباب التى أدت لتبنى الشعوب لمثل تلك المواقف المتباينة ٠٠

المحــور العقــائدى :

عند مناقشتنا لقضايا الفكر والتبعية المذهبيـــــــة والعقائدية أعتقد أن الأمر سيختلف اختلافا بينا عن مناقشة قضايا الحرب والتبعية العسكرية حيث اننا يمكننـــا فى قضايا الحرب التصنيف السريع الواضح لجموع المقـاتلين والمنحازين عسكريا لجبهة ما ٠

أما فى قضايا الفكر فإن الأمر سيختلف حيث يصعب متابعة تصنيف الأعضاء والأتباع وأعدادهم ومدى انتمائهم فى ظل ظروف متغيرة مع ما يصاحبها من تنقل وترحال سواء كان هذا التنقل نابع من سياسة الفرقة ورغبتها أو بحثـــا عن الأمان وبعدا عن الاضطهاد السياسى والفكرى الذى يمكن أن يمارس ضد أبناء تيار معين فى ظل ظروف معينة خاصة أو مستحدثة كتغير أهواء الخلفاء أو انتماءات الخلفـــاء أنفسهم بتبعيتهم هم أنفسهم لتيارات معينـــة يعملوا على نشرها وضرب غيرها من تيارات ومذاهب أو أفكار ، وبنـاء عليه فإن الفرقة الواحدة قد تمر بظروف متباينة من هـــذه التبعية الفكرية والانتماء الشعبى لها حسب مساحة الحرية الفكرية التى يمكن أن يكفلها كل خليفة وحسب مجمـوعة الظروف والملابسات المحيطة سواء كانت فكرية أو سياسـية أو حتى اقتصادية ٠

وبالنظر لحركة الاعتزال يستطيع أن يستشعر بسـهولة

مدى الجهد الذى بذلته الحركة فى سبيل الحصول على التأييد الشعبى والانتشار الجماهيرى ، حيث لم تترك الحركة أى فرصة تسنح لها إلا واستغلتها والغريب فى ذلك أن المعتزلة فى سبيل ذلك الانتشار أوجدوا الكثير من صور التطور فى الممارسات والأساليب التى كانت مجهولة وغير مطروقة من أبناء المجتمع الاسلامى فى ذلك الوقت ، وأول ما يصادفنا فى ذلك هو توظيف المسجد • حيث لا يخفى أن جموع المسلمين لابد وأن ترتاد المسجد لصلاة الجماعة يوميا ومن ثم يكون هذا التجمع الشعبى فرصة سانحة لإلقاء بذور الأفكار والدعوة لها وشرحها بل وقيام المناظرات التى تخلق فى النفوس على الأقل محاولات التفكير واعمال العقل فيما يقال ، لتحدث بعد ذلك عملية التبعية الفكرية خاصة اذا تكررت هذه المواقف لتحدث فى النهاية ما يشبه غسيل المخ فتتوجه جموع الناس لهذا الفكر لتأخذه بتلقائية •

وإذا كان المعتزلة قد وظفوا المسجد لهذا الدور فى الحصول على التأييد الشعبى من جموع الناس (١) الا أنهم كانوا أوسع وأعمق نظرا عندما شغلوا بقضية النشأ وعملوا على أن يوجهوا جهودهم لتربية ذلك النشأ منذ البداية على هذا الفكر (٢) •

---

(١) الكندى : ابو عمرو محمد بن يوسف المصرى ت ٣٥٠ هـ : الولاة وكتاب القضاة ص ٤٤٧ طبعة الآباء اليسوعيين - بيروت ١٩٠٨ م

(٢) ترجمة الامام احمد بن حنبل ص ٥١ دار الوعى حلب نقلا عن تاريخ الاسلام للحافظ الذهبى • احمد جاب الله : التربية والتعليم ص ٥٢ مقال لمجلة دراسات فى الحضارة الاسلامية جـ ١ - ١٩٨٥ م الهيئة المصرية العامة للكتاب •

ولا يخفى أنها فلسفة خطيرة كفيلة بقلب موازين القوى الفكرية فى أى مجتمع فى فترة وجيزة بحيث يمكن فى خلال هذه الفترة الوجيزة صبغ مجتمع بأسره بتيار فرقة معينة لو وجهت هذه الفرقة جهودها للصبيان والصغار .

وقد كان ! فقد وجه المعتزلة جهودهم لتعليم الصبيان نفس هذا الفكر بحيث ينشأ الطفل مقتنعا به مؤمنا بقياداته ومتبعا أها تحت أى ظرف من الظروف .

وإذا كانت الجهود مع الكبار لم تثمر أو كانت ثمرتها ضعيفة فالإمساك بالجيل القادم فرصة سائغة يحسن استغلالها .

وتجدر الاشارة لزكاء فكر المعتزلة الذى استغل كل فرصة لتوجيه الرأى الشعبى وخلق تيار مؤمن به ويعمل له . على أن هذا الفكر لم يقصر نفسه على أبناء الطبقات الشعبية وكفى وإن كان هذا مهما إلا أنه استطاع أن يغزو دار الخلافة نفسها من نفس المنظور السابق الا وهو منظور التعليم وتربية النشأ فتوجهت يد الاعتزال لشخصية المأمون نفسها وهو فى سن التعليم والتربية فحوته . مما كان سببا فى اقتناعه بهذا الفكر ، ولا يخفى أنه قام بدوره بعد ذلك فى صبغ المجتمع كله بصبغة فكر الاعتزال وحقيقة فإن ما سبق من حديث يفهم منه أن فكر الاعتزال ألقى خيوطه جهة التيار الشعبى فى محاولة لاحتوائه ولكنه على ما يبدو لم يونق فى هذا الاتجاه فعمد الى سياسة النفس الطويل بتبنى فكرة تعليم النشء لخلق جيل

جديد كامل يؤمن بهذا الفكر . وكان المأمون أحد أبناء هذا الجيل الذى غزاه فكر الاعتزال وحوته يده (٣) .

على ان هذا الحديث يجرنا لسؤال هام الا وهو هل أثمرت جهود المعتزلة فى خلق تيار شعبى يؤمن بهذه الافكار ويدعو لها ؟ والحقيقة تؤكد ان المعتزلة فشلوا فى ذلك بدليل ما وضح إبان محنة القول بخلق القرآن حيث تشكل من طبقات الشعب فى مختلف أشكاله ما يشبه الاغلبية الصامتة التى رفضت هذا الفكر ولفظته ولكن للأسف الشديد (٤) فى صمت وكيف تستطيع المجاهرة بذلك الرفض وسيف الدولة مسـلط على الرقاب لاجتثاث الرؤوس والأرزاق فمن لا يؤمن بهذا الفكر لا رزق له فى الدولة ولا عمل (٥) ولا أدل على ذلك من هـذه الجموع التى كانت ترغب فى حضور دروس أحمد بن حنبل بعد عفو الدولة عنه مما دعا الدولة لأن تأمره باجتنـاب التجمعات وعدم القاء الدروس (٦) وكذلك فإن الجموع التى حضرت جنازته لهى خير دليل على فشل فكر الاعتزال فى أن يستقطب جموع الناس له أو يحتويهم .

---

(٣) فى رايى انه من الواجب تاريخيا فتح ملف الصراع بين الامين والمأمون للبحث عن يد المعتزله فى هذا الصراع وهل كان لهم دور فى ايجاده واذكاء ناره بحثا عن اقصاء الأمين والاتيان بالمأمون صـاحب فكر الاعتزال قضية هامة جدا .

(٤) ترجمة الامام محمد بن حنبل ص ٣٦ ، ٣٧ عن تاريخ الاسلام للحافظ الذهبى .

(٥) ابن الأثير : الكامل جـ ٥ ص ٢٢٢ .

(٦) ابن الأثير : الكامل جـ ٥ ص ٢٥١ .

ولا أدل على حقيقة الموقف الشعبى المعارض لفكر الاعتزال والرافض له عامة وفى القول بخلق القرآن خاصة مما صرح به أحمد بن أبى دؤاد نفسه عندما قام أحد أتباع المعتصم يعرض عليه أن يقطع رأس الامام أحمد أمام جماهير الناس التى شهدت هذه المحاكمة التاريخية • حيث قال بن أبى دؤاد : « لا يا أمير المؤمنين لا تفعل فإنه إن قتل أو مات فى دارك قال الناس صبر حتى قتل فاتخذوه إماما وثبتوا على ما هم عليه » (٧) .

وهى كلمات تؤكد المبايعة الجماهيرية الصامتة للإمام احمد فى موقفه والرافضة كل الرفض لفكر الاعتزال ولكنه كما قدمت الرفض السلبى • حتى أن جماهير المسلمين كانت تؤدى صلاة الجماعة خلف أئمة المعتزلة وتعود لتعيد صلاتها مرة أخرى فى المنازل (٨) .

على أن الدولة نظرا لتتبع الرأى العام الشعبى لقضية المحنة أخرجت بن حنبل أمام جماهير الناس بعد أن أحضرت أقاربه وجيرانه وأهل الحل والعقد وأشهدت على خروجه حيا من دار الخلافة (٩) بعد ابتلائه بمحنة القول بخلق القرآن وما لاقاه فيها من صنوف العذاب وحقيقة فان الدولة استطاعت أن توقف غمار ثورة عارمة لو قتل بن حنبل فى محبسه •

---

(٧) ترجمة الامام احمد ابن حنبل ص ٤٨ نقلا عن تاريخ الاسلام للحافظ الذهبى •

(٨) نفس المرجع ص ٥١ •

(٩) نفس المرجع ص ٥٠ •

والدارس لتاريخ الحركات الفارسية يلفت نظره تنوع مواقف الإقبال الشعبى على هذه الحركات حسب ظروف الزمان والمكان والاتجاه الفكرى وغيرها .

فالبابكيه فشلت فى الالتحام بالجماهير فى حواضر الدوله التى تتسم بالتواجد العلمى والثقافى والحضارى المصبوغ بالصبغة الإسلامية ولكنها عندئذ طورت نفسها ولم تقف مكتوفة الأيدى أمام فقدان التبعية الجماهيرية والانتشار الشعبى فى هذه الأوساط فاخترعت حيلة خطيرة استطاعت من خلالها ان تحقق الانتشار الشعبى والتواجد بين الجماهير .

وتمثلت هذه الحيلة فى اللجوء لأطراف الدولة العباسية حيث الفراغ العلمى والثقافى وغياب الصبغة الاسلامية هذا بالاضافة الى حداثة الاسلام فى هذه المناطق ووجود بقايا الديانات القديمة بين جموع الناس فى هذه الأماكن .

ومن ثم حققت البابكية فى هذه المناطق انتشارا سريعا وواضحا ووجدنا حركة انضمام ضخمة من أهالى الجبال بناحية أذربيجان (١٠) وهمذان (١١) وأصبهان (١٢)

---

(١٠) اذربيجان : بالفتح ثم السكون وفتح الراء وكسر الباء الموحدة وياء ساكنة وجيم وقيل معناها بيوت النار . ومن اشهر مدنها تبريز ، خوى ، سلماس . ياقوت الحموى : معجم البلدان ج ١ ص ١٢٨ .

(١١) همذان : بالتحريك وذال معجمة وآخره نون . كان فتح همذان =

وماسبذان (١٣) مع تنوع (١٤) الأجناس لجموع الناس التى انضمت لهذه الحركة فانضم الكرد والأرمن وغيرهم » (١٥) ٠

واستطاع بابك أن يعقد عدة اتفاقيات مع تيوفيل امبراطور الروم لضمان الاستقرار والانتشار فى تلك المناطق مع امكانية التوجه لتقسيم الجبهات اضعافا لجانب المسلمين ٠

وعمنت الحركة على عقد الاتفاقيات مع بعض قواد الدولة العباسية (١٦) وبعض (١٧) ولاتها تحقيقا للانتصارات وجلبا للأتباع وتضاء على الدولة ، إذ لا يخفى أن تحقيق الانتصارات مع ما حققته من نتائج عسكرية ومادية مهمة له أثره الكبير فى جموع الناس وعامتهم الذين يأخذون بمثل هذه

=

فى جمادى الأولى على رأس ستة اشهر من مقتل عمر بن الخطاب رضى الله عنه وكان الذى فتحها المغيرة بن شعبة ٠ ياقوت الحموى : معجم البلدان جـ ٥ ص ٤١٠ ٠

(١٢) أصبهان : منهم من يفتح الهمزة ومنهم من يكسرها : مدينة مشهورة من أعلام المدن وأعيانها ٠ وهى اسم للاقليم بأسره وهى من نواحى الجبل ٠

ياقوت الحموى : معجم البلدان جـ ١ ص ٢٠٦ ٠

(١٣) ماسبذان : بفتح السين والباء الموحدة والذال معجمة وآخره نون ، فتحت على يد ضرار بن الخطاب عام ١٦ هـ ٠

ياقوت الحموى : معجم البلدان جـ ٥ ص ٤٠ ٠

(١٤) الاسفرائيني : عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادى ت٤٢٩هـ الفرق بين الفرق ص ٢٠١ ط بيروت ١٩٨٥ م ٠

(١٥) قدورة : د/زاهيه ـ الشعوب وأثرها الاجتماعى والسياسى فى الحياة الاسلامية فى العصر العباسى الأول ص ٢٤٥ ط/١ بيروت ٠

(١٦) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ ٧ ص ٢٥٣ ٠

(١٧) نفس المرجع والجزء ص ٢٨٣ ٠

الانتصارات ويستشعرون أن الخق والاستقرار والأمان مع هؤلاء المنتصرين·وحقائق التاريخ تؤكد أن البابكية استطاعت تحقيق الكثير من الانتصارات وقضت على الكثيرين من أمهر واشهر قواد الدولة العباسية (١٨) ، كل هذه الأمور كانت سببا في كثرة اتباعها وانتشارهم وتواجد التأييد الشعبي والتبعية الجماهيرية بين جموع الناس ·

ولا ادل على مدى نجاح البابكية في بسط سيطرتها على جماعات ضخمة من الناس ومن تحقيق قدر مذهل من الانتصارات العسكرية والتبعية الجماهيرية من بقائها أي حركة بابك ـ تنخر في عظام الدولة العباسية وفكرها مدة تربو على العشرين عاما في ظل قيادة بابك الخرمي ·

وبقاء هذه الحركة بعد القضاء على بابك لفترات طويلة كما ذكر البغدادي (١٩) والغريب أن لهم مساجدهم يؤذنون فيها ويعلمون أولادهم القرآن · لكنهم لا يصومون ولا يصلون ولا يرون جهاد الكفرة ·

ونستطيع ان نضرب مثالا آخر للحركات الفارسية بحركة المقنع فإنه بالرغم من أن المقنع من مرو إلا أن حركته لم تلق الانتشار الشعبي والتبعية الجماهيرية إلا من أهل الجبال

---

(١٨) من الممكن مراجعة احداث بابك في الطبري حتى سقوط مدينة (البذ) جـ ٧ ص ٢٤٢ ·

(١٩) الفرق بين الفرق ص ٢٠٢ ·

والأطراف فى منطقة جبل ابلاق وقوم من الصفد والترك (٢٠)

وكذلك فإن الحركة اســتطاعت أن تبتعــد عن أرض التجمعات الثقافية والدينية وأن تنتشر بين طبقات العوام وجهال الناس وأصحاب الحرف البسيطة خاصة إذا اقترن هذا الجهل بما كان يصنعه المقنع من خوارق وحيل هندسـية خالت على الكثيرين من هؤلاء العوالم • ومن ثم فقد وجـدت الحركة من يعينها ويتشرب فكرها ، ولا أدل على ذلك من بقاء هذه الحركة مدة تربو على الأربعة عشر عاما وهى تقـاتل جند الخلافة وتقتل من أبنائها وقوادها الكثيرين •

ومما يلفت النظر أن الحركة بالرغم من القضاء على قائدها وحصارها فى قلعة كش واستئصالها إلا أن جموع المتبعين لها والذين بقوا حتى عصر الاسفرائينى البغدادى كانوا كثــرة لا يستهان بها وتنتشر بينهم عادات المقنع من اســتحلال الميتة ، وأكل الخنزير ، والحرية الجنسية ، وخلاف ذلك بالرغم من وجو المســاجد فى قراهم (٢١) •

كل هذه الأمور تؤكد أن المقنعية استطاعت اغواء الكثيرين من عامة الناس وبسطائهم وحققت انتشارا شعبيا لا يستهان به بدليل بقاء هذه الأجيال فى قرى خاصة بهم لفترات متأخرة تؤمن بهذا الفكر وتعيش به فى ظل الحكم والحـــكومة الاســلامية :

---

(٢٠) نفس المــرجع ص ١٩٥ •

(٢١) الاسفرائينى : الفــرق بين الفــرق ص ١٩٦ •

ونستطيع ان نقول عن حركة المازيار أنها تعد امتـدادا لأحركات الفارسية من بابكية ومقنعية وغيرهما واستطاعت أن توجد الكثير من الأتباع فى مناطق جرجان (٢٢) وعاشوا هناك فترات طويلة حتى بعد القضاء على مازيار فى عهـــد المعتصم وصلبه « بسر من رأى » بجوار بابك الخرمى إلا أن جموع متبعيه من أهالى هذه المناطق بقوا يظهرون الاســلام ويبطنـــون الكفـــر (٢٣) .

---

(٢٢) جرجان : بالضم وآخره نون ، مدينة عظيمة بين طبرســتان وخراسان ويقال ان أول من احدث بنائها يزيد بن المهلب بن ابى صفرة ، ياقوت الحموى : معجم البلدان جـ ٢ ص ١١٩ .

(٢٣) الاسفرائينى : الفرق بين الفرق ص ٢٠٢ .

المحور العسكرى :

يعتبر المحور العسكرى محكا رئيسيا يبين الى أى مدى تباينت مواقف الشعوب فى نظرتها للصراع الدائر بين الدولة والخارجين عليها بمختلف تياراتهم ومذاهبهم ٠

وفى رأيى ان مناقشة هذا الأمر يستوجب الفصل بين هذه المواقف المتباينة للتيار الشعبى ٠ وذلك بعرض التيار المؤيد للحركات منفصلا عن التيار المعارض خاصة إذا دار الحديث عن الصراع العسكرى ٠

ومن أهم صور التيار المؤيد ما ذكره محمد النفس الزكية صراحة إبان قيامه بحركته فى المدينه ووسط جماهيرها فى إحدى خطبه من أنه ما خرج بين ظهرانيهم إلا بعد ان اخذت له البيعة فى كل أمصار الدولة العباسية كما كان يركز على خراسان (معقل التأييد الشيعى الجارف للعباسيين) وكان يقول : (أهل خراسان على بيعتى) (١) إلا أن الروايات التاريخية تذكر أن المنصور أشاع أنه هو الذى أمر بمكاتبة محمد حتى يغرى بالخروج بعد ان يستشعر بمدى التأييد الجارف الذى ينتظره فى حالة خروجه ، يؤكد ذلك إشادة

---

(١) البلاذرى : احمد بن يحيى بن جابر ت ٢٧٩ هـ ٠ انساب الاشراف جـ ٢ ص ١٠٦ تحقيق : محمد باقر المحمودى جـ ١ ـ بيروت ٠

المنصور بنفسه عندما سمع خبر خروج النفس الزكيـــــة بالمدينة لأنه هو الذى استطاع أن يخرج الثعلب من جحره ٠

وحقيقة فإن مجريات الأحداث وتطوراتها يفهم منها أن الموقف الشعبى فى المدينة تميز أو مر بمرحلتين :

الأولى : تلك التى كانت فى بدايات الثورة حيث قوبلت بالتأييد الشعبى الجارف من جميع طبقـــات المجتمع فى المدينة وحصل خلالها قائد الثورة على بيعة مجتمع المدينة ٠

أما المرحلة الثانية فقد كانت عند مجئ عيسى بن موسى بقواته لضرب الثورة وحصار المدينة ، إذ حل النفس الزكية ،هل المدينة من بيعتهم فتوجهت الجموع الشعبية لسفوح الجبال تاركة المدينة للنفس الزكية وبعض كبـار متبعيه وناصريه ٠

ونستطيع أن نلمح أهم صور التأييد والتعاطف الشعبى مع الخارجين فى حركة ابراهيم ابن عبد الله بن الحسن فى البصرة ، حيث استطاعت هذه الحركة أن تسـتولى على الكثير من مدن الخلافة العباسية وأن تصبح على وشك إسقاط الخلافة العباسية نفسها بفضل خطة ابراهيم التى كانت تعتمد على التكتلات الشعبية المتعاطفة مع هذه الحركة ٠

فالملاحظ أن الخطة العسكرية كانت تعتمد على الاستيلاء

على ثلاثة من أهم حواضر الدولة العباسية فى تلك الفترة وهى واسط (٢) والأهواز(٣) وفارس(٤) واستخدام التكتلات البشرية الشيعية بل وغيرها من المتخوفين والمجحمين فى هذه المناطق كعوائق توقف تقدم قوات العباسيين فى الوقت الذى يتمركز هو فيه على مشارف البصرة ويصبح من الواجب على العباسيين أن يمروا على هذه الحواجز ويسحقوا تحرك الثورة فيها قبل الاتجاه لابراهيم وحربه .

وحقيقة فإن المنصور كاد أن يبتلع الطعم فنراه يرسل القوات للكوفة ثم واسط بقيادة عامر بن اسماعيل المسلمى وقوات أخرى للأهواز بقيادة خازن بن خزيمة ، إلا أن المنصور استطاع فى اللحظات الأخيرة أن يستوعب خطة ابراهيم لتشتت قوات الخلافة فى حرب التجمعات الشعبية الشيعية فى حواضر المدن ، بحيث تتمكن قوات الشيعة بعد ذلك من هزيمة جيش المنصور فى البصرة عند النقاء الأخير ويصبح سقوط بغداد لقمة سائغة فى يد ابراهيم وقواته .

---

(٢) واسط : تطلق على عدة مدن ولكن المقصودة هنا التى بين البصرة والكوفة لتوسطها بين البلدين . ياقوت الحموى : شهاب الدين أبى عبد الله : معجم البلدان جـ ٥ ص ٣٤٨ .

(٣) الأهواز : جمع هوز وأصله حوز . وهى اسم للكورة والبلد الذى يغلب عليه الاسم سوق الاهواز : ياقوت : معجم البلدان جـ ١ ص٢٨٤

(٤) فارس : ولاية واسعة من اهم كورها اصطخر واردشير فتحت فى ايام عمر واستكمل فتحها ايام عثمان رضى الله عنهما . ياقوت ، معجم البلدان جـ ٤ ص ٢٢٧ .

ومن ثم فقد حرك المنصور قواته لابراهيم مباشرة بعد إيقاف القتال فى واسط والأهواز (٥) ٠

وللحقيقة التاريخية أسجل أن تباين التعاطف الجماهيرى على مستوى الخلافة العباسية فى تلك الفترة كاد أن يفقد الخلافة العباسية ذاتها وعرشها حيث أقبلت الجماهير على ثورة ابراهيم فى البصرة والأهواز وفارس وواسط والمدائن والسواد (٦) وأيدتها ٠

كما كانت مصر فى تلك الفترة مليئة بثورات العرب والقبط ، كما لا يستطيع أحد أن ينكر مدى التعاطف الجماهيرى فى الشام لبنى أمية ، وتباين التشيع فى الحجاز واليمن بين حب الصحابة وآل البيت وبقايا الثورات القديمة ، ونظرة إجمالية للوضع فى تلك الفترة نستطيع أن نفهم منها إمكانية سقوط الدولة العباسية على يد حركة ابراهيم بن عبد الله بن الحسن ، حيث لم يتبق للعباسيين سوى خرسان بعد أن تنوعت وتباينت رؤى القوى الشعبية والجماهيرية بصورة أصبحت كلها فى صالح الخارجين وضد الدولة ٠

---

(٥) ابن الأثير : ابو الحسن على بن الكرم ت ٦٣٠ هـ ٠ الكامل فى التاريخ جـ ٥ ص ١٧ - ط/٣ بيروت ٠

(٦) الطبرى : محمد بن جرير ت ٣١٠ هـ ٠ تاريخ الأمم والملوك جـ ٣ ص ٢٥٦ بيروت ٠

وفى حديث الطبرى (٧) عن ثوره يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب بالديلم (٨) ذكــر صريح لرؤية جموع الناس الواضحة من الصراع تلك الرؤية المؤيدة للحركة والمعارضة للدولة مع كل ما يمكن ان يحمله هذا من صور التنكيل والمطاردة لهذه الجموع فى حالة فشـــل الثـــورة ٠

وحقيقة فبالرغم من تطرف المكان وبعده ووجـــوده فى مناطق نائية عن الثورة إلا أن هذا لم يمنع جموع الجماهير من التحرك ، لموقع تمركز الثورة فى الديلم ، لا فرق بين أبناء الأمصار الرئيسية أو القرى الفرعية مما يشعرنا بمدى التأييد الشعبى الجارف لهذه الحركة ونستطيع أن نفهم ضخـــامة التـــأييد الشعبى فى موقف الرشيد الذى اغتم لهــــذه الحركة ورصد لها من الأموال والقـــواد الشىء الكثير وبات ينتظر انحسار خطرها بصورة تؤكد مدى قوة هذه الحـركة وخطورتها ٠ كما سجلت كتب التاريخ صور متعددة لفرحة الرشيد بانحسار خطر هذه الحركة عن طريق الصلح الذى أبرمه الفضل بن يحيى البرمكى مع يحيى بن عبد الله بن الحسن (٩) ، وبالرغم من عودة يحيى بن عبد الله مع الفضل ابن يحيى إلا أن جموع الجماهير لم تنقطع فى الإتيـــــان

---

(٧) تاريخ الأمم والملوك ج ٦ ص ٤٥٠ ٠

(٨) الديلم : أسم ماء لبنى عبس ٠ قال عنترة : زوراء تنفر من حياض الديلم ٠ ياقوت الحموى : معجم البلدان ج ٢ ص ٥٤٤ ٠

(٩) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ٩ ص ٤٥١

ليحيى والسلام والدخول عليه (١٠) مما يؤكد فكرة التعاطف الشعبى والتأييد الجارف للثورة ولشخصية يحيى بن عبد الله ٠

ونستطيع أن نضيف لما سبق محاولات الحركات أكسب التعاطف الشعبى والحرص عليه ، وهى تعلم ما يمكن أن تقدمه الشعوب لحركات الخارجين خاصة عندما تقتنع بفكرة معينة فإنها تبذل فى سبيلها الغالى والرخيص وقد لاحظ هذا (حسين صاحب فخ) فنراه يتواعد مع أصحابه فى الخروج على الدولة فى موسم الحج (١١) آملا فى أن يكون لهذا التواجد الشعبى الضخم من جماهير المسلمين دوره فى الاقتناع بحركته والانضمام إليها ومن ثم تسهل عملية إسقاط الدولة بعد ذلك بهذه الجموع الغفيرة من أبناء المسلمين ٠

واستطاعت حركات الموصل أن تجمع شمل العرب فى هذه البلاد بصورة لم تحدث من قبل واستحوذت على كل التعاطف الشعبى أمام قوات العباسيين ، يؤكد هذا ساحات المعارك التى كانت أرضها المساجد والأسواق مع ما فيها من تواجد سكانى وبشرى (١٢) مما يؤكد إقبال سكان هذه المناطق على تأييد هذه الحركات والوقوف فى وجه الدولة على أن نفس هذه الأحداث تكررت مع أبو السرايا فى الكوفة (١٣) كما

---

(١٠) نفس المرجع والجزء والصفحة ٠
(١١) ابن الأثير : الكامل ج ٥ ص ٧٥
(١٢) الديوجى : سعيد : تاريخ الموصل ج ١ ص ٦٠ وما بعدها ٠ العراق ١٤٠٢/١٩٨٢

لجأت الحركات فى بغداد عند تحركها للكرخ ، بحثا عن التأييد الشعبى وبعدا عن مناطق التمركز العباسى (١٤) .

وفى صراع الأمين والمأمون انحاز عامة الناس وجموع الشعب للأمين العربى ضد تزايد الوجود والتدخل الفارسى المتمثل فى المأمون وحركته وشهدت بغداد كيف وقفت جموع الناس بزعامة حركات العيارين والشطار والعوام فى وجه زحف قوات طاهر بن الحسين مع كل ما تملكه قوات طاهر من عدد وعدة وكيف صارت أركان بغداد من مساجد وكنـــائس وأنهار ودروب وقصور وأسواق أماكن للمعارك العســكرية الشعبية التى قادتها الجموع الشعبية من طبقة العوام على مختلف أشكالهم ، من طرار وسواط ونطاف ومن المعروف أن هذه الجموع هى الأقدر على خوض المعارك الشعبية (١٥) غير التنظيمية ومن ثم فقد بقوا حتى آخر لحظة فى صــف الأمين وقوات الأمين ، حيث لم يكن أمامهم إلا أنتــاض المدينة وما يسلبونه من قوات طاهر النظامية كمصادر تمويل لحركتهم الشعبية (١٦)

كما مثلت أجزاء المدينة من مبان وحوائط وأبواب صورة من أهم صور الحماية لهذه القوات الشعبية البسيطة ويذكر

---

(١٣) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ ٧ ص ١١٧

(١٤) د/صالح أحمد . بغداد مدينة السلام الجانب الغربى جـ ٢ ص ٢٥ بغداد ١٩٨٥ م .

(١٥) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ ٧ ص ٧١ .

(١٦) نفس المرجع والجزء ص ٥١ .

الطبرى (١٧) صراحة نوعية المقاتلين من هذه الجموع الشعبية فيقول : « وذلت الأجناد وتواكلت عن القتال إلا باعة الطريق والعراة وأهل السجون والأوباش والرعاع والطرارين وأهل السوق وأضاف إليهم الطبرى الهرش والأفارقة » .

وكان للتوجه الشعبى الرافض لبقاء قوات الأتراك الخاصة بالمعتصم أثره فى الانتقال لسامراء (١٨) وترك بغداد خاصة وأن بقاء هذه القوات قد يكلفهم الكثير من جراء محاولات الانتقام والاعتداء عليهم من قبل جموع الناس فى بغداد .

وإذا كان ما سبق من حديث يدور حول ذكر التيار الشعبى المؤيد للخارجين فى صراعهم مع الدولة فإنى أود فى الصفحات التالية أن أتعرض للنقيض وهو الموقف الشعبى المعارض لحركات الخارجين

وأول الأمثلة التى يمكن ضربها توجه الكثير من حركات الخارجين الى أطراف الدولة العباسية تاركين قلب الدولة وأهم الأمصار . ولا يمكن أن يفسر هذا إلا على أنه استشعار من قيادات هذه الحركات بمدى الرفض الشعبى لها فى هذه المناطق وفقدانها لأرضية صالحة وقوية من التعاطف

---

(١٧) نفس المرجع والجزء ص ٥٢ .

(١٨) د/فريال مصطفى : البيت العربى فى العراق فى العصر الاسلامى ص ٦٦ ، ٦٧ بغداد ١٩٨٣ م .

الجماهيرى يمكنها من المعايشة والتحرك وتنفيذ المخططات مع عدم الاضرار بها بالتبليغ أو الاشارة أو المصادمة ٠

على أننا لا نستطيع أن نغفل دور ملوك الأطـــراف فى إيواء هذه الحركات وشمولها بالرعاية والعطف والتمـــويل المادى والعسكرى خاصة وأن ملوك هذه الأطراف لم يقـــدم الكثيرين منهم فروض الطاعة للدولة مثل ملوك أسروشنة(١٩) وفرغانة (٢٠) ولم يحدث هذا إلا فى عصر ولاية المأمون على خراسان عندما استشعر بخطورة هذه الأطراف وإيوائهـــا لحركات الخارجين الفرس بالأخص (٢١) ووصل الأمر لحد الاصطدام العسكرى بين الدولة وملوك هذه الأطراف لإيقاف تأثير هؤلاء فى مجريات الأمور بإيوائهم لزعماء الخـــارجين وتمويلهم (٢٢) ٠

ويلاحظ أيضا أن حركة بابك الخرمى نظرا لتطـــرف أفكارها لم تستطع أن تعايش الوسط الجماهيرى فى الكور والأمصار ، لأنها وجدت كل مقاومة من أهل الامصـــــار

---

(١٩) اسروشنة : مدينة بما وراء النهر بالفتح ثم السكون وضـم الراء وسكون الواو وفتح الشين المعجمة ونون ٠ ياقوت الحمـــوى : معجم البلدان جـ ١ ص ١١٧ ٠

(٢٠) فرغانه : بالفتح ثم السكون وعينه معجمة ف مدينة واســعة فيما وراء النهر ٠ ياقوت الحموى : معجم البلدان جـ ٤ ص ٢٥٣ ٠

(٢١) بارثولد : فاسيلى فلاديمير وفتش : تركستان من الفتح العربى الى الغزو المغولى ص ٣٢٣ ٠ ترجمة صلاح الدين عثمـــان هاشم جـ ١ الكويت ١٤٠١ هـ/١٩٨١ م

(٢٢) نفس المرجع والجزء ص ٣٢٤ ٠

الرئيسية لهذا الفكر الغريب الشاذ ، ومن ثم فقد لجــأت أيضا لهذه الأطراف واستطاعت مع مجموعة أخــــرى من العوامل الجغرافية والمناخية وغيرها البقاء لفترة تربو على العشرين عاما وهى تحارب الدولة العباسية • على أن القائد الوحيد الذى استطاع أن ينتصر على هذه الحركة كان من نفس هذه الأماكن وهو أعلم بطبيعتها (٢٣)

وبالرغم من ظهور فرقة الخوارج فى أرض العراق إبان الصراع مع الامام على (رضى الله عنه) إلا أنها فى مسيرتها نجدها قد تمركزت فى أطراف الجزيرة العربية والشــمال الأفريقى أكثر من أى مكان آخر وهى مناطق تبعد عن أماكن التجمعات الشعبية العامة وحواجز المدن الرئيسية فى دولة الخلافة .•

ويمكننا أن نفهم من ذلك أن الخوارج وان كانوا قــــد وجدوا فى بدايات تواجدهم صورا من التأييد والتعــاطف الشعبى الا أن ما لاقته الشعوب من أبناء هذه الحــــركات وما جرته هذه الحركات عليها من ويلات ـ على ما يبدو ـ الى غير ذلك من أسباب أفقد فرقة الخوارج عوامل التـــــأييد والتعاطف الجماهيرى وحتم عليها اختيار الأماكن الخواء .•

---

(٢٣) الأفشين : او حيدر بن كاوس من اسروشنة •• الخضرى : الشيخ محمد • محاضرات تاريخ الأمم الاسلامية والدولة العباســـية ص ٣٤٧ مصر ١٩٧٠• م •

ونظرا لشراسة الخوارج فى القتال فقد استأثروا بجند الدولة العباسية فى الشمال الأفريقى بعد احجام المشاركة الشعبية بدليل أن أكبر حركات الخوارج حدثت عندما خلت افريقية من الجند وذلك عندما توجه عمر بن حفص لبناء مدينة طبنة بأمر المنصور (٢٤) حيث انتفضت أفريقية فقتـــل حبيب بن حبيب المهلبى والى القيروان على يد أبى حـــاتم الأباضى واتجـــه الوليد بن طريف الشارى الخارجى الى أرمينية (٢٥) بعد فتكه بابراهيم بن خازم بن خزيمـــة بنصيبين (٢٦) من بلاد الجزيرة (٢٧) • ونظرا لغيـــاب العنصر الشعبى وعوام الناس فقد تمكن الخوارج من فـرض الحصار على عمر بن حفص فى القيروان حتى اضطر للخروج وقتال الخوارج فى قوة غير متكافئة وقتل على أيديهم (٢٨)•

ومن أوضح الصور التى سجلها التاريخ والتى تمثـــل عدم المشاركة الشعبية بل والإحجام التام والبعد الكامل عن

---

(٢٤) ابن الأثير : الكامل جـ ٥ ص ٢١ •

(٢٥) ارمينية : بكسر أوله ويفتح ، وسكون ثانية وكسر الميم وياء ساكنة وكسر النون وياء خفيفة مفتوحة •
اسم لصقع عظيم واسع فى جهة الشمال وقيل انها ارمينيتان الكبرى والصغرى وقيل ثلاث وقيل اربع ياقوت الحموى : معجم البـــلدان جـ ١ ص ١٦٠ •

(٢٦) نصيبين : بالفتح ثم الكسر • مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل الى الشام • اختلف فيمن فتحهـــا من المسلمين والأصح عياض بن غنم عام ١٧ هـ عندما فتح الجزيرة • ياقوت الحموى : معجم البلدان جـ ٥ ص ٢٨٨ •

(٢٧) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ ٦ ص ٤٦١

(٢٨) المرجع السابق والجزء ٣٢ •

تيار الخروج ما حدث إبان ثورة السودان من أهل المدينة بالرغم من مقدمات الثورة التى يفهم منها مدى الظلم الفاحش الذى مارسه جند الخلافة العباسية على الأهالى وعامة الناس من صناع وتجار وأرباب حرف على مختلف صورهم واشكالهم ، حيث امتنع هؤلاء الجنود عن دفع قيمة مشترياتهم بعد الحصول عليها من التجار بل واعتدوا على من يطالب بحقه مما كان سببا فى تفجير هذه الثورة بالمدينة، إلا أن الظروف العامة المحيطة قصبت أظافر المشاركة الشعبية وأخمدتها والتى كان من أهمها الممارسات السيئة التى عامل بها المنصور أهل المدينة بعد ثورة النفس الزكية ، سواء كانت هذه الممارسات اقتصادية أو سياسية أو اجتماعية ، ما يعنينا أن أهل المدينة تعلموا الدرس واستوعبوه ولم يكونوا قد أفاقوا منه بعد فكيف يقدموا على مثل هذه المشاركة فى ذلك التوقيت السيء بالذات ، فعملوا على أن يقفوا موقفا حازما من هذه الحركة بل وعملوا على مقاومتها بأنفسهم اذا لزم الأمر ، حتى ان أحد زعماء المدينة (٢٩) أبى فك حديده بعد إخراج السودان له من السجن وعندما عرض الإمامة رفضها حتى لا يفهم من إمامته للصلاة قيادته للحركة ومسئوليته عنها ، ولذلك نراه يعلن فى خطبته براءته من هذه الحركة وعدم مسئوليته عنها بل ودعا لطاعة المنصور وإقرار بيعته وحذر من الفتنة (٣٠) ومما قاله فى خطبته (٣١) : « أنشدكم الله

---

(٢٩) اسمه ابا بكر بن ابى سبرة وكان فى السجن عقابا له على مشاركته فى ثورة النفس الزكية اثناء ثورة السودان . ابن الأثير : الكامل جـ ٥ ص ١٣ .

(٣٠) البلاذرى : انساب الأشراف جـ ٣ ص ١٢٠

(٣١) ابن الأثير : الكامل جـ ٥ ص ١٣ .

وهذه البلية التى وقعت فوالله ان ثبتت علينا عند أمير المؤمنين بعد الفعلة الأولى انه لهلاك البلد وأهله ، وأعتقد أن هذه العبارات على الرغم من قلتها الا أنها فلسفة الأمر كله وتختصر الكثير من الاحداث والمواقف التى تبين بوضوح كيف تدهورت طبيعة أهل المدينة بالنسبة لقضية مشاركه الخارجين وخلق رأى عام شعبى يؤازرهم وينتفض لهم ويضحى معهم ليكونا فى النهاية أصحاب مصير واحد اشتركا فى الدم ويرغبا فى الثأر .

وفى بحثى عن فكرة تدرج أو تدهور العلاقة العامة والتوجه الشعبى بين شعب المدينة وحركات الخارجين تقابلنا ثورة الحسين صاحب فخ والتى شهدت هى الأخرى موقفا شعبيا يستحق أن يذكر ، إذ انه يسجل عليه أنه امتنع تماما عن المشاركة ، ليس هذا فحسب بل انه قاوم هذه الحركة قدر استطاعته وحاول إيقاف مسيرتها وها هو الطبرى يسجل مدى الإحجام الشعبى عن المشاركة والرفض الشعبى لها ونستطيع أن نرجع للنصوص لنبين منها هذه المواقف .

ففى أول ظهور الحركة يذكر الطبرى (٣٢) : « أن أتباع الحسين استطاعوا أن يقتحموا مسجد المدينة ويؤذنوا للصبح بعد أن جلس الحسين على منبر المدينة وقد اكتسى بعمامة بيضاء وجعل الناس يأتون المسجد فإذا رأوهم رجعوا ولا يصلون » .

---

(٣٢) تاريخ الأمم والملوك ج ٦ ص ٤١١ .

ويبدو فى حديث الطبرى الإحجام وعدم المشاركة حتى أن الناس امتنعت عن أداء صلاة الجماعة فى المسجد نظرا لتواجد الحركة وقيادتها فيه ٠

ويقول فى موضع آخر (٣٣) : « فلما خرجوا من المدينة عاد المؤذنون فأذنوا وعاد الناس الى المسجد » ٠

وهذا النص يبين كيف فقد المسجد فى ظل هذه الحركة دوره الدينى بين جموع الشعب ولا اريد أن أقول أن حركة الحسين كانت مهملة للمنظور الدينى بين أبناء الحركة أو بين جموع المسلمين ولكنى أريد أن أقول أن هذا النص ذو دلالة كبيرة فى التأكيد على مدى الإحجام الشعبى عن المشاركة فى الحركة والبعد المطلق عنها حتى فى الأمور التى تبدو المشاركة فيها من الأمور البدهية والطبيعية ولا يمكن أن تقيم أمنيا (خاصة فى تلك العصور) على أنها نوع من المشاركة السياسية أو الفكرية مع الحركة ولا يخفى أنى اقصد بالطبع الأذان والصلاة وغيرهما من شعائر العبادة فى مسجد المدينة ٠

ويقول الطبرى (٣٤) فى موضع آخر شارحا موقف الإحجام الشعبى فى بداية هذه الحركة « وتفرق الناس وقد أغلق أهل المدينة عليهم أبوابهم » فما كان من هذه الجموع

---

(٣٣) نفس المرجع والجزء ص ٤١٣ ٠

(٣٤) نفس المرجع والجزء ص ٤١٢ ٠

إلا أن رفضت المشاركة وتركت الحسين وأصحابه فى المسجد ومن ثم فقد أبدت هذه الجماهير سعادتها البالغة يوم أن قرر الحسين وأصحابه التوجه لمكة تاركين المدينة فقاموا بتنظيف المسجد مما فيه وجعلوا يدعون عليهم .

ويذكر أن حسينا لما انتهى الى السوق متوجها الى مكة التفت لأهل المدينة وقال : « لا خلف الله عليكم بخير . فقال الناس وأهل السوق) « لا بل أنت لا خلف الله عليك بخير ولا ردك » (٣٥) . وهى كلمات إن دلت فإنما تدل على مدى كره أهل المدينة لهذه الحركة والقائمين عليها ومدى رفضهم لها حتى انهم تمنوا هلاك أصحابها وعدم عودتهم مرة أخرى ولا يغيب عن النظر تركيز الطبرى فى روايته على لفظتى الناس وأهل السوق فى خطاب الحسين مع جماهير المدينة وهما كلمتان لهما أهميتهما عندما يصدران من مؤرخ كالطبرى حيث تؤكد هاتان الكلمتان أن مفهوم ذلك البحث الدائر عن مواقف الشعوب إزاء مختلف حركات الخارجين وتنوع أو تباين هذه المواقف تبعا لتباين الظروف والأحداث السابقة والحالية بما تحويه من خلفيات اجتماعية واقتصادية وسياسية .

ولا أريد أن أترك موضوع المعارضة الشعبية إبان ثورة الحسين صاحب فخ ومدى الإحجام عنها دون التعرض لقضية

---

(٣٥) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ ٦ ص ٤١٣ .

هامة وخطيرة اغفلها المطقون والكتاب على الرغم من اهتمام
المصادر القديمة بها وذكرهم إياها ألا وهى ما فعله الحسين
لتعويض نقص بل انعدام المعونة الشعبية والتأييد
الجماهيرى لثورته بإعلانه عن تحرير العبيد ، معلنا أن أى
عبد يأتيهم بغرض المشاركة فى الثورة فهو حر (٣٦) وهى
حيلة غريبة وجديدة ولكنها غير شرعية ، والأهم من ذلك كله
هو أنها أتت بنتائج عكسية عليه وعلى ثورته إذ أهاج هذا
التصرف ملاك العبيد واعتبروا هذا التصرف بمثابة إسقاط
مال حافظ عليه الاسلام وأمن حرمته مما أثار هؤلاء الملاك
فكانوا عونا للدولة وحجر عثرة فى طريق الثورة مما عجل
بنهايتها

---

(٣٦) نفس المرجع والجزء والصفحة ٠

المحـــور الاجتماعى :

من بين المحاور التى يمكن أن نتطلع منهـــا على مواقف الشعوب وتباين انتماءاتهم وتبعيتهم فى الصراع الحاد بين قوتى الخارجين والدولة • المحور الأجتماعى

وإن كنت أستشعر أن هذا المحور يرتبط كثيرا بالمحور العقائدى ، ذلك لأن الإيمان بعقيدة معينة لابد وأن يتبعـــه الالتزام بالمضمون العام لأسس فكر وأيدلوجية الفـــرقة من جميع جوانبها ، ومن بين هذه الجـــوانب الجـــانب الاجتماعى •

وأول هذه الجوانب الاجتماعية أمور الزواج والطـــلاق وخلافه ، فقد شهد هذا العصر صورة جديدة وغريبـــــة على المجتمع الاسلامى ، حيث بدأت التبعيات الفكرية تلعب دورها فى أمر المناكحات سواء ما هو موجود منها بالفعـــــل أو ما يستحدث منها لقيام أسر جديدة ، وهذا معناه أن المجتمـــع العباسى فى ظل هذا الصراع الذى احتدم بين الخـــارجين والدولة لم يكتف بأن يأخذ الصراع شكله التقليـــــدى فى المجابهات العسكرية والانتماءات الفكرية ولكنه طور هـــذا الصراع ليأخذ بعدا اجتماعيا جديدا •

فبدأ يسأل عن حكم ارتباط بناتهم بأبناء هذه التيارات

وهل يجيز الاسلام لهم أن يربطوا بناتهم بعلاقات الزواج من أبناء هذه التيارات ولجأوا للفتوى الدينية لحل هذه المشكلة وكان رأى الامام مالك قاطعا عندما سئل عن حكم تزويج القدرى بقوله :

« ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم » (١)

وهذا معناه أن الفقه السنى رفض عملية القران الفكرى وأصر على وضوح الرؤية للأجيال المتعاقبة ٠

على أن فهم باقى الفرق لفتوى الإمام مالك هـذه كان مختلفا حيث اعتبروا موقف الفقه السنى هـذا نوع من الاستئثار لاستبقاء التبعية والغلبة الاجتماعية له ومن ثم فقد كان رد فعل بعض هذه الفرق حادا ومتطرفا فقد رفض فقه الخوارج مناكحات المجتمع العباسى واعتبروا أن إقامة أى علاقة جديدة للزواج مع المجتمع بل وبقاء أى علاقة قديمة فى ظل فكر الخوارج لابد وأن تقوم على إساس البراءة من الإمامين عثمان وعلى رضى الله عنهما (٢)

ليس هذا فحسب بل ان مجتمع الخوارج رفض إقامة أى نوع من أنواع العلاقة مع المجتمع العباسى .

---

(١) الأصفهانى : الحافظ ابو نعيم أحمد بن عبد الله ت ٤٣٠ هـ ٠ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء جـ ٦ ص ٣٢٦ ـ بيروت ٠

(٢) الشهرستانى : ابو الفتح محمد بن عبد الكريم ت ٥٤٨ هـ ٠ الملل والنحل جـ ١ ص ١١٥ تحقيق عبد العزيز محمد الوكيل ٠ الحلبى بمصر ٠

فقد رفض طعام ذلك المجتمع والتوارث معه واعتبر أرضه أرض كفر .

بل وطالب المجتمع الاسلامى كله بالاستتابة من فكره قبل أن يقيم أى نوع من أنواع العلاقة بأبناء هذه التيارات .

وبالمثل فإن الموقف الشعبى من فكر الخوارج كان قاسيا ولم يقف مكتوف الأيدى أمام هذه الأفكار التى يمكن أن تحيل الحياة الاجتماعية فى ظل المجتمع الاسلامى لنوع فريد من الصراع الاجتماعى ومن ثم نقد رفض المجتمع مناكحات الخوارج وتتبع زيجات بناته وأولاده وأبطل ما تم منها أو ما ثبت فيها تمذهب أى من طرفى الزواج بهذا المذهب وفى هذا تحركت القبائل العربية وصولا للرشيد ليأمر بطلاق احدى بناتهم وقد ارتبطت بمن يحمل فكر الخوارج (٣) وقد كان .

وتأثرت الحياة الاجتماعية فى بغداد إبان محنة القول بخلق القرآن أيما تأثر ووقف قضاة الدولة من هذه القضية موقفا غريبا ، حيث عمدوا الى الحكم بالطلاق والتفرقة بين كل زوجين لا يحمل أحدهما فكر القول بخلق القرآن بناء على أوامر الدولة (٤) .

---

(٣) عمر فروخ : تاريخ الأدب العربى . الأعصر العباسية . الأدب المحدث الى آخر القرن الرابع الهجرى (١٣٢ - ٣٩٩) هـ ط/٤ بيروت ص ١٨٢ .

(٤) ترجمة الامام احمد بن حنبل : نقلا عن تاريخ الاسلام للذهبى ص ٥١ .

وأقبل المجتمع العباسى على التعليم والأخذ من المناهل الصافية لبيوت أئمة الفرق حتى من النساء منهم •

فقد كانت السيدة نفيسة (٥) صالحة ورعة تقية تحفظ القرآن عالمة بالتفسير وبعض الحديث وتلقى عنها الجميع ، ومن أهم من تلقى عنها الامام الشافعى نفسه •

على أن المرأة فى المجتمع الشيعى نراها قد شاركت فى كل الأحداث التى لاحقت الشيعة ولم تقف مكتوفة الأيدى •

فقد كن يسمعن شعر السيد الحميرى فى شعراء الشيعة دون خلف حجاب وكان يسمع صوتهن ونحيبهن (٦) حتى التحركات العسكرية شاركت فيها المرأة من البيت الشيعى حيث خرجت أخت الحسين صاحب فخ معه وصيرت عند زينب بنت سليمان لما قتل (٧) •

كما خرجتا ابنة محمد النفس الزكية ، وأخته لعيسى بن

---

(٥) نفيسة بنت الحسن بن زيد العلوى صاحبة المشهد المعروف بمصر تزوجت من اسحاق المؤتمن بن جعفر الصادق ماتت بالقاهرة ٢٠٨ هـ • الزركلى : خير الدين : الاعلام وقاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين جـ ٩ ص ١٦ ـ ط/٣ بيروت •

(٦) د : شوقى ضيف : تاريخ الأدب العربى ص ٣١٤ •

(٧) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ ٦ ص ٤١٢ •

موسى بعد مقتل محمد يطالبان بجثته حتى يأذن لهمـــــا فى دفنـــــه (٨) ٠.

أما فى مجتمع الزنادقة فقد عمل ذلك المجتمع ـ بنـــاء على أفكاره ـ على تقعيد دور المرأة الاجتماعى والأسرى بصورة تتمشى وطبيعة الأفكار التى تنادى بها فرقة الزنادقة ٠ ورأينا أن المرأة فى المجتمع الزندقى تقبل نداء الحـــركة وتلبى طلباته فسايرت الدور المرسوم لها بكل قيمه وأفكاره الهابطة والذى جعلها مباحة لكل يد كالماء والهواء بلا أى ضـــوابط فحملت المرأة من والدها وعاشرته معـــاشرة الأزواج (٩) وتغلغلت المرأة فى المجتمع الزندقى فى كل جلساته لتشـيع جوا من المتعة والاســـتماع (١٠) ٠

أما فى مجتمع الخوارج فقد لبت المرأة نداء الفرقة متمثلة بكل قيمها وأفكارها حتى فى ضروب الشجاعة والإقدام فقـد حملت السلاح منذ صغرها وتعلمت فنون القتال ومن ثم فقد كانت لها مواقفها العسكرية مثل الجحيعاء امرأة أبى حمـزة الخارجى (١١) والفارغة بنت طريف أخت الوليـــد بن طريف الخـــارجى ٠

---

(٨) ابن الأثيـــر : جـ ٥ ص ١١ ٠
(٩) الطبـــرى : جـ ٦ ص ٤٣٤ ٠
(١٠) الأطرقجى : د/رمزية : الحياة الاجتماعية فى بغـــداد منذ نشأتها حتى نهاية العصر العباسى الأول ص ٢٣٨ ط/١
(١١) معروف : د/نايف محمود : ديوان الخوارج ص ٣٧ ط/١ بيروت ١٩٨٣ م ٠٠

وانتصرت المرأة في سبيل الفرقة وفكر الفرقة حتى على طبيعتها وأنوثتها فامتنعن عن معاشرة الأزواج وكرهن البقاء تحت أفخاذ الرجـــال في الوقت الذى تحتاج فيه الفـرقة للكثير من الأبنـــاء (١٢) ·

ويذكر في هذا زوجة بن ملجم (قاتل الامام على رضى الله عنه) التى اشترطت عليه أن يكون مهرها قتل الامام على وبعد معاشرتها لفترة ذكرته بوعده لها قائلة له : « لشد ما أحببت أهلك » (١٣) ·

ولما كان فكر الشيعة الاجتماعى والسياسى يقوم على التبعية لأحد أفرع قريش بل مختصا بأبناء بنت معينـــة ألا وهى الســـيدة فاطمة ·

كما كان فكر أهل الحديث يدعو لسيادة طبقة قريش على باقى القبائل العربية ومن ثم تصير لهم الريادة والســـيادة السياسية والاجتماعيـــة ·

فقد كان فكر الخوارج بلا شك يعد طفرة جديدة وتطورا خطيرا فى الفكر الاجتماعى والسياسى للفرق يوم أن نادوا

---

(١٢) معروف : د/نايف محمود : ديوان الخوارج ص ٢٧ ط/١بيروت ١٩٨٣ م
(١٣) الشهرستانى : الملل والنحل جـ ١ ص ١٢١ ·

باهمال فكرة قرشية الامام ، ولا يخفى أن الدعوة لمثل هذه الفكرة فى المجتمع الاسلامى لابد أن تجد آذانا صاغية وعقولا متفتحة حارت فى فهم وهضم فكرة قرشية الامام والتعرف على فلسفتها من وجهة النظر الاسلامية (١٤) ٠

---

(١٤) يرجع لمقدمة ابن خلدون لتفسير الحكمة الاجتماعية من قرشية الامام فى تلك الفترة ٠

المحور المكانى أو الجغرافى :

من بين المحاور التى يمكن أن نرقب منها أو من خلالها مواقف الشعوب تجاه صراع الخارجين والدولة المحور المكانى أو الجغرافى ٠

وأقصد بهذا ذلك الارتباط وهذه التبعية التى صارت تربط كل تيار من تيارات الخروج بمكان معين أو قطر معين بحيث صار ذكر هذا التيار لا يتم الا وقد ارتبط به ذلك المكان الذى اصبح جزءا منه لا ينفك عنه كما أصبح ذلك المكان لا يذكر الا وتبع ذلك الاشارة لتبعيته لفرقة معينة او تيار معين وأصبح الارتباط بين المكان والتيار أو الفرقة وثيقا يشبه ارتباط الأرحام ٠

وحقيقة فإن تبعية المكان وساكنيه لفرقة معينة تبدأ بظهور هذه الفرقة واحتضان المكان وأهله لأبنائها الذين هم غالبا أبناء ذلك المكان ومن ثم يتشرب المجتمع فى تلك البقعة هذه الأفكار وتصير جزءا من مكونات حياتيه الأيدلوجية ٠

ثم يحدث أن تصطدم تلك الفرقة بالدولة بصورة أو بأخرى أو حتى بغيرها من الفرق وهنا تحدث عملية التفاعل والمشاركة وتنصهر المشاعر والأحاسيس بين المكان والفرقة ، إذ يشارك أهل المكان فى تلك الأحداث فيصابوا

بالأذى وقد يتعرضوا للاضطهاد السياسى والاقتصادى، ويتكون فى النهاية ما يصح أن نطلق عليه مشاركة المصدر الواحد بين ذلك المكان وتلك الفرقة مما يكون له أثره فى خلق روابط الدم والثأر التى لا تنفك أبدا .

وبداية تصادفنا مقولة القادة العباسيين للدعاة الذين وجهوهم للأمصار ، حيث ذكروا لهم أن « البصرة وسوادها قد غلب عليها عثمان وصنائع عثمان فليس بها من الشيعة العباسية الا النذر واليسير ، أما الكوفة وسوادها فقد غلب عليها « على » وشيعته وليس بها من شيعتها الا القليل .

وأما الشام فشيعة بنى مروان وآل أبى سفيان ، أما الجزيرة فحرورية شارية مارقة ولكن عليكم بهذا المشرق » (١) .

وحقيقة فإنها كلمات قليلة الا أنها تعد منهاجا وفلسفة للجغرافيا السياسية وتاريخ الحركات وارتباطاتها القطرية أو المكانية .

وفى رأيى أن ثورة يكون قوادها على هذا الفكر والعقلية السياسية لابد وأن تكلل بالنجاح ، لأنها سوف تلقى بذورا

---

(١) ابن قتيبة : أبو محمد عبد الله بن مسلم ت ٢٧٦ هـ : عيون الأخبار جـ ١ ص ٢٠٤ القاهرة ١٩٢٥ م .

في أرض صالحة ومن ثم فإن هذه البذور لابد وأن تثمر ٠

واذا اخذنا الشيعة كمثال سنجد أن التشيع ارتبط مكانيا وجغرافيا بأماكن معينة ، فالكوفة مهد التشيع ولا خلاف (٢) في حبها لآل البيت ٠ ومن ثم فإنها أفرزت مجتمعا متشيعا قلبا وقالبا ٠

وأعتقد أن ما يقال عن المجتمع الكوفي يمكن أن يقال عن مجتمع البصرة وان كانت البصرة قد اتهمت بالميل للأمويين ، الا أن الواقع يكذب هذه الدعوى بل يؤكد فكرة تشيع المجتمع البصرى وإلا ما أشار شيخ أهل الشام على المنصور بشحن البصرة بالجند عندما سمع بخبر خروج محمد النفس الزكية بالمدينة فهو يعلم أن المجتمع المدنى وإن كان من الممكن أن يحتضن ثورة شيعية إلا أن الامتدادالطبيعي والتواجد الحقيقي تبعا للتبعية المكانية والتوزيع الجغرافي والسياسي يكمن في البصرة ٠

وحقيقة فإن زعامات الشيعة الواعية كانت على دراية بهذا التوزيع ويبدو هذا في كلام جعفر الصادق وهو يرد على عبد الله بن الحسن عندما أخبره بأن هناك رسالة من شيعتهم في خراسان تدعوهم للخروج وتضمن لهم النصرة حيث قال له جعفر الصادق : « ومتى صار أهل خراسان شيعتك » (٣)

---

(٢) البلاذري : انساب واشراف جـ ٣ ص ٨٧ ٠

(٣) ابن طباطبا : محمد بن على المعروف بابن الطقطقى : الفخرى

وهى كلمات تعد وبصدق منهاجا يوضح مدى الارتباط بين حركات الخارجين والأرضية الجغرافية للأتبـــاع أو التوزيع السكانى لهم إذا صح التعبير .

فقد كان جعفر الصادق يعلم أين هى الأرضيةالجغرافية التى يمكن للشيعة أن يكون لها تواجد بشرى وشعبى فيها .

ومن ثم فإن خراســـان لم تكن أبدا فى يوم من الأيام أرضية مكانية للتجمعات الشيعية وتكون أى رســـالة أو أى دعوة من هذه الأرض للثورة . والخروج مع الوعد بالنصر من قبيل الأباطيل والخيالات أو الحيل والمؤامرات . خاصة إذا عرفنا أن جعفر الصادق أتته رســـالة مثل التى وصلت عبد الله بن الحسن فيها نفس المضمون فما كان منه إلا أن أحرقها أمام الرسول التى أتى بها .

على أننا يمكننا أن نلاحظ بعض التصرفات الأخـــرى من بعض القيادات الشيعية والتى تتسم بعدم الفهم لطبيعة العلاقة بين التقسيم الجغرافى للمجتمع والولاء الســـياسى للفرق ويبدو هذا واضحا فى تصرف محمد النفس الزكيـــة قبل القيام بثورته فى المدينة ، حيث أرسل ابنه عليا لمصر

فى الآداب السلطانية ص ١٢٣ الحلبى . مصر . والقصة باختصار أن أبا سلمة الخلال كان على وشك تحويل توجه الثورة من العباسيين للشيعة بأن راسل قيادات الشيعة بالتتابع طامعا فى أن يأتى منهـــــم من يأتى لتولى زمام الثورة قبل اعلان اسقاط الدولة الأموية وتحويل الأمر نهائيا للعباســـيين .

للدعوة الى الثورة وتهيئة الجو العام فيها والسـؤال الذى يمكن أن يطرح ، هو هل كان للشيعة فى مصر فى تلك الفترة تواجد شعبى يمكن أن تستند عليه هذه الدعوة ؟ والواضح أن شيئا من هذا لم يكن بدليل أن عليا ما لبث أن قبض عليه وأرسل للمنصور مما يؤكد ن دعوى إرسال « على » لمصر كان تصرفا عشوائيا اكثر منه تصرفا مدروسا معروف العواقب والنتائج · وكذلك كان توجه الشيعة للمعايشة فى منطقـة السند وإن كان قد تم فى ظل معاهدة مع ملك السند (٤) إلا أنه كان تصرفا خاطئا وينبىء عن عدم فهم لأماكن التجمعات الشيعية الحقيقية وارتباطاتها المكانية · .

ولا يخف أن المعاهدة نمت أخبارها للمنصور وملـوك الأطراف المجاورة مما كان سببا فى القضاء على التجمـع الشيعى هناك وعلى ملك السند نفسه ·

ولا يشفع لزعامات حركات الشيعة فى تلك الفتـرة الاحتجاج بأن زعيمى الشيعة محمد وابراهيم ابنى عبد الله ابن الحسن قد نزلا من بين ما نزلا أرض السند إبان فترة المطاردات العباسية لهم ومحـاولات التخفى من قبلهم (٥) وكما قدمت فإن تعرف القيادات العاقلة الزكية لخطورة هذه النقطة دعاها لأن تحاول خلق ارتباطات جوهرية بين الفرقة والقوى الاقليمية ذات التأثير الهام والمؤثر فى الأحـداث السـياسية ·

---

(٤) ابن الأثير : الكامل جـ ٥ ص ٣١ ·
(٥) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ ٦ ص ٣٤١ ·

من ذلك ما حدث من الامام على بن موسى الرضا حيث أكد ارتباط خراسان وبلاد فارس بالشيعة بقصة زواج الحسن والحسين ابنى الامام على ببنتين من بنات يزدجرد بن شهريار ملك الأعاجم (٦) ٠

والحقيقة أن الدولة هى الأخرى كانت على علم كامل ومتتبعة لكل صور التبعية والولاء التى تربط الاقاليم الجغرافية ببعض تيارات الخروج فى الدولة ٠ ومن ثم فنحن نرى المنصور يجثم على صدر الكوفة عندما يعلم بموعد اقتراب خروج ابراهيم بن عبد الله بن الحسن للثورة (٧) ٠

وهذا يؤكد معرفة الدولة بتوزيع الولاء الجغرافى مما دعا المنصور لأن يمسك بخطوط الإمداد الجغرافية التى يمكن أن تكون شريان تغذية رئيسى للثورة ، فليس من المعقول أن تسمع التجمعات الشعبية الشيعية فى الكوفة بثورة ابراهيم ولا تبادر بالتحرك لإمدادها والانخراط فى سلكها وتحركاتها ٠

ليس هذا فحسب بل ان الدولة كانت أكثر مكرا ودهاء عندما فكرت فى أن ترسل جندا لمحاربة حركة ابراهيم بن عبد الله بن الحسن من أهل الشام ، إذ لا يخفى أنهم سيكونون أكثر عنفا فى حربهم للشيعة لأنهم من قديم أعداء لهم (٨) ٠

---

(٦) البلاذرى : انساب الاشراف جـ ٢ ص ١٠٢ ، ١٠٣

(٧) البلاذرى : نفس المرجع والجزء ص ٨٧ ٠

(٨) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ ٦ ص ٢٤٧ ٠

كذلك اتبعت الدولة مع الخوارج نفس الفكر حيث فكرت فى أن ترسل جندا يحاربهم من أهل الشام لنفس الأسباب السابقة ٠

وتبعاً لنظرية تبعية المكان وولاء التجمعات والشعوب فإن الدولة لم تكن تقبل من خراسان والخراسانبيين إلا الولاء المطلق الذى لا يشوبه اى نقصان ومن ثم نستطيع أن نفهم لماذا يحكم « قحطبة بن شبيب الطائى » بقتل الخراسانيين الذين فروا من أمام قوات الدولة العباسية إبان قيام الدولة تخوفا من صورة المستقبل على يد العباسيين ٠ فى الوقت الذى عفا فيه « شبيب » عن الشاميين وغيرهم (٩) ، إنها بالطبع قضية التبعية الجغرافية والولاء السكانى فلا يمكن أن تقبل الدولة العباسية أى خطة تقسيم جديدة لولاء المناطق والتجمعات السكانية تخسر فيها الدولة بعضا من الأراضى المعروفة بالتبعية السكانية لها ٠

(٩) ابن قتيبة : أبو محمد عبد الله بن مسلم ت ٢٧٦ المعارف ص ٣٧٠ تحقيق ثروت عكاشة دار المعارف ج ١ ص ٤ ٠

ثانيا : الأسباب التى أدت لتبنى الشعوب لهذه المواقف :

١ ـ الخلفات الاجتماعية للصراع ·

٢ ـ المعاناة الاقتصـــادية ·

(أ) سياسة التجويع ·

(ب) المكوس والإتاوات ·

(جـ) الحرب الاقتصادية ·

١ - المخلفات الاجتماعية للصراع :

لا يخفى ان ظهور الخارجين فى جسم الدولة واصطدامهم بها وما ترتب على ذلك من محاولات الدولة للقضاء عليهم واستئصالهم استشعارا بخطورتهم الكامنة فى إمكانية تهديد كيان الدوله واستقرارها ثم إمكانية سقوطها ، لا يخفى ان هذا لابد وان ينتج مجموعة لا بأس بها من المخلفات الاجتماعية التى يمكن ان تملأ كل المجتمعات وأن تنساب بين مختلف الشعوب بحيث تصير هذه المخلفات عبرة وشاهد عيان لكل ذى نظر لما تنتجه تلك الحروب وهذه الصراعات وما تفرزه داخل طبقات المجتمع سواء رضى الناس بهذا أم أبوا ٠

وإذا كان قرار الفرد او القبيلة أو المجتمع لابد وأن تحكمه عدة عوامل على رأسها مجموعة المعايشات الحياتية اليومية وهى مملوءة بمخلفات وأشلاء صراع الخارجين مع الدولة ٠

فلابد وأن يتأثر هذا القرار برؤية هذه المخلفات مما يكون سببا فى الإحجام عن المشاركة أو التخوف منها ٠

ونستطيع أن نلقى الضوء سريعا على أهم هذه المخلفات الاجتماعية التى ملأت ذلك العصر وكان من أهمها : آلاف القتلى الذين سقطوا كضحايا طبيعيين لمثل هذه الصراعات العسكرية التى تقع بين الدولة والخارجين :

على أن ضحايا هذه الصراعات شـــملت جند الدولة والخارجين بل الأهم من ذلك تلك القيادات العسكرية الفذة التى سقطت كضحايا لهذه الصراعات ٠

والراجع للطبرى سيثيره عدد القتلى من الجنـــود والقواد ، فكم سقط من قواد الدولة إبان الصراع مع الشيعة والزط والمقنع وبابك الخرمى والخوارج - خاصة فى الشمال الأفريقى - وغير هؤلاء كثير ٠

وعلى الجانب الآخر فقد فقد الخارجون ايضا أعـــدادا لا بأس بها من الاتباع والكثير من القيادات العسكرية التى كانت فى أمس الحاجه إليها وهى فى صراعها مع الدولة ، ومع التسليم بأهمية ما سبق إلا ان المنظور الاجتماعى الذى نحن بصدده الآن يعنيه أكثر ويهتم أكثر بالكيانات الأسرية التى تفقد عائلها وتصير بلا عائل فى دوامة الحياة ومن ثم تكون مطمعا لكل طامع وراغب وعليهم ان يهيموا على وجوههم بحثا عن المورد المادى او الأمان النفسى الذى فقدوه بغيـــاب عائلهم ورجلهم ٠

ونظرة لأحداث الموصل نعرف منها ما خلفته هذه الأحداث على الساحة الاجتماعية إبان صراع الموصل مع الدولة العباسية الوليدة من أسر لاقت القتل والتشريد بعد حزن طويل على قتلاها ولاقت فى النهاية نفس المصير (١) ٠

---

(١) الديوجى : تاريخ الموصل جـ ١ ص ٥٩ ٠

وعاشت بلاد الشمال الأفريقى أسـوأ أيامها إبان فتن الخوارج فيها ومحاولات الدولة للقضاء عليهم خاصة وأن كلا الطرفين قد تفنن فى أساليب الحصار والاضطهاد العسكرى وكانت النتيجة أن دفعت جموع الناس فى هذه البلاد الثمن الباهظ من دماء أبنائها فى سبيل هذه الحروب (٢) .

ولا يمكننا ان نغفل تاثر النشء من أبناء الخـارجين بظروف أسرته وانتمائهم الفكرى خاصة وأن ظروف الأسرة - نظرا لهذا الانتماء - ظروف صعبة وقاسية فالأسرة تنتقل من أقصى البلاد لأقصاها إما بحثا عن مهرب (٣) ، أو تنفيـذا لأوامر الدولة بالتنقل (٤) ومن ثم فقد حفظ الأطفـال أدق الأحداث التى تمت إبان هذه الاصطدامات العسكرية ومدى تأثرهم هم وأسرهم بها بل ورووا أهم أحداث المدينة حتى محاولات الناس لصبغ الملابس بالسواد إظهارا لانتمائهـم العباسى تخوفا من جيوش الدولة وإبعادا لتهمة الانتمـاء لصفوف الخارجين (٥) عند خروج النفس الزكية .

وعاش النشأ فى بيوت الشيعة يجهل نسبه حتى يبلغ مبلغ الرجال تخوفا من الإدلاء على والديه وأسرته أثنـاء تحركه وإعدامه دون أن يعلم فى الوقت الذى تقـوم فيه كل

(٢) ابن كثير : عماد الدين أبو الفداء الدمشقى ت ٧٧٤ هـ . البداية والنهاية جـ ١٠ ص ١١٣ ط/١ بيروت ١٩٣٢ م .
(٣) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ ٧ ص ٦٨ .
(٤) نفس المرجع جـ ٦ ص ٤٤٥ .
(٥) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ ٦ ص ٢٤٨ .

تحركات الأسر الشيعية على السرية تخوفا من بطش الدولة (٦)

وانتقل الطفل البرمكى من أفخم درجات العز لأحقر صنوف المذلة والهوان فى أيام معدودة دون أن يعلم لماذا كانت هذه النقلة الخطيرة فى حياته ·

وبعد أن كان يلاعب أبناء الأمراء من البيت العباسى أصبح يلاعب أبناء العوام فى حوارى بغداد وغيرها وقد ارتدى الملابس الرثة على أجساد لم يخب منها بعد بياض وإشراق النعيم (٧) ·

وعلى العموم فإن الحياة فى ظل هذه الظروف القلقة والغير مستقرة لا يمكن أن تنبت فى النهاية إنسانا سويا · وفى الموصل ونظرا لانتشار القتل فى صفوف أبناء الخارجين رأينا سيدات الأشراف من البيوتات العربية يرتبطن بالموالى وكذا بناتهن بحثا عن الأمان الذى فقد وطلبا للاستقرار (٨) ·

وتعرضت أسر قيادات الخارجين لنوعية خاصة من

---

(٦) الآبى :: ابو سعد منصور بن الحسين ت ٤٢١ هـ · نثر الدر ج ١ ص ٢٦٠ تحقيق محمد على قرنه الهيئة المصرية ١٩٨٠ م ·

(٧) الجهشيارى : أبو عبد الله محمد بن عبدوس ت ٣٣١ هـ · الوزراء والكتاب ص ٢٤١ تحقيق مصطفى السقا وآخرون ط/٢ الحلبى مصر — ١٩٨٠ م ·

(٨) الديوجى : تاريخ الموصل جـ ١ ص ٦١.

المعاملة ليس على يد الدولة فحسب بل من نفس قيادات الحركة وأرباب بيوتها بعد سقوط وانحدار الحركة أو قرب سقوطها ، فالمقنع يأخذ أهل بيته جميعا ويقضى عليهم بطريقة او بأخرى حتى لا يكونوا عرضة للأسر أو القتل أو التنكيل من بعده ·

ومن أشهر المخلفات الاجتماعية التى أفرزتها صراعات الدولة مع الخارجين والتى كانت سببا رئيسيا فى عوامل الاحجام والاقدام للأفراد والأسر والمجتمعات ككل على حد سواء · الأسرى فمن المعروف أن نجاح الخارجين المؤقت فى صراعهم مع الدولة كان يمكنهم من الامساك ببعض قيادات الدولة ، كما ان سقوط الخارجين بعد ذلك كان يمكن الدولة من تتبع هؤلاء الخارجين فى كل مكان والحصول عليهم ثم التصرف فيهم بالقتل او الأسر حسب الحاجة لهذا الأسير (٩) ووصل الأمر بالدولة الى أنها قامت بأسر الأقارب والعمال والكتاب بل والأولاد (١٠) وإن كانت قد عفت عن بعض الأسرى لأسباب متنوعة كالحاجة إليهم (١١) أو لعلو مكانة هذا الأسير وما يمكن أن يحدثه من آثار عكسية قد تؤثر على أوضاع منطقته (١٢) ·

كما خلف صراع الدولة مع الخارجين كمية لا بأس بها

(٩) الطبرى : تاريخ الامم والملوك جـ ٧ ص ٤١٥ ·
(١٠) ابن الأثير : الكامل جـ ٥ ص ١٧ ·
(١١) المرجع الأسبق جـ ٦ ص ٤١٥ ·
(١٢) المرجع الأسبق جـ ٥ ص ١٢ ·

من السبى والذى كانت محصلة طبيعية لهذا الصراع ٠ ولا يخفى أن تأثر المجتمع بأسره وأفراده وهو يرى كميـــات السبى التى وقعت فى يد الدولة نتيجة لهـــذا الصراع لابد سيكون له أثره فى خلق عوامل الإحجام والاقدام عند أخذ قرار المشاركة مع أى من الفريقين أو الاحجام التام ٠

وحقيقة فقد تنوعت مواقف الدولة تجاه قضية السبى من اسر الخارجين ومن ثم فإن الدولة لم تسب نســـاء الخارجين الذين خرجوا تحت منظور دينى معين ٠مثل إنكار بعض تصرفات الدولة التى تتعارض مع أفكار وأحكام الشرع والدين ٠ حيث رأينا المنصور عندما بعث « زياد بن صالح الخزاعى » لحرب « شريك بن عون الهمدانى » الذى خرج من أجل الدين وغيره أله ٠ نصحه أن لا يقتل الرجال ولا يسبى النساء ، ومن ثم يرد السؤال هل كانت الدولة تسبى نساء مسلمات خرج أزواجهن لأسباب أخرى سياسية أو غير ذلك٠

الحقيقة أن الروايات الموجودة لا تدل على شيء من ذلك وإن وجدت بعض التصرفات والأقوال التى تحمـــل روح المحاولة وذلك مثل محاولات الجند العباسيين فى الموصـــل لسبى بعض الحرائر وإن لم يتمكنوا من ذلك (١٣) وإن كانت هذه الأمور لا تنهض دليلا على سبى الخارجين الذين يدينون بالاسلام ، ومن المعـــروف أن الدولة قد سبت أسر حركات

---

(١٣) الديوجى : تاريخ الموصل جـ ١ ص ٦٠ ٠

الخرمية (١٤) والزط والقبط (١٥) والزنادقة وغير ذلك من الحركات التى لا تدين بالاسلام أصلا ٠

وتجدر الإشارة الى ان الخارجين من ذوى الأجنحـــة العسكرية ممن لا يدينون بفكر إسلامى معين لم يتورعوا عن سبى النساء المسلمات ويدخل فى نطاق ذلك الخارجين من أبناء الحركات الفارسية (١٦) ٠

هذا وقد خلف صراع الدولة مع الخارجين من بين ما خلف نوعية معينة من الجوار بعد أن أسهمت حركات الفجور فى تطوير فكر هؤلاء الجوارى وقدراتهن وثقافتهن مما يمكننا أن نقول أن الجارية دخلت الحياة السياسية فى ذلك العصر من أوسع ابوابه فقد تمكنت جارية من القضاء على « يعقوب بن داوود » (١٧) واتهم الجوارى بقتل الهادى وإن كان هذا قد تم بتوجيه من أمه بعد موقفه المخالف والرافض لها ولتدخلاتها السافرة فى شئون الدولة (١٨) ونصح الجـــاحظ الحكام باستخدام الجوارى لاختبار الأتباع ومدى صدقهم وحرصهم على حرمة بيوت الخلافة (١٩) ٠

---

(١٤) ابن الأثير : الكامل جـ ٥ ص ١٢٨ ٠
(١٥) د/قاسم عبده : أهل الذمة فى مصر فى العصـــــــور الوسطى ص ٤٤ ٠
(١٦) السيد سالم : العصر العباسى الأول ص ٨٨ ٠
(١٧) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ١١٦ ٠
(١٨) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ ٦ ص ٤٢١
(١٩) الجاحظ : التاج فى أخلاق الملوك ص ١٠٠

وبذلك الدولة الغالى والرخيص فى سبيل اقتنائهم ومن ثم نراهم يملكن قلوب الخلفاء ويسيرون الكثير من الامـور السياسية تبعا لأهوائهن (٢٠) ٠ ولا يخفى أن صراع الدولة مع الخارجين أدى لاستخدام الجوارى فى الأمور السياسية واقصد بذلك أمور الجاسوسية وغيرها وكان البرامكة هـم أساتذة هذا المجال بلا منازع (٢١) ٠

ونظرا لاحتدام الصراع بين الدولة والخارجين فقد بحث كل منهما عن التجمعات البشرية والتكتلات ذات الصـفة العرقية أو الفكرية وأصبح اختلاف مثل هذه التكتـلات امرا طبيعيا ويبحث عنه كلا الجانبين واصبحت هـذه التكتلات من مخلفات الصراع ومن الأسـباب التى تدعو المجتمعات والأسر لأخذ موقف واضح من الصراع فإما البعد عنه أو القرب منه والاندماج فيه ومن ثم فقد حدث تطور غير بسيط فى وضع الموالى إذ ارتفع قدرهم بصورة ملفتة للنظر وخاصة موالى العباسيين فاقطعوهم الاقطاعات الواسعة (٢٢) وولوهم الولايات وقربوهم من مجالس الحكم مما لفت نظر بعض أعضاء البيت العباسى انفسهم فعرضوا قضـية حب الموالى ومكانتهم فى قلوب العباسيين للمناقشة وإن كان البحث لم يصرح بذكر الحقيقة الجاثمة فى احتياج الدولة لهؤلاء الموالى وتكتلاتهم الخطيرة أو احتياج الموالى للتواجد

---

(٢٠) الطبرى : المرجع الأسبق جـ ٦ ص ٤٠٥ ، ٤٢١

(٢١) الذرمانيلى : ازمنة التـاريخ الاسـلامى ص ٩٧٦ ، شوقى ضيف : الفن ومذاهبه فى الشعر ص ١٠٢

(٢٢) صالح للعلى : بغداد مدينة السلام الجانب الغربى ص ٦٧ ٠

فى تكتلات يعمل حسابها ويبحث عنها وانصب الحديث كله على الفكر ومظاهر بعيدة عن الواقع (٢٣) .

والحقيقة أن نفس هذه الظروف دعت الموالى لأن يجدوا لأنفسهم دورا ، وعليهم أن يكونوا في الصورة فى ظل حياة يصعب العيش فيها بعيدا عن مثل هذه التكتلات ونستطيع أن نقرر ان اشتراك هذه التكتلات فى هذا الصراع كان بمحض إرادتها ورغبتها وبحثا عن مصلحتها الخاصة .

والحقيقة أن باقى الفرق وبالأخص الشيعة حرصت على موضوع الموالى هذا فقربتهم وارتبطت بهم برباط النسب على أن موالى الشيعة قد قبلوا هذه الصلات بالرغم من أنها سوف تجعلهم (٢٤) طرفا رئيسيا فى صراع الشيعة مع الدولة .

ومن بين المخلفات الاجتماعية ما انساب فى صلب المجتمعات فى تلك الفترة من مشاركة للذميين فى أعيادهم وإظهار أشكال الفرح والسرور بأعيادهم فرأينا العامة فى الكنائس تشاهد الاحتفالات الكنسية وتدعوا بعضها بعضا إليها (٢٥) .

ومن الثابت مشاهدة المأمون لبعض هذه الأعياد مع

---

(٢٣) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ ٦ ص ٣٩٧ .
(٢٤) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ ٦ ص ٤١١ .
(٢٥) الشابشتى : أبو الحسن على بن محمد ت ٣٨٨ هـ : الديارات تحقيق كوركيس عواد ص ١٧٧ ط/٣ - ١٩٨٦ م . بيروت .

مجاميع من العامة فى أحد الأديرة عندما وافق نزوله هذا الدير
لعيد من أعيادهم أثناء رحلته للشام (٢٦) .

ويستتبع ذلك الاشارة لما أحدثته هذه الأديرة والكنائس من نشر روح المجون والرذيلة فى أوساط المجتمعات العباسية فى تلك الأديرة فهى أماكن واسعة مترامية الأطراف مليئة بالزراعات والأبنية المختلفة والغرف الخالية المهجورة كما أنها تقدم أجود أنواع الخمور فى الوقت الذى حوت فيه الكثير من صور الجمال الطبيعى والجنس فى الوقت نفسه فهى أماكن منعزلة تحقق الأمان لطالبى الرذيلة وأريد أن أقول أن كتاب الديارات (٢٧) ملىء بذكر هذه الأشياء وما هو أكثر منها مما يعف القلم عن تسجيله .

---

(٢٦) نفس المرجع والجزء والصفحة .
(٢٧) الشابشتى : ص ٥٠ ، وما بعدها . وغير ذلك من الصفحات الكثير .

٢ - المعاناة الاقتصادية :

عانت الشعوب أيما معاناة من صراع الدولة مع الخارجين وكانت المعاناة الاقتصادية من أظهر وأوضح صور هذه المعاناة ومن ثم فإن قرار هذه الشعوب بالدخول فى خضم هذه المعاناة لابد وأن يحكمه العامل الاقتصادى .

وبمعنى أوضح لابد وأن تحسب حساب الأرباح والخسائر فى حالة المشاركة وعدمها .

ولابد أن يتأثر قرار هذه المجتمعات والشعوب بالأساليب الاقتصادية التى عاملت بها الدولة أو الخارجين هذه الشعوب والمجتمعات إبان صراعهما معا .

وحقيقة فإن الناظر لهذه الأساليب الاقتصادية التى عوملت بها الشعوب من قبل الدولة أو الخارجين على حد سواء سيجد أنها أساليب تنوعت بين سياسة التجويع أو الأتاوات أو الحرب الاقتصادية على مختلف أشكالها وإن كانت جميعها يمكن إدراجها تحت مسمى واحد ألا وهو المعاناة الاقتصادية .

(أ) سياسة التجويع :

وبداية نستطيع أن نتحدث عن سياسة التجويع لنتبين كيف عانت الشعوب من هذه السياسة وكم كلفتها من قوتها وقوت أبنائها ومن ثم يتضح كيف تباينت مواقف الشعوب من صراع الدولة مع الخارجين ولم كان هذا التباين ٠

والشيء الذى يستحق التسجيل أن بدايات مثل هـــذا التصرف فى العصر الاسلامى الأول حيث قطع تمامة بن أثال الحنفى ميرة اليمامة عن قريش عندما دخل الاسلام لم يعدها إلا بعد أن أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك (٢٨)

على انه قد حدثت مواقف مشابهة فى العصرين الأموى والعبـــــاسى فقد كان من بين أنواع الميرة التى منعت عن الحجاز ، والتى ذكرت معماة فى الكتب ميرة البحرين (٢٩) واليمامة (٣٠) على اعتبار أنهما من أقدم أنواع الميرة التى كانت تفد الحجاز بل ومن أهمها ، على أن ما ذكر يعد مثـــالا

---

(٢٨) د/عبد الله محمد السيف : الزراعة فى اليمامة فى العصر العباسى ص ٨١ مقالة مطبوعة فى الندوة العالمية الثالثة لتاريخ العلوم عند العرب ٠ وموضوعها اسهامات العرب فى علم الفلاحة ٠ الكويت قســـم التراث العربى ط/١ ــ ١٤٠٨ هـ ــ ١٩٨٨ م /

(٢٩) البحرين : اسم البلاد على ساحل بحر الهند بين البصرة وعمان قيل انها من أعمال العراق ٠ ياقوت الحموى : معجم البلدان جـ ١ ص ٣٤٧

(٣٠) اليمامة : اختلف فى أصل الكلمة ومعناها ، كان فتحها وقتل مسيلمة الكذاب عام ١٢ هـ ٠ بين اليمامة والبحرين عشرة أيام ٠ ياقوت معجم البلدان جـ ٥ ص ٤٤٢ ٠

واضحا لفكرة سياسة الجوع وكيف يمكن أن تكون فلسفة اقتصادية للدولة والخارجين فى فترات اصطدامها السياسى والعسكرى .

ومن أشهر أفكار سياسة الجوع العمل على توقف مطاحن المياة التى تعمل بواسطة تدفق مياه الأنهار وهى تعتمد على أثر المد والجزر فى عملها حيث برع فى ذلك أهل البصرة وأهل الموصل وكثير من مدة العراق (٣١) ، حيث يقوم أحد طرفى الصراع والراغب فى تنفيذ تلك السياسة بطمث هذه الأنهار وإغراق تلك السفن وهذه المطاحن ، لتمنع أهل البلدة من الحصول على أهم ناتج اقتصادى وهو الدقيق والزيوت .

وحقيقة فقد استخدم الخارجون فى الموصل أسلوب إغراق السفن والطواحين لتعطيل هذه الصناعات عند اشتداد الازمات والاصطدامات السياسية والعسكرية (٣٢) مع الدولة . كما قام طاهر بن الحسين إبان حصاره لبغداد بطمث بعض الأنهار انطلاقا من هذه السياسة أيضا .

وانطلاقا من تلك السياسة الاقتصادية نعرف سبب الاستيلاء على أموال الكثيرين من الوزراء والعمال والكتاب

(٣١) د/انور عبد العليم : الملاحة وعلوم البحار عند العرب ص ٨٥٣ تقوم الفكرة على استخدام ضغط تدفق المياه فى الأنهار لادارة تروس الدواليب التى تحرك المطاحن والتى تقوم بدورها بطحن الحبوب وعصر الزيوت .

(٣٢) الديوجى : تاريخ الموصل جـ ١ ص ٤٢٥ .

والأطباء واستصفاء أموالهم (٣٣) كما كانت تحد من الأرزاق والعطاء بناء على سياسة معينة الفيصل فيها المواقف المتباينة من صراعها مع الخارجين ٠

وبناء على ما سبق نستطيع أن نفسر هذه المجاعات التى كانت تحدث فى ذلك العصر والتى تزامنت مع خروج الفرق ، حيث يذهب بارتولد فى تفسيره لمجاعة خراسان في عام ٢٠١هـ لثورات بلاد ما وراء النهر وعدم استقرارها خاصة بعد رحيل المأمون من خراسان لبغداد مما دعاهم لقطع إمداد خراسان بالغلال (٣٤) ٠

وأود أن أشير لبعض الروايات التى لم تأخذ حقها من الدراسة والتى يفهم منها ذلك الفهم وهو فكر سياسة التجويع فهناك محاولة أبى أيوب المورياني لشراء طعام سوادى الكوفة والبصرة انتهازا لفرصة رخص الأسعار(٣٥)، وحقيقة فإن تصرف أبى أيوب هذا بالاضافة الى تصرفاته السياسية التى أودت به الى النهاية المعروفة يمكن أن تفسر على أنها محاولة استخدام فكر سياسة الجوع على سوادى البصرة والكوفة بعد الاستحواذ على طعامهما ، مما يكون سببا رئيسيا فى تذمر الرأى العام الشعبى وتحرك الجميع للثورة ٠

(٣٣) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ٦ ص ٤١٧ ٠
(٣٤) تركستان : ص ٣٣٤ ٠
(٣٥) فاروق عمر « الجذور التاريخية للوزارة العباسية » ص ٤١

واستخدم فكرة سياسة التجويع على نطاق واسع من طرفى القتال الرئيسيين إبان الفتنة بين الأمين والمأمون (٣٦) .

على أن غالبية الناس قد تأثرت بهذا الفكر ، إذ رأينا الكثيرين ممن يحملون فكرا عقديا أو سياسيا معينا يحاربون فى أرزاقهم بل ويمنعون من تولى مناصب الدولة وعزلهم وأول ما نلاحظه هو أن ولاية مدن الخارجين أصبحت منوطة بمن لديهم القدرة على التلويح والارهاب بهذا الفكر ثم القدرة على استخدامه (٣٧) .

كما أصبحت الصلة بالبلاط العباسى والحصول على أموال الدولة منوطة بتولى الفكر السياسى للدولة وإلا أصبح التجويع هو النهاية المرتقبة (٣٨) .

على أن فترة فتنة القول بخلق القرآن كانت من أشهر الفترات التى اتبع فيها فكر سياسة التجويع لاقرار فكر عقدى معين تحمله فرقة معينة على جموع المسلمين ، ومن ثم فقد اقتصرت المناصب الرسمية فى الدولة على من يؤمن بهذا الفكر وأصبحت الامتحانات تجرى وبعد ضمانا لعدم

(٣٦) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ ٧ ص ٦١ ، ٦٣
(٣٧) البلاذرى : انساب الأشراف جـ ٣ ص ١١٥
(٣٨) د/سلومة : شخصيات كتاب الأغانى ص ٢٥٦ .

تولى أى مسئول لوظيفة ما إلا وهو مؤمن بفكر المعتزلة (٣٩)، وإلا فالجوع له ولأسرته هو المصير المحتوم ، وبلغ الحال بالعلماء فى ظل سياسة التجويع هذه الى ترك مدنهم والهجرة منها مع أن كل حاجتهم اليومية لا تتطلب أكثر من بعض الباقلا (٤٠) .

(ب) المكوس والاتاوات :

من بين صور المعاناة الاقتصادية التى عانت منها الشعوب والمجتمعات سياسة المكوس والاتاوات .

ولا يخفى أن مثل هذا النظام تضطر إليه الجماعات المتحاربة - الدولة أو الخارجين - لتمويل نفسها خاصة عندما ينتقص من يدها التمويل اللازم لاستمرار هذه المعارك .

ولا يخفى أن من يدفع الثمن فى هذه اللحظة هم الشعوب من قوتهم وقوت أسرهم على أن الموسرين يصبحون فى الغالب عرضة أكثر من غيرهم لأساليب الابتزاز المختلفة

---

(٣٩) ابن الأثير : الكامل جـ ٥ ص ٢٢٢ ، أبو زهرة : تاريخ المذاهب الاسلامية ص ٤٩٧ .

(٤٠) أبو بكر محمد بن الحسن : طبقات النحويين واللغويين ص ٥٥ الباقلا : نوع من الطعام فى البصرة . دار المعارف مصر .

إبان الصراعات والمدن سواء من الدولة أو من الخـــارجين عليهـــا .

وإذا كان رأس المال جبانا بطبعه فلابد أن صاحبه سوف يكون له موقف من هذه الصراعات وسوف ينبع ذلك الموقف من حرصه على ماله وبحثه عن سبل الاستقرار والأمان خاصة لهذا المال . ومن ثم فإن الموسرين والقادرين من أى الطبقات سوف ينظرون للجبهة الأقوى والجهة الغـــــالبة ليعلنوا انضمامهم إليها وحتى لا يضيع منا الحديث عن ســـياسة المكوس والاتاوات التى طبقت فى ذلك العصر على مســـتوى واسع نستطيع أن نضرب لهذه السياسة عدة أمثلة من واقع الأحداث التاريخية إذ كلف الأمين أحد قواده بتتبع أموال الموسرين والقادرين من أصحاب الأموال واستقصائهـــــا للدولة (٤١) . وقد قام ذلك القائد بتنفيذ هذه السياسة على خير ما يرام على أن الملفت للنظر هو موقف التجار وأصحاب رؤوس الأموال والذين غيروا مواقفهم تبعا لظروف الحرب والمصادمات بين الأخوين واستطاعوا أن يلعبوا مع الطـرف الغالب طوال فترة الصراع بحثا عن الأمان والاســـتقرار لأموالهم بغض النظر عن اعتقادهم الفكرى ولمن يكون !!

أما الخارجون فقد كانت سياسة فرض المكوس والاتاروات هذه سياسة معلنة وصريحة لهم ومصدرا من أهم مصادرهم الماليـــــة .

---

(٤١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ ٧ ص [illegible] .

والعجيب أن حركة كحركة الخوارج بالرغم مما عرفت به من تعبد وصدق وما حواه منهجها العقدى من اعتبار الذنوب كلها كبائر وأن ليس فى الذنوب صغائر .

إلا أنهم لم يتورعوا عن هذه السياسة ، إذ نرى الفضل ابن سعيد بن مراد الخارجى يأخذ من أهل بلد ، وخلاط ، وارزن ما يقرب من مائة ألف أو يزيد (٤٢) .

وجبى الوليد بن طريف الأموال فى الجزيرة وارمينية (٤٣) وعند اندلاع حروب الخصومة القبلية بين عرب الشمال والجنوب اتبعت أساليب فرض الإتاوات على نطاق واسع وكان الخارجون من أصحاب حركات العيارين والشطار أشهر من مارس هذا الأسلوب ونفذه كسياسة صريحة لجمع الأموال وتمويل الحركة ، إذ فرضوا الإتاوات صراحة على التجار والأسواق والموسرين (٤٤) .

واستطاعت نفس هذه الحركات إبان فتنة الأمين والمأمون ان تجبى الكثير من الأموال بفرض المكوس والاتاوات على التجار والموسرين قسرا (٤٥) .

وفى أثناء هذه الفتنة عانى التجار أشد العناء من عملية

---

(٤٢) الديوجى :: تاريخ الموصل جـ ١ ص ٧٠ .
(٤٣) الطبرى : تاريخ الأمم والمللوك جـ ٦ ص ٤٦١ .
(٤٤) نفس المرجع جـ ٧ ص ١٣٦ .
(٤٥) نفس المرجع والجـزء ص ١٢٧ .

فرض المكوس والاتاوات من الطرفين المتحـــاربين إذ نرى المسيب بن زهير الضبى من قواد الأمين ـ يعشر أموال التجار صراحة أثناء الفتنة ، كما كان يراقب السفن الداخلة لبغداد عن طريق المنطقة التابعة له ويفرض عليها ، خاصة إذا كانت محملة بالبضائع ، إذ كان يفرض على هذه الســـفن ما يصل للألف والألفين بل والثـــلاثة آلاف درهم نـ٤٦) فى بعض الأحيان حسب الحمولة ونوع التجارة . وعلى الجـــانب الآخر قامت قوات طاهر بن الحسين من قواد المأمون باتبـــاع نفس السياسة سواء مع التجار أو السفن (٤٧) .

وبعد هدوء الأوضاع واستتباب الأمن بعد صراع الأخوين الأمين والمأمون إذ بأحد الخارجين (٤٨) يخرج فى سفلة من الناس وجماعة كثيرة من الأعراب حتى أتى النيـــل ففرض سياسة المكوس والاتاوات حتى انه انتهب القرى (٤٩) .

على أن أكبر حركة منظمة عاشت لفترات طويلة فى قلب الخلافة العباسية تجبى الأموال وتفرض الضرائب والمكوس كانت حركة الزط ، إذ استطاع الخارجون من أبناء هـــذه الحركة أن يقطعوا طريق البصرة ، وأن يفـــرضوا المكوس والاتاوات على السفن الداخلة لبغـــداد لفترات طويلة حتى

---

(٤٦) نفس المرجع والجزء ص ٤٩ .
(٤٧) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ ٧ ص ٦٣ .
(٤٨) اسمه الحسن الهرشى : خرج يدعو للرضا من آل محمد عام ١٩٨ هـ . وقتله ازهر بن زهير المسيب عام ١٩٩ هـ .
(٤٩) نفس المرجع جـ ٧ ص ١٦٦ .

تمكن عجيف بن عنبسه من القضاء عليهم فى النهاية (٥٠) ٠

ومما تجدر الإشارة إليه أن عملية فرض المكـــــوس والاتاوات هذه كانت لها آثار اقتصادية سيئة على الشعوب والمجتمعات بل والدولة العباسية ذاتها ، إذ اختفت السلع وهرب التجار وغلت الأسعار الى غير ذلك من الآثار الاقتصادية السـيئة ٠

وما حدث فى الموصل إبان حروبها مع الدولة خير مثـال لذلك حيث كانت سياسة فرض المكوس والاتاوات على نطاق واسع فلم يجد أهل البلد بدا من مغادرتها والهروب منها مما كان سببا رئيسيا فى خرابهـا وتوقف أسـواقهـا وتجـاراتها (٥١) ٠

هذا وقد عانت الكنائس والأديرة المسيحية من المكوس المختلفة التى فرضت عليهـا من قبـل الدولة ٠ حيث شملت الحوانيت والخانات والحمامات والطواحين والمزروعـات والبساتين مما نستطيع أن نفهم منه أنه سبيل من سـبل ضرب قوى القيادات الكنسية حتى لا تفكر فى الخروج او فى إعانة الخارجين من أبناء الحركات المسيحية ٠

---

(٥٠) نفس المرجع جـ ٧ ص ٢٢٤ ، ٢٢٥

(٥١) الديوجى : تاريخ الموصـل جـ ١ ص ٧١ ٠

(جـ) الحرب الاقتصـــادية :

المتتبع لصراع الدولة مع الخارجين سوف يلفت نظره أن كلا الطرفين لم يكتفيا بالحرب العسكرية الدائرة بينهما وإنما حاولا ان تكون لهذه الحرب صورة أخرى غير الصــــور العسكرية وأقصد بهذه الصورة صورة الحرب الاقتصادية ٠

والغريب فى هذه الحرب أنها كانت تعتمد على جلب اكبر قدر مادى مستطاع بطرف المحارب فى الوقت الذى تعمــــل فيه على حرمان الطرف الآخر من كافة صور وأشكال العون الاقتصادى بل وحرمانه من اقتصادياته هو شـخصيا التى يمكن ان يعتمد عليها .

ما يعنينا أن الشعوب والمجتمعات قد تأثرت بهــــذه الحرب الاقتصادية بالطبع ولابد أن هذا انعكس على تبعياتها وارتباطاتها الفكرية والمذهبيـــة ســــواء مع الدولة أو الخارجين ٠

وأول صور الحرب الاقتصـــادية ما عاملت به الدولة الشيعة ، حيث حرمت الدولة العلويين من حقهـــم فى الفىء (٥٢) فى الوقت الذى ذهبت فيه آراء العلماء للقول(٥٣)

---

(٥٢) الأصبهانى : ابو الفرج على بن الحسين بن محمد بن احمد الأموى ت ٣٥٦ هـ مقاتل الطالبيين ص ٢٣٠ النجف ١٣٥٣ هـ

(٥٣) الماوردى : محمـــد بن حبيب البصرى ت ٤٥٠ هـ الأحكام السلطانية والولايات الدينية ص ١٨٤ ط/١ مصر ١٩٨٣ ، السايس : الشيخ محمد على ٠ تفسير آيات الأحكام جـ ٢ ص ٨ مصر ١٩٥٣ م ٠

بأن سهم ذوى القربى لا يسقط لأنه مستحق لجماعتهم ومن الواجب فصله عن بيت المال ولا يكون للإمام رأى فيه .

على أن الذى لا خلاف عليه هو أن حرمان الشيعة من أموالهم هذه سوف يحرمهم من مورد هام من مواردهم المالية من الممكن أن يعينهم فى تحركاتهم وصراعاتهم التى لا تنتهى مع الدولة . خاصة وأن أمور تمويل الحركات من الأمور الهامة لأن المال هو الذى سوف يجلب الأتباع ويخرج المنعزلين عن عزلتهم ويدعوهم للمشاركة طمعا فى الربح المادى . كما أن نفس هذه الأموال ـ أموال الفىء ـ والتى احتفظت بها الدولة لنفسها بدلا من أن تكون قوة للعلويين سوف تكون قوة تضاف وتحسب لقوة الدولة .

ونستطيع أن نستشعر ملامح هذه الحرب فى بيع العلويين لبعض دورهم وممتلكاتهم إبان خروجهم على المنصور لعيسى بن موسى والذى بشر المنصور بشرائه لهذه الدور ـ على اعتبار أنها دور أعدائهم ـ فما كان من المنصور إلا ان استوعب سريعا هذا التصرف من قبل العلويين وأنزله منزله الصحيح النابع من فكر الحرب الاقتصادية ليعلن ان العلويين ما باعوها إلا ليخرجوا على الدولة بثمنها (٥٤) .

ونظرا لاستيعاب المنصور لفكر الحرب الاقتصادية فقد مارسه على نطاق واسع مع تلك المجتمعات التى شاركت فى

(٥٤) الأصبهانى : مقاتل الطالبيين ص ٢٥٦

الثورات وخاصة ثورات العلويين ، حيث هدم دور من خرج مع النفس الزكية وأخوه ابراهيم كما عقر نخيلهم (٥٥) بل أنه عزم على تخريب المدينة وأن لا يدع بها نافع حزمه (٥٦) ٠

ونظرا لمعرفة المنصور بأسس الحرب الاقتصادية والتى تقوم على حرمان العدو من أى معطيات مادية فقد قام المنصور بقبض كل أموال الطالبيين بالمدينة (٥٧)حتى يحرم الشيعة من كل صور التأييد المادى اللازمة والمعينة فى جلب الأتباع وتمويل مواقف الأغلبية من أبناء المجتمعـــات على مختلف أشكالهم وذلك بالتلويح لهم بالعطاء المادى ٠

ونستطيع أن نفسر موقف تلك المجاعات التى اجتاحت البصرة (٥٨) بعد القضاء على حركة ابراهيم بن عبدالله من نفس المنظور السابق ألا وهو منظور الحرب الاقتصادية التى دارت مع الخارجين ومدنهم ٠

وكذلك حوربت المدينة اقتصاديا على يد الدولة ، إذ أقفل البحر على أهل المدينة فلم يحمل للمدينة عن طريقه شىء طوال فترة المنصور ولم يأذن لهم فى الحمل عن طريق البحر إلا فى عصر المهـــدى (٥٩) ٠

---

(٥٥) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ ١ ص ٢٥٢ ؛ الجاحظ : البيان والتبيين ٢/٢٨٢ ٠

(٥٦) الآبى : نثر الدر جـ ١ ص ٣٥١ ٠

(٥٧) الطبرى : المرجع الأسبق جـ ٦ ص ٢٠٥ ؛

(٥٨) الجاحظ : البيان والتبيين جـ ٢ ص ٩٣ ٠

(٥٩) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ ٦ ص ٢٥٥ ؛

وردت الدولة على ثورات القبط فى مصر بنـــوع من الحرب الاقتصادية (٦٠) والتى وصلت آثارها لحد هجــر الفلاحين لأرضهم .

وفى عصر الهادى اتبع والى المدينة مع الخـــارجين من العلويين والمؤيدين لحركة الحســـــين صاحب فخ نفس الأسلوب إذ عمد لدورهم وأموالهم فقبضها كمـــا أنه عقر نخلهم (٦١) .

ويلاحظ أن رحى تلك الحرب لم تتوقف عند ممارســات الدولة فقط ، بل امتدت لفرق الخارجين على مختلف أشكالهم فقد كان من أوائل التصرفات التى يقوم بها الخارجون بعد إعلان ثورتهم انتهابهم لبيت المال ، حــدث ذلك إبان ثورة النفس الزكية (٦٢) وأخوه ابراهيم (٦٣) والحســـين ابن الأفطس وفى حركة أبو السرايا بالكوفة استولى الخارجون على أموال العباسيين وتتبعوها (٦٤) وكذلك تتبع زيد النار أموال العباسيين واستصفاها لنفسه ولم يبق منها شـــيئا حتى أنه كان يحرق ما تصل إليه يده من عقاراتهم وزراعاتهم حتى أطلق عليه لقب زيد النار .

---

(٦٠) الكندى : الولاة والقضاة ص ١١٩ ، ص ١٨٦ .

(٦١) الأصبهانى : مقاتل الطالبيين ص ٣٠٥ - يلاحظ انه شـــيعى فلا يعتمد عليه فى قضايا العلويين .

(٦٢) ابن الأثيـــر : الكامل جـ ٥ ص ١٧ .

(٦٣) المرجع السابق ص ٧٥ ، الطبـــرى : تاريخ الأمم والملوك جـ ٦ ص ٤١٣ .

(٦٤) الطبرى : المرجع الســـابق جـ ٧ ص ١١٩ .

واستطاع الخارجون أن يستولوا على إمكانات نفس البلاد التى خرجوا منها كابراهيم بن عبد الله بن الحسن(٦٥) والزط ، حيث استغلوا منطقة ظهورهم فنهبوا الطريقين البرى والبحرى (٦٦) .

ولا يخفى أن ظهور الخارجين فى أى منطقة من مناطق الحضر كان يمكنهم من الاستيلاء على كميات هائلة من الطعام والعلف والخيول والأسلحة من الأشياء التابعة للدولة والمعدة لأجل استخدامها عند الحاجة إليها .

واستطاع الوليد بن طريف الشارى أن يحصل على كثير من الأموال عن طريق ضرب الحصار على المدن حتى تستسلم فيرفع عنها الحصار نظير أموال معينة (٦٧) ، مما مثل معاناة ضخمة وقاسية على شعوب وأهالى هذه المدن .

(٦٥) البلاذرى : أنساب الأشراف جـ ٣ ص ١٢٧ .
(٦٦) الخضرى : محاضرات تاريخ الأمم ص ١٩٥ .
(٦٧) ابن الأثير : الكامل جـ ٥ ص ٩٧ .

فهـــــرس الموضـــوعات

الموضـــــــــــوع	الصفحة

مطابــع الشــــــــناوى

طنطا ـ ميدان الساعة ـ ت : ٣٣٢٩٥٠

